عقيدة التثليث في المسيحية
وموقف الإسلام منها

[قل ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا شهدوا بأنا مسلمون]
صدق الله العظيم

(آل عمران / ٦٣)

تأليف

الدكتور
محمد أبو الغيط الفرت
أستاذ العقيدة والفلسفة ــ جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

دار الطباعة المحمدية

الأزهر بالقاهرة



مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ، ولم يكن له سبحانه من عباده جزءا ، فتبارك الله رب العالمين .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أرسل رسله تترى برسالة التوحيد الخالص ، كما بعث سيد الرسل محمدا ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وأنزل عليه القرآن ليهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم .

وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله ، بشرت التوراة والإنجيل بظهوره ودعا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادل عن الحق بالتى هى أحسن ، ﷺ وعلى آله ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .

أما بعـــد :

فهذا كتاب فى بيان موقف الإسلام من عقيدة التثليث فى المسيحية ، أقدمه للقارىء ترسيخا لعقيدة التوحيد التى أتى بها دين الحق ، دين الإسلام فإن : « من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهـــو فى الآخرة من الخاسرين » . [آل عمران / ٨٥] .

إن من يعمل النظر ويمعن الفكر فى موجبات الذات الأقدس — سبحانه وتعالى — لا بد أن ينتهى إلى الإيقان عن دليل بأنه ، واجب

الوجود لذاته ليس مركبا ، ولا مؤلفا من أجزاء ، بل هو أحد بسيط لا أول لوجوده ولا انتهاء له ، فهو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو على كل شيء قدير ، وهو منزه عن المحدودية أو التحيز ، وأنه يجب له كل كمال يليق بذاته ، ويتنزه عن أدنى نقص يمس كماله الذاتي .

وإنه ليهولن الناظر غير المتعصب ما يعتقده المسيحيون من أن الله ثلاثة ، يتسمى الأول منها بالآب ، والثاني بالإبن ، والثالث بالروح القدس ، ثم يجعلون الثلاثة واحدا !!! ولم لا يكون الله واحدا دون ما تثليث ولا تعدد ؟ .

كما يتوقف فكر الناظر وعقله ووجدانه مندهشا أمام القول بتجسيد الإله المدعو بالإبن ثم موته ذبيحة فداء وكفارة لما توهموه من وراثة بني آدم لخطيئة أبيهم ، وديمومتها إلى أن يأتي ذلك الإبن ليقتل صلبا بيد البشر ليحقق الفدية — وكأن جلالي الألوهية لا يملك العفو عن المخطيء بدون فدية ، ولا يقدر على الغفران إلا بارتكاب البشر لجريمة قتل الإله — أليست هذه الجريمة أكبر وأعظم من خطيئة آدم ؟ أليست هذه الجريمة تستوجب فدية أخرى ؟ على نمط الفدية السالفة ؟ .

إن القول بالتثليث صريح في تعدد الإله ، وتجسيده صريح في تأليفه من أجزاء ، ويلزمه التحيز المحدود بالمكان ، والتشخص الذي من طبع الحوادث ، وهذه مبادىء يأنف العقل السليم أن يتصورها ، وذلك لما انطوت عليه من متنافرات ومتناقضات في العقل والنظر الصحيح إذا ما أريد استكناه هذه الفكر وتلك العقائد ، وفوق ذلك فإن النظر في الكتاب المقدس الذي هو رائد دين النصرانية لا يجد فيه قولا صريحا يفهم منه تثليث الإله .

إنه لمن المدهش حقا أن يكون أتباع هذا الدين كثيرين يفوقون العد والحصر ويحتلون معظم المعمورة ، وفيهم من المفكرين والباحثين من

قدموا للإنسانية من نتاج بحوثهم وعلومهم ما أضاء الوجــــود، وأسعد البشرية .. ثم هم لا يعيدون النظر فى قضايا الألوهية وما يدعونه لإلههم من أمور تتهافت أمام جلال ألوهية الإله ، ولا يعيرونها أدنى تأمل ونظر أمام مرآة الفكر الحصيف وفى ميزان الحق والعدل والإنصاف ، خاصة وأن النظر فى تصحيح العقائد وموجبات الألوهية أسمى وأظهر من النظر فى مخلوقات الإله التى برعوا فى معرفة خصائصها . ومن يدرى فلعل منتهى المطاف فيما يقومون به من معارف كونية معجزة أن يسلمهم ذلك إلى معرفة الحقائق الموصلة إلى معرفة الحق كما قال سبحانه : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (فصلت/٥٣) ، وذلك إذا ما تجردوا من سلطان الكنيسة ومن وصايتها على العقول والأفكار ، خاصة فى مجال الدين والعقائد

لهذا حررت هذا الكتاب لبيان فساد هذه العقيدة من خلال الموقف الإسلامى منها، وكل ما أرجوه من هذا البحث أن يكون بعون الله مرشداً ودليلا لكل من يريد أن يعرف موقف الإسلام من عقيدة التثليث فى المسيحية ، وليكون إضافة جديدة إلى المكتبة الإسلامية، وسفرا متواضعاً فى التراث الإسلامي ، عسى أن يهتدي به ضال من أتباع المسيحية من الذين يتوقون إلى معرفة الحقائق عن دينه ، ومنتهى أمره ، مع تبصيره بعقيدة الإسلام فى المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام ، فيكون بذلك الخير كله ، كما قال ﷺ « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم — أو خير لك من الدنيا وما فيها » . «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق » (الأنبياء / ١٨) « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » (الرعد /١٧) .

والله وحده الهادى بمشيئته إلى الدين الحق ، والصراط المستقيم .

منهج البحث :

فى عرضى للبحث افترضت أن القارىء والسامع خاليا الذهن تماماً مما ألقيه من معلومات ومعارف تتصل بهذه القضية، ولذا لزم على إذا طرحت جزئية للبحث أن أقدمها مشروحة مبينة بحيث يستغنى القارىء عن أى مصدر آخر يكشف به عن غموض فقرة، أو فكرة، خاصة فى المسيحية فضلا عن الإسلام، ولذلك بدأت بعرض عقيدة التثليث شرحاً وتحقيقاً مقروناً ذلك بما يتمسكون به كشواهد على مايدعون، مبيناً كل ما يتعلق بهذه العقيدة من أطوار مرت بها، ثبتت أركانها أو زلزلتها، وذلك كتأسيس لبيان موقف الإسلام فيها فيما بعد.

وبعد فراغى من تقرير عقيدة التثليث بشواهدها وملابساتها ثنيت فى الباب الثانى ببيان موقف الإسلام من هذه العقيدة ممثلا ذلك فى القرآن والسنة والعقل، ثم أتبعت ذلك ببيان الينابيع والروافد التى استمدت المسيحية منها العقائد والشعائر والتى حافظت عليها الكنيسة وأبقت عليها، وإن كانت قد طعمت بها من ديانات أخرى ومذاهب وفلسفات.

وأسأل الله العون على تمام القصد وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم وأن يعم النفع به إنه سميع مجيب.

القاهرة ٢٠ من ربيع الثانى من عام ١٤١١ هـ الموافق ٨ نوفبر من عام ١٩٩٠ م.

المؤلف

الباب الأول

عقيدة التثليث فى المسيحية

مفهومها وتطورها

تمهيد :

للمسيحية مفهومان مختلفان فى المنهج والتطبيق ، أولهما مسيحية ما قبل بولس ، ولعل الأجدر بها أن تسمى « النصرانية » وهى ما يطلق عليها كثير من العلماء اسم « المسيحية اليهودية » أى التى كان أتباعها من اليهود الذين آمنوا بعيسى — عليه السلام — والذين فيهم حواريون، حيث جاءت دعوته مقصورة على خاصته من اليهود دون من سواهم من الأمم ، روى متى عن المسيح قوله: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»[1]. والذين آمنوا به هم المسمون بالنصارى فى القرآن الكريم ، ولم يطلق القرآن اسم المسيحية على أتباع المسيح الذين تتلمذوا على يديه من اليهود ، وخلصوا إلى دينه ، وهؤلاء هم أصحاب دين التوحيد الذى جاء به عيسى - عليه السلام - فقد ذكر مرقس فى إنجيله حكاية موقف التحدى الذى كان بين المسيح وأحد الكتبة[2] حين سأله ليختبره قائلا : «أية وصية هى أول الكل فأجابه يسوع إن أول كل الوصايا هى إسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد

---

(١) متى ١٥ : ٢٤ (تنبيه) الرقم الذى قبل النقطتين يدل على عدد الإصحاح أو رقمه فى السفر المذكور من الأناجيل أو التوراة ، والرقم الذى بعد النقطتين يشير إلى عدد الفقرات أو الآيات من ذلك الإصحاح ، وإذا ذكرت الواو فهى للعطف ، والشرطة (-) بمعنى) إلى ، فليعرف ذلك فى كل ما يأتى .

(٢) الكتبة إحدى فرق اليهود

وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك ، هذه هى الوصية الأولى ... فقال له الكاتب جيدا يا معلم بالحق قلت لأن الله واحد ليس آخر سواه ، ومحبته من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس ومن كل القدرة ...» (١). فانظر أيها القارىء اللبيب كيف يتصادق المسيح وخصمه من الكتبة على عقيدة الوحدانية لله تعالى ، ولو كان المسيح يريد بمقولته هذه معنى باطنيا غير ما يفهم من ظاهرها لأوقعه الكاتب فى الحرج ، ولحنق عليه اليهود ، وهذه الفقرة التى أجاب المسيح بها الكاتب اقتبسها من سفر التثنية . وهو سفر الشريعة من التوراة المنزلة على موسى عليه السلام ، وهو العالم بها ، والكاتب يحفظها ويدين بها ، ولذلك صدقه وأثنى عليه لأنه لم يخطىء حين اختبره ، إذن جاء المسيح بعقيدة التوحيد المقررة فى التوراة وسجلها مرقس فى إنجيله كما رأيت ، فالمسيحية (بمفهوم المسيحية اليهودية) هى الديانة التى جاء بها المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام ، رسولا من عند الله إلى بنى إسرائيل ليطهرهم مما داخلهم من انحراف عن قواعد الشريعة اليهودية ، دين نبى الله موسى عليه السلام .

وكان مجيئه تأكيداً لوجوب الاستمرار والالتزام بشريعة موسى حسبما جاء فى توراته المنزلة عليه ، وليدعو كذلك إلى الاستقامة على دين الله القويم ، ومن هنا أخذ يرد الضالة من بنى إسرائيل إلى حظيرة الإيمان بالله الواحد . والعمل بالشريعة السماوية الصحيحة ، فقال مخاطباً كما ذكر عنه متى : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس — توراة موسى — أو الأنبياء — أى كتب أنبياء بنى إسرائيل — ما جئت لأنقض بل لأكمل ، إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد

---

(١) مرقس ١٢ : ٢٨ — ٣٣ .

(٢) وردت كلمة «مسيح» فى مواضع كثيرة من العهد القديم ، وجاءت فى الترجمة السبعينية حوالى عام ٨٢ ق. م إلى اليونانية بمعنى أن المسيح هو الذى صب عليه الزيت المقدس أو مسح به .

أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا يدعى أصغر فى ملكوت السموات»[١].

فالمتبادر إلى الفهم من قول المسيح «ماجئت لأنقض الناموس ... بل لأكمل» أنه جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة مكملا لها بالمنهج الأخلاقى والتعليمى المقرر فى الإنجيل، وأن يحل لليهود بعض الذى حرم عليهم فى التوراة، مؤكداً ارتباط الرسالتين والكتابين بالتصديق والإكمال كما قال الإنجيل، وهذا مابينه القرآن فى قوله تعالى وهو المهيمن على ما بين يديه من الكتاب: «وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين من التوراة وهدى وموعظة للمتقين» [المائدة / ٤٦] ويتبين من قول المسيح آنف الذكر أنه أحد الذين يضعون لبنات فى بناء الدين الكامل من الأنبياء والرسل، وأن الذى ينقص وصايا الأنبياء هو الأقل شأناً فى الآخرة، وقد أخبر المسيح عن إنجيله الذى أنزل عليه ووعظ به فقال، قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» [مرقس ١:١٥].

هذا هو منهج المسيح فى دعوته: تقويم وإصلاح، وتذكير وتبصير، ولا يفوتنى أن أنوه هنا بأن الإنجيل الذى ذكره مرقس فى النص السابق هو الإنجيل الحقيقى الذى اشتمل على رسالة المسيح المنزلة عليه من لدن ربه، حاوياً لمنهج العمل القويم والتعاليم السماوية، ولكن هذا الإنجيل لم توجد له حقيقة على وجه الإطلاق، لأن المسيح لم يكتبه ولم يمله على تلاميذه، وإنما وعظهم به شفاها إلى أن رفعه الله إليه، أما كيف ومتى كتبت الأناجيل الرسمية المتداولة فلها قصة ليس هنا محلها[٢].

---

(١) متى ٥: ١٧ — ١٩

(٢) إقرأ كتابنا: إنجيل المسيح — عليه السلام — بين وحى السماء ووضع البشر.

أما المفهوم الثانى للمسيحية : فهو مسيحية بولس ، ويدعونه الرسول بولس، وكأنه هو رسول المسيحية الأعظم بل الأوحد، وهذه هى التى يدين بها مسيحيوا العصر والعصور السالفة منذ نشأتها، وكتابهم هو العهد الجديد، ويتكون من أناجيل أربعة وضعها أناس هم فى نظر المسيحية قديسون، قد وضعوها بأيديهم ، وقالوا هى من عند الله وما هى من عند الله، وادعوا تلقيها بإلهام من الروح القدس ، وهؤلاء القديسون هم : متى ، مرقس ، لوقا ، يوحنا، ذكروا تاريخ المسيح وتاريخ رسالته إلى نهايته، ويسمونها أسفاراً تاريخية ، وقد أغفلوا الأكثر من مضامين الإنجيل[٢] .

ومن مكونات ذلك العهد الجديد أيضاً رسائل مسندة إلى بولس ، ويسمونها الرسائل التعليمية ، أى أن تعاليم العقيدة والشريعة مأخوذة منها، ومن هنا أبعد المسيح عن المسيحية ، كما يتكون ذلك العهد من رسائل أخرى تدعى كاثوليكية ، منها ليعقوب . ولبطرس ، وليوحنا وليهوذا ، وكلها كما ترى من وضع بشر ، ولا تحظى باليقين فى دعوى إلهاميتها .

هذا، وإن المسيحية البولسية لها عقائد أهمها : التثليث ،وصلب المسيح فداء وكفارة، ولها شعائر تتمثل فى التعميد والعشاء الربانى ، وهما فرضان مقدسان ، وغيرهما ولها عبادات: منها الصوم والصلاة ، وتعاليم خاصة مثل الإقرار بجميع الذنوب للقسيس فى مسألة غفران الخطايا إلى غير ذلك .

والذى يعنينا هنا هو بيان عقيدة التثليث وموقف الإسلام منها، وهى تتمثل فيما يأتى :

١ — أن الله ثلاثة ، آب، وابن ، وروح قدس ، وأن الثلاثة واحد.

٢ — أن أقنوم الإبن الذى هو المسيح التحم فى بطن مريم ، أى تجسد جسداً لحمياً .

---

(١) إقرأ فى يوحنا ٢٠ : ٣٠ و ٢١ :٢٤

٣ — أن المسيح هو الذى سيوكل إليه محاسبة كل الخليقة .

وبعد : فإذا كان لأحد كائنا من كان يستطيع نقد دين الله بالمفهوم الأول (المسيحية اليهودية) لو أنه كان موجودا ، لكنه بدل وحرف ومحيت آثاره إلى أن جاء القرآن الكريم فأحيا معالمه وبين أصوله وقواعده التى جاء بها عيسى عليه السلام.

أما المسيحية البولسية — وهو المفهوم الثانى لها — فهى القائمة اليوم وهى التى يأتى عليها بحثنا فى هذا الكتاب فهى التى تقمصت مسيحاً خيالياً تسجب حوله كل تعاليمها وعقائدها بأفكار قديسهم بولس وأفكار مجامعهم المقدسة مما ستعرفه فى الباب الأول. ثم مايعقبه من موقف الإسلام الذى يبين الزيف من الباطل مسيحاً ومسيحية .

والله الهادى إلى سبيل الرشاد .



الفصل الأول

عقيدة التثليث

عقيدة مادتها (عقد) واستعملت فى معنى التصميم والإعتقاد الجازم، (والعقيدة) بمعنى الإعتقاد هى التزام ووفاء بما اعتقده العبد وعاهد عليه ربه، وتصميم وتأكيد على ذلك الاعتقاد ، ونفاذ وإظهار لما التزم به مما يؤكد الإستقامة والمضى على الطريقة التى التزم بها . (والعقيدة) الحكم الذى لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ، والعقيدة (فى الدين) ما يقصد به الإعتقاد دون العمل كعقيدة وجود الله وبعثة الرسل ، والجمع عقائد .

أما معنى (التثليث) فإننا لو نظرنا فى معاجم اللغة وقواميسها لوجدنا أن مادة (ثلث) و (تثليث) و (مثلث) و (مثلوث) و (ذو ثلاث) كلها تدل إما على تعدد الشيء ذاته ، أو نسبته إلى ثلاثة أشياء ، أو تألفه من ثلاثة أجزاء ، أو أنه ذو ثلاثة أبعاد ، ولم نجد أن هذه المادة أفادت معنى التوحد فى ذات الشيء الدالة عليه ، بمعنى عدم تجزؤه أو انقسامه ، أو تعدده وإنما كل مادارت فيه هذه المادة يدل على تأليف الشيء وتعدد أجزائه وتعدد نسبه إلى أجزائه ومقوماته .

والمسيحيون يعتقدون بأن الله الواحد قائم فى ثلاثة أقانيم[1] إلهية هى ، الآب الأقنوم الأول ، ويعبرون بالذات ، والإبن : يسوع المسيح هو الأقنوم الثانى، ويعبرون عنه بالكلمة أو النطق، ويجعلونه صورة الله[2]،

---

(١) أقانيم مفردها (أقنوم) كلمة سريانية معناها فى العربية الأصل .

(٢) إقرأ رسالة بولس إلى كولوسى ١ : ١٥ قال عن المسيح « الذى هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة » .

والروح القدس ، الأقنوم الثالث ، ويعبرون عنه بالحياة أو روح الله ، والثلاثة الأقانيم إله واحد، هكذا يتصورون.

بيد أنه لكل من هذه الثلاثة التي يتكون منها الثالوث مظهر خاص ، وخاصية يتفرد بها دون الإثنين الآخرين.

فالله في عقيدتهم له اعتبارات متعددة ، فباعتباره ذاتا يسمى الآب ، وباعتباره كلمة ونطقا أو صورة الله يسمى إبنا ، وهو كحياة يسمى روح قدس.

دليلهم على تثليث الإله:

استندوا في ذلك إلى ماذكر في آخر إنجيل متى ٢٨ : ١٩ عن المسيح : « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس » وقول يوحنا في الرسالة الأولى ٥ : ٧ ، ٨ « فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد ، والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم والثلاثة هم في الواحد ».

هذان هما النصان الواردان في العهد الجديد مذكور فيهما أسماء الثالوث مجتمعا وليس هناك غيرهما ، ويلاحظ عليهما ما يأتي :

١ — يجمع النقاد والمحققون على أنهما إلحاقيان ، أي أنهما ليسا من قول متى ولا من قول يوحنا أما بالنسبة لإنجيل متى :

(ا) فقد أسند هذا القول إلى المسيح بعد قتله الذي زعموه وقيامه من الموت ، وأن المسيح لم يقله لتلاميذه أثناء حياته على الأرض قبل موته ليعلمه جميع الناس ، وكأن متى هو الذي سمعه منه وحده دون سائر التلاميذ ، وإلا فلماذا لم تذكره الأناجيل الثلاثة الباقية؟ فهذا دليل إلحاقه به

(ب) إن ما ذكر فى متى يتعلق بصميم العقيدة ، والأولى به أن يبلغه المسيح لقومه قبل موته ، لا أن يقوله وهو فى حالة قد انتهت فيها مهمة التبليغ بالرسالة واحتجب عن الناس !!

(ج) يتفق المحققون على أن الفقرات المنتهى بها انجيل متى من رقم ١٦ — ٢٠ ليست من قول متى لأن ما بينها وبين ما قبلها تمام انقطاع ولا رابط بينهما ، والنص المذكور هو رقم ١٩ كما ترى ، خاصة وأن الفقرة رقم ٢٠ التى بها ختام الإنجيل تجعل دعوة المسيح عامة لجميع الأمم ، وهذا يناقض ما جاء فى متى نفسه من أن دعوته خاصة ببنى إسرائيل دون سواهم من الأمم [1] ، وهذا التناقض يؤكد إلحاقيتها وأنها ليست من قول متى .

وأما بالنسبة لنص رسالة يوحنا فليس لها بما قبلها ولا بما بعدها أدنى مناسبة وكأنه كلام محشو فى غير ارتباط ولا مناسبة ، هذا ما يقوله المحققون فى تعليل إلحاقيته ، وأنه ليس من أصل الرسالة .

أما بالنسبة لدلالة النصين على ثالوثية الإله فإنهما لا يفيدان الدلالة على تثليث الإله مطلقا ، لأن النصوص المقررة للعقيدة لا بد أن تكون صريحة وواضحة وضوح الشمس لا تحتمل المجاز أو التأويل ، ونحن نطالبهم بنص فى الإنجيل يقول : الله ثلاثة : آب وابن وروح قدس ، ومما يؤسف له أن الأناجيل الأربعة ليس فيها مثل هذا الكلام الصريح فى دلالته على تثليث الإله ، ولم يقل متى مثلا عمدوا جميع الأمم باسم الله الآب والإبن والروح القدس ، ولم يقل يوحنا فى رسالته ، إن الثلاثة المذكورين هم الله ، ولكنه قال : الثلاثة يشهدون ، فعلام يشهدون ؟ إن المشهود عليه ليس يعنى أن الله ثلاثة ، وهل معنى : الذين يشهدون فى السماء ... أو الذين

---

(١) اقرأ متى ١٠ : ٥ ، ٦ و ١٥ : ٢٤

يشهدون فى الأرض كذا وكذا وكذا يفيد أن الله ثلاثة ؟ كلا ثم كلا ، إن القارىء سوف يندهش كثيرا عندما يقرأ فى هذا الكتاب أن عقيدة التثليث إنما هى من قرارات مجامع بطاركة المسيحية قرروها من عند أنفسهم، وأسبغوا عليها صبغة الإلهام من عند أنفسهم افتراء على الله ، ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا؟ ثم مامعنى الثلاثة الذين فى الأرض وهم : الروح والماء والدم ؟ وما دلالتهم على الثالوث ؟

هذا ، ومن طريف القول أن بعض كاتبيهم يذهبون كل مذهب لا يخلو من تعسف يلتمسون به التفسير والتعليل لتسمية الثالوث بالآب والإبن والروح القدس ، يقول القس إبراهيم إبراهيم فى كتابه التثليث والتوحيد : «إن الذات والد النطق ، فيقال له الآب ، والنطق مولود من الآب، فيقال له الإبن ، والحياة منبثقة من الذات، فيقال لها الروح القدس ، فالله الآب قائم بذاته ناطق بخاصية الإبن الذى هو النطق ، حى بخاصية الحياة التى هى الروح القدس ، والله الإبن قائم بخاصية الذات الذى هو الآب ، ناطق بخاصيته هو ، حى بخاصية الحياة التى هى الروح القدس ، والله الروح القدس قائم بخاصية الذات الذى هو الآب ، ناطق بخاصية النطق الذى هو الإبن ، حى بخاصيته هو الذى هو الحياة، هذا هو القول بالآب والإبن والروح القدس الإله الواحد ...) هذا هو شرحهم لعقيدة التثليث وعلاقة كل واحد من الثالوث بالآخرين ، وهو كما نرى كلام يستعصى على الفهم ويغوص بنا فى أعماق الميتافيزيقا ، ثم ينتهى إلى اللامعقول ، ولكنى أردت أن أذكر من كلامهم ما يمكن أن يفسروا به عقيدتهم حتى لا نتهم بالتقصير فى ذكر ما يتمسكون به إزاءها .

ورغم جعلهم الثلاثة واحدا إلا أنهم عادوا فأعطوا كل أقنوم من الثلاثة صفة الألوهية والربوبية على حدة ، وساقوا على ذلك أدلة ، يقول

هانى رزق « فالثلاثة أقانيم كل أقنوم منها على هذا الاعتبار قائم بذاته[1] ».
وزعم أن هذا الكلام لا يفيد توحد الثلاثة لأن قيام كل واحد بذاته يجعله مستقلا عن الآخرين تمام الاستقلال — إلا أنى أعرض على القارىء عقائدهم فى أفراد الثالوث مع ما يتمسكون به من شواهد على ألوهية كل واحد كإله على حدة حسبما تتفق به النصوص والشواهد وفاء بحق بيان دعوى الخصم فى قضايا النزاع والمخالفة دون تنقيص أو تلبيس .

قولهم : الله « الآب »
ودليلهم على ذلك

يعتقد المسيحيون أن الله الآب هو « الذات » مجردة عن أى اعتبار آخر ، ونعتوها باسم « الآب » ، وهو أول الأقانيم الثلاثة ، لذلك ذكر أولا فى قانون الإيمان المسيحى ، إذ المقدم بالطبع يقدم فى الوضع لأهميته ، وهو الخالق فى اعتبارهم ـ لكن ليس بالاستقلال على ما سيأتى ـ وهو أيضاً إله بالاستقلال ، ولهم شواهد يعتبرونها أدلة على كونه إلهاً ، أباً ، وخالقاً .

الشاهد على كونه اباً :

تمسكوا على كونه أبا بمثل قول متى : « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس » [متى ٢٨ : ١٩] .

وقد مر بك غير بعيد مناقشتنا لهذا النص فى أنه لا يفيد معنى الألوهية ولا معنى تثليث الإله . كما تمسكوا أيضا بقول متى « لا تدعوا لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات » [متى ٢٣ : ٩] وما جاء فى مفتتح صلواتهم « أبانا الذى فى السماء ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك » [متى ٦ : ١٤] إلى غير ذلك من نصوص فى معنى أبوة الله ـ الذات ـ للخلق .

---

(١) هانى رزق / يسوع المسيح فى ناسوته ولاهوته ص ٢١٠

شاهدهم كونه إلها خالقا :

قال بولس : « لكن لنا إله واحد الآب الذى منه جميع الأشياء ونحن له » [ا كورنثوس ٨ : ٦] وما جاء فى قانون الإيمان عندهم من قولهم : « نؤمن بإله واحد ، آب واحد ، ضابط الكل ، خالق السماء والأرض كل ما يرى وما لا يرى »[1] .

ولعل القارىء اللبيب أدرك أن هذه النصوص تنطق صراحة بأن الله الآب — الذات — إله واحد ، خالق كل ما يرى وما لا يرى ، ليكون يقظا حين تأتيه النصوص فيما يأتى من كون المسيح هو الخالق فيلاحظ التناقص والاضطراب فى النصوص يقفذ إلى العينين .

قولهم : الله « الإبن » يسوع المسيح :

تبين لنا مما سبق من قولهم أن « الكلمة أو النطق » هو الإله الإبن الذى تجسد وأخذ شكل الإنسان ، وأنه أحد الثالوث الأقدس ، والثانى فى المرتبة . وأقنوم بذاته وخصائصه ، والمقصود من كل ذلك هو المسيح الذى هو الركن الركين فى الديانة المسيحية ، وهو قلبها وقالبها ، وهو جوهر الديانة الذى تقوم عليه من أولها إلى منتهاها ، يقول القس إبراهيم لوقا : « إن المسيح هو جوهر الديانة المسيحية ، ونقطة إرتكاز إيمانها ... والمسيح إله حق ، وهذه هى العقيدة المسيحية الصحيحة عن ذات المسيح ... » ثم يقول عن لاهوته ، « ... تعتقد المسيحية أن المسيح هو الله باعتباره

---

(١) قانون الإيمان هو : ترتيل يردد المسيحيون خلف القسيس داخل الكنائس ، وقد تضمن الإيمان بالتثليث والصلب والقيامة ، ومحاسبة المسيح للناس وسيأتى ذكره فى نهاية الفصل إن شاء الله .

الأقنوم الثانى من الثالوث الأقدس للذات الإلهية»[١] .

فقد رأيت أيها القارىء أن هذا كلام من بنات أفكار القس إبراهيم وطائفته ولم يوثقه بدليل يثبته فى العقيدة ، والمسيح الإبن هو كلمة الآب الأزلية، صدرت عن الذات فصارت إبنا لها، والكلمة الإبن كانت موجودة منذ الأزل عند الله الآب . يقول إبراهيم لوقا : « والمنطق يقودنا إلى إثبات لاهوت المسيح لأنه من المسلم به أن الله أزلى ، والقدم صفة خاصة به وحده جل شأنه كبقية صفاته الحسنى كالعلم والحياة والكلام ، فكل ما يتعلق بذات الله تعالى أزلى غير محدث ، فلابد أن تكون كلمة الله أزليا وإذن يكون المسيح أزليا لأنه كلمة الله ، فإذا ثبت أن المسيح أزلى لأنه كلمة الله ، وثبت أنه لا أزلى سوى الله وجب أن يكون المسيح هو ذات الله جل شأنه ، ... وهذا هو اعتقادنا نحن معشر المسيحيين فى الله وكلمته، وإذن فلا شك فى أن المسيح هو ذات كلمة الله ، وبعبارة أخرى : هو ذات الله لوحدة الطبيعة الإلهية، وبحكم أن الكلمة صدر من الله بغير طريق الخلق والإبداع ... ومن الأمور البدهية أن يكون فى الولد شيء من طبيعة أبيه »[٢] .

وإذا كان لنا أن نعقب على هذا الكلام فإننا نقول لقائله : من أين جئت بأن المسيح ثابت له لاهوت ؟

وإذا كان العلم والحياة والكلام من صفات الله الحسنى ، وكل صفاته أزلية ، وأن المسيح الكلمة التى هى واحدة من كلام الله ، فلم لم تكن كل كلماته مسحاء أزليين ؟ وهل الله ليس له إلا كلمة واحدة هى التى اختصت بالأزلية ، ولم لم تختص سائر كلماته بالأزلية ؟ . أترك الإجابة لفطنة اللبيب .

---

(١) المسيحية فى الإسلام ص ١٠١ ، ١٠٣

(٢) المصدر السابق ص ١٠٦ ، ١٠٨

وإذا كان كل ما يتعلق بذات الله أزليا وبالتالى يصير ذات الله ، فهل يمكن أن يكون علمه تعالى مسيحا آخر باعتباره أزليا ؟ وكذلك الحياة أيضا وسائر صفاته الأزلية ، أترك الجواب عن كل ذلك إلى فطنة القارىء .

وأما قوله : وبحكم أن الكلمة صدر من الله بغير طريق الخلق والإبداع ، فهذا كلام صحيح لو أراد الكلمة التى بها كان المسيح ، وهى الأمر الإلهى الكونى — أى كلمه التكوين والخلق — التى قال الله عنها : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (١) .

وقوله : « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول كن فيكون » (٢) .

وقوله : « فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » (٣) .

ولكنه يريد بكلمه الله ما كونه الله بها وهو المسيح ، فجعل الكلمة بمعنى الأمر التكوينى نفس المأمور ، وبعبارة أخرى جعل المخلوق هو نفس ما به الخلق ، وتسلل من ذلك التوحيد بين المخلوق والخالق ، وهذا ضلال فى القول وتضليل للفهم ، ثم كون الولد يحمل شيئا من طبيعة أبيه قياس للغائب على الشاهد ، وهذا غير جائز فى الجانب الإلهى فضلا عن أن الله تعالى ليس له صاحبة ولا ولد « بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم »(٤) ، وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا » (٥) فهو الواحد الأحد الفرد الصمد : « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » (٦) .

---

(١) النحل / ٤٠
(٢) ياسين / ٨٢
(٣) غافر / ٦٨
(٤) الأنعام / ١٠١
(٥) سورة الجن / ٣
(٦) سورة الإخلاص .

وإذا كان القس إبراهيم لوقا يجعل المسيح ولدا أخذ الألوهية من طبيعة أبيه، فإن القس إبراهيم سعيد أحس بأن القول بالولد يستلزم أن يكون للذات العلية صاحبة، أخذ يفسر بنوة المسيح بطريقة أخرى مناقضة له بناها على تمحل وتكلف، فقال إبراهيم سعيد في شرحه إنجيل لوقا عند تفسيره «ابن العلي يدعى»: «يليق بنا أن نوضح بكلمات موجزة المعنى المراد «بابن العلي أو ابن الله» فلم يقصد بها ولادة طبيعية ذاتية من الله، وإلا لقليل ولد الله، ولم يقصد ما يقال عادة عن المؤمنين جميعا أنهم أبناء الله، لأن نسبة المسيح لله هي غير نسبة المؤمنين عامة لله... لكنه تعبير يكشف لنا عمق المحبة السرية التي بين المسيح والله، وهي محبة متبادلة... ويراد بها إظهار المسيح لنا أنه الشخص الوحيد الذي حاز رضا الله وأطاع وصاياه فقبل الموت موت الصليب ... لأنه تمم إرادة الله في الفداء، ويراد بها إظهار التشابه والتماثل في الذات وفي الصفات وفي الجوهر ... ويراد بها دوام شخصية المسيح باعتباره الوارث لكل شيء الذي منه وبه وله كل الأشياء، وقد يراد بها معان كثيرة غير معدودة يقصر دون إدراكها العقل»[1].

فالذي يستبين من مرادات هذا المفسر لمعاني البنوة: أن المسيح هو الإبن الوحيد الذي أرضى أباه بموته على الصليب فداء عن خطيئة آدم المتوارثة، وفكرة الخطيئة والفداء فكرة مزعومة لا أصل لها في التوراة ولا في الإنجيل، وإنما هي من افتراءات بولس رسول المسيحية المعظم عندهم أكثر من إبراهيم وموسى وجميع أنبياء بني إسرائيل، وهي فرية اقتبسها من تعاليم الآلهة الأسطورية المنتشرة من قبله ومن بعده في ربوع الأمبرطورة الرومانية.

ثم ماهي المحبة السرية المزعوم تبادلها بين المسيح وأبيه؟ إن القول

(١) إبراهيم سعيد / تفسير بشارة لوقا ص ٦٩، ٧٠.

بالبينية والتبادل فى المحبة بين المسيح وأبيه يثبت القول بالإثنينية والتعدد فلا مجال بعد ذلك للقول بأنهما واحد .

ثم إن القول بأن البنوة إظهار للتشابه والتماثل فى الذات والصفات والجوهر يقتضى مشبها ومشبها به فى كل ماذكر ، إذن فهما اثنان وليسا واحدا كما يدعون ، فليحذر القارىء ، وليتأمل التناقض والاضطراب فى الفكر والقول .

فبيان حقيقة البنوة ، والإيضاح عن كنهها يكتنفه غموض بعد غموض ، ولأن الحقيقة مبهمة عند الجميع نراهم يسلكون فى الكشف عنها طرائق قددا ، فإذا كان القس إبراهيم سعيد يفسر البنوة بأنها (المحبة السرية بين الإبن والآب) والتى كشف المسيح عنها القناع ، نجد بعضهم يفسرها بأنها عبارة عن تعقل الله ذاته ، فهو عقله أى تعقله ذاته ، يقول بولس سباط :

« يرى النصارى أن البارى تعالى جوهر واحد موصوف بصفات الكمال ، وله خواص ذاتية كشف المسيح عنها القناع ، وهى الآب والإبن والروح القدس ، ويشيرون بالجوهر الذى يسمونه البارى ذا العقل المجرد : إلى الآب ، وبالجوهر نفسه الذى يسمونه ذا العقل العاقل ذاته « أى الذى يعقل ذاته » إلى الإبن ، وبالجوهر عينه الذى يسمونه ذا العقل المعقول من ذاته إلى روح القدس . ويريدون بالجوهر ما قام بنفسه مستغنيا عن الظرف »[1] .

فكما ناقض إبراهيم سعيد صاحبه إبراهيم لوقا فى تفسير معنى البنوة التى صبغوا بها المسيح نجد هنا بولس سباط يؤول معناها ومدى صلتها

---

(١) بولس سباط / المشرع ص ١٣ ، ١٤ .

بالله الآب بما يبعدها عن المراد منها عند إبراهيم سعيد ، ويرتبط فى تأويله كل الارتباط بإله أرسطو فى نظريته (أعن البارى سبحانه وتعالى حين أراد قطع صلته بالعالم الجزئى فى نظريته عن «صلة علم الله تعالى بالجزئيات) لينتهى به إلى كونه عقلا وعاقلا ومعقولا .

وقد سادت هذه النظرية لدى الكثير من كاتبيهم ، وأغلب الظن أن الدافع لذلك هو مايعانونه من قلق عقدى نشأ من استغلاق فهم الإله فى دياناتهم ، وبيان معنى البنوة التى تورطوا فى وصف المسيح بها وعلاقتها بالذات الأقدس — جل وعلا عما يقولون علوا كبيرا — فأخذوا يتلمسون الاطمئنان فى أفكار الفلاسفة اليونانيين وغيرهم ، ويتحسسون الراحة الدينية لوجداناتهم فى ديانات الآخرين وأفكارهم ، وقد تابع القس سباط فى جعله الإبن ذا العقل العاقل فى الجوهر القس إبراهيم لوقا فى بعض تشقيقاته لمعنى البنوة فى كتابه سالف الذكر «المسيحية فى الإسلام» فسار بذلك كغيره على درب الفلاسفة .

وعلى كل فإن هم أرادوا من معنى البنوة ما أراده الفلاسفة فى البارى تعالى فليأخذ البحث مجالا لآخر ، فى مجال الميتافيزقا ، ولكن هذا ليس هو الحقيقة المرادة عندهم .

دليلهم على كونه إبنا إلها خالقا :

أما دليل كونه (ابنا) فالعهد الجديد مليء بهذه الكلمة ، ومن ذلك على سبيل المثال ما قاله متى لحظة أن تعمد[1] المسيح بالماء على يد المعمدان

---

(١) التعميد عبارة عن توبة العبد ودخوله فى الإيمان على يد النبى ، وقد كان يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا) يعمد بالاغتسال فى نهر الأردن ، ولذلك يسمى يوحنا المعمدان ، وقد اعتمد المسيح منه فى بدء نبوته وسار على دربه ، وصار التعميد من أهم شعائر المسيحية ، خاص بها .

(يحي بن زكريا) وقد حل عليه الروح القدس : « وصوت من السموات قائلا هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت »[١] .

وكذلك ما ساقه متى فى نهاية إنجيله وقد مر .

ومما هو جدير بالملاحظة أن البنوة قد أطلقت فى التوراة على كثير من الأنبياء مثل إسحق ويعقوب وموسى وداود وغيرهم ، مما يدل على أنها تعنى الوصف بالإيمان والتقوى والصلاح ، وطاعة الله ، وليست بمعنى الألوهية .

أما ما تعلقوا به من كونه (إلها) يقول يوحنا ١ : ١ « فى البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » أى كان الكلمة موجوداً عند بدء الخليقة ، وأرى أن هذا كلام ركيك بل ومضحك أيضا ، فإن القارىء لو بدل لفظ (الكلمة) بلفظ (الله) حيث إنهم يجعلون (الكلمة) المسيح (الله) لرأى من الطرافة ما يضحكه ، وقديما قيل : شر البلايا ما يضحك .

وفى هذا المعنى أيضاً قال بولس : « منهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلها مباركا إلى الأبد »[٢] ، إلى غير ذلك من تمسكات .

وليت شعرى هل المسيح كائنا إلهيا بحسب الجسد أم بحسب الروح أم بحسب البنوة ؟ لا أدرى .

وفى زعم كونه ربا خالقا تعلقوا بمثل قول بولس « لنا رب واحد يسوع المسيح الذى به جميع الأشياء ونحن به »[٣] ، أى كونت به جميع الأشياء ونحن — أى هم — خلقوا به .

---

(١) متى ٣ : ١٧
(٢) الرسالة إلى رومية ٩ : ٥
(٣) كورنثوس الأولى ٨ : ٦

وقال يوحنا «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان ... وكون العالم به ولم يعرفه العالم»[1].

إلى غير ذلك من افتراءات وأضاليل ذكروها وحملوها ما تنوء به الجبال من جعله خالقاً ، وكونه الكلمة الخالقة ، وأن إليـــه يرجع كل شيء !!!

أسماء الإبن وألقابه:

لقد سمي «الإبن» ولقب بأسماء عدة وردت في العرف المسيحي أوردها فيما يلي :

١ — «يسوع» ومعناه (المخلص) كما فهموا لأنه في عرفهم جاء ليخلص العالم من خطاياه ، ويكفرها عنهم ، فقد ورد عنهم أنهم قالوا : «وهو كفارة ليس لخطايانا بل لخطايا كل العالم»[2] .

لكننا نرى متى يناقض هذا القول في إنجيله ، إذ يقول بأن الخلاص مقصور على شعب بني إسرائيل وليس كل العالم ، ويؤيد هذا المعنى لوقا فيقول : «فقال لهم الملاك لا تخافوا فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب ، أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب»[3]

والمراد شعب بني إسرائيل حيث قال المسيح فيما رواه متى: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة»[4] ،

---

(١) يوحنا ١ : ٣ ، ١٠
(٢) رسالة يوحنا الأولى ٢ : ٢
(٣) لوقا ٢ : ١٠
(٤) متى ١٥ : ٢٤

ومدينة داود هى (بيت لحم) وقد كانوا ينتظرون منها المسيح المخلص لهم من نير الحكم الرومانى ، ويكون ملكا ونبيا لهم ، كما كان داود كذلك .

ومعلوم أن يسوع من نسل داود سواء من طريق مريم ، أو من طريق يوسف النجار خطيبها حين يلحقون المسيح به زورا فى النسب . هذا ، والإنجيل ملىء باسم (يسوع) .

ويقول ول ديورانت : إن معنى يسوع « معين يهوه »[١] ويهوه اسم الإله عند اليهود .

٢ — (عمانوئيل) أى (الله معنا) وكأنهم فسروا (عمانو) بمعنى (معنا) و (إيل) بمعنى (الله) فيكون كل المعنى (الله معنا) فقد جاء فى متى دون سائر الأناجيل « هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمانوئيل الذى تفسيره الله معنا »[٢] وهى فقرة مقتبسة من سفر إشعياء ٧ : ١٤ من العهد القديم .

ومن الملاحظ أن هذا الإسم لم يشتهر تداوله على المسيح فيما روته الأناجيل أو الرسائل .

٣ — (المسيح) وقد ورد هذا الإسم كثيرا فى الأناجيل وكذلك فى التوراة ، وقد يأتى فيها بلفظ « مشيحا » تنبؤا بظهوره ، والمسيح معناه الذى صب عليه الزيت المقدس ، أومسح به ، قال لوقا عن سمعان المدعو عندهم نبيا أنه : (كان قد أوحى إليه أنه لايرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب »[٣] .

---

(١) انظر قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ ص ٢١٣

(٢) متى ١ : ٢٣ (٣) لوقا ٢ : ٢٦

ومما هو جدير بالذكر أن القرآن قد أطلق عليه هذا الإسم ، من غير اعتبار لعلة التسمية وهى أنه مسح بالزيت المقدس ، وكذلك من غير اعتبار أنه رب، أو ابن، أو أى اعتبار آخر تضعه فوق مستوى البشر ، قال تعالى : « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم »[1] .

٤ — (كلمة الله) وهذه التسمية هى الشائكة ، إذ هى التى أعقبتها الشبهات ، والزلات العقدية والفكرية ، قال يوحنا : « فى البدء كان الكلمة — أى المسيح — والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله »[2] .

وقد أطلق عليه القرآن الكريم أنه (الكلمة) بمعنى الأمر الكونى المعبر عن حصول مراد الله ومشيئته فقال تعالى : « إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم »[3] .

وكلمة الله بمعنى الأمر التكوينى جعلها المسيحيون عين المأمور بها ، وشتان بين المعنيين .

كما أطلق القرآن عليه فى نفس الآية سالفة الذكر اسم (عيسى) وهذا لم يرد فى الأناجيل قط ، وقد انفرد القرآن الكريم باطلاقه عليه ، ومن ذلك قوله تعالى : «ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون »[4] وكنى بتعبير القرآن فى هذه الآية أن المسيح كان كائنا بكلمة الله تعالى (كن) وفى هذا حسم للقضية لو أراد المسيحيون حسمها .

---

(١) آل عمران / ٤٥

(٢) يوحنا ١ : ١

(٣) آل عمران / ٤٥

(٤) مريم ٣٤ ، ٣٥

قولهم : الله (الروح القدس)

ذكرنا قولهم فيما مضى عن حقيقة الأقنوم الأول والثانى من الثالوث الإلهى ، أما الأقنوم الثالث المكمل للثالوث الإلهى فهو الروح القدوس ، فهو الحياة المنبثة فى الذات والكلمة أوالنطق (المسيح) والروح القدس : انبثق عن الله الآب ، أو عن الآب والإبن ، على خلاف بين المثلثين فى أصل انبثاقه ، وعلى كل فالجميع يعتقدون أن الله الروح القدس هو الذى ينطق به الأنبياء والرسل ، وبمعنى آخــر : هو الذى يتكلم به الأنبياء بإلهامه والوحى من لدنه .

وهو أيضا الرب المحيي ، ومجــدد الحياة للمؤمنين حين ينتقل المؤمن من عدم الإيمان إلى الإيمان ، فكأنه أحياه ، أو أنه سبب ولادته ولادة ثانية(١) بهذا الإيمان كما هو تعبيرهم ، وأن منه يستمد التطهير والنعمة .

شبه تعلقوا بها على كون (الروح القدس) إلها وربا محييا

يعتقد المسيحيون أن روح القدس إله كامل ، وأنه ثالث ثالوثهم الأقدس ، واتخذوا سندهم على ألوهيته قول متى : « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والإبن والروح والقدس » .

وقد مر بك أن هذا نص لا يفيد ألوهية أى من الثلاثة المذكورين ، ومما تمسكوا به أيضا على ألوهيته قول متى عن المسيح حين اعتمد على يد

---

(١) الولادة الثانية : هى الإيمان بأن المسيح ابن الله إيمانا يستحق به المؤمن كفارة المسيح لخطاياه كما هى العقيدة .

يوحنا المعمدان : « فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السموات قد انفتحت فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه » [متى ٣ : ١٦]

وإنى أدعو القارىء النجيب إلى تأمل دقيق معى فى هذا النص ، فإنه من المعلوم بدهيا أن النزول من أعلى إلى أسفل والانتقال من مكان إلى آخر من خواص المتشخصات . وعليه فالنص يعطينا إحساسا بأن الذات الآب قائم بذاته فى السماء ، والروح القدس قد انفصل عنه ونزل من السماء إلى الأرض آتيا إلى المسيح ، وفى الوقت نفسه كان الإبن صاعدا من الماء ، فهل يصح بعد هذا القول أن الثلاثة جوهر واحـــد لا تمايز بينها؟ فهم زعموا هذه الوحدة تحاشيا من القول بالتعدد أو التجزؤ ، ولكن هذا النص ينطق بالتعدد صراحة ، لأن الآب فى السماء ومستقل بذاته ، والروح القدس بين السماء والأرض آتيا إلى المسيح وهو مثل حمامة ، يعنى مستقلا بذاته ومتشخصا فى حمامة ، والإبن صاعد من الماء متشخص فى المسيح ، وهو مستقل بذاته أيضا ، فهذا الانفصال فى الوجود ، مع تشخص كل منهم وتعينه بحالة تخالف حال الآخر وقت تعميد المسيح لهو التعدد فى غير وحـــدة ، وليست هناك إذن وحدة فى الجوهر كما يزعم المتعالمون فيهم ، فهذا النص يبطل أى قول يدعى وحدة الثالوث فى جوهر واحد .

وإذن فالثالوث ثلاثة كائنين متشخصين لكل واحد منهم تعين خاص به .

وعلى كل فهذان النصان من بعض شواهدهم على ألوهية الروح القدس ، وزادوا على ذلك بأنه إله خالق يحيى ويميت وحده ، مستقلا بذلك دون مشاركة فى ذلك من الآب أو الإبن ، يقول القس بوطر صاحب رسالة الأصول والفروع : « وقيل عن أعمال الله إنها أعمال الروح القدس ،

فالروح هو الذى خلق، ويجدد أجسادنا الميتة وهو على شيء قدير»
فظهر من هذا القول أن الروح القدس هو الذى به الحياة لكل الكائنات دون الآب والإبن كما هو الظاهر منه، وليس الروح مقوما للحياة كالماء أو الهواء مثلا، وإنما هو سر الحياة فى اعتقادهم، وأود ألا ينسى القارىء أنه قد مر قولهم أن الذى يختص بالخلق هو الآب وحده، فليتأمل.

دعواهم توحيد الثالوث وتثليت الواحد

تقرر فى الفقرات السابقة أن كل أقنوم من الثالوث إله مستقل، ورب، وأنهم ساقوا على ذلك أدلة وشواهد، ونظرا لأن رسالات الأنبياء السابقين تدعوا إلى وحدة الصانع كان لا بد لهم من أن يوفقوا بين قولهم بالتثليث وبين دعوة الأنبياء إلى التوحيد، فادعوا أن الثالوث إله واحد، ثم حاولوا أن يثبتوا ذلك بالنصوص فلم يجدوا لذلك شاهدا واحدا صريحا يقول بأن: الآب والإبن والروح القدس إله واحد.
وغاية ما ساقوه هو قول متى: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس» [متى ٢٨ : ١٩] وهو إن صح — وهو غير صحيح بالقطع — لا يفيد توحيد الثالوث، لا عن طريق التصريح ولا عن طريق التحقيق.

كما استدلوا أيضا على وحدة الثالوث بقول يوحنا: «فإن الذين يشهدون فى السماء هم ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد ...»[1].

وهو نص كسابقه لا يقطع به على أن الثلاثة إله واحد، لأن يوحنا لم يقل إن هذه الثلاثة هم إله واحد، ويمكن أن يفهم على أن الثلاثة واحد

---

(١) رسالة يوحنا الأولى ٥ : ٧

فى المنزلة والمجد والعظمة ، أو أن هؤلاء الثلاثة هم واحد فى الرأى والقصد والفكر ، وما مثل وحدانيتهم إلا كمثل وحدانية الحوارين والتلاميذ والمسيحيين الحقيقيين الذين قال المسيح عنهم فى صلاته من أجلهم : « وأنا قد أعطيتهم المجد الذى أعطيتنى ليكونوا واحدا كما أننا نحن واحد ... » [يوحنا ١٧ : ٢٢] فما يراد من معنى قول المسيح الأخير يراد مثله فى قول يوحنا فى الرسالة الأولى . ولا حرج فى ذلك ، على أن يوحنا فى هذه الرسالة قال عقب القول المذكور : « والذين يشهدون فى الأرض هم ثلاثة الروح والماء والدم والثلاثة هم فى الواحد » .

فهل هذه الثلاثة هم أيضا إله واحد ؟ فيكون ثالوثا إلهيا من نوع آخر ؟

فليت شعرى ما الفرق بين هذه الثلاثة الذين فى الواحد ومنهم الروح ، وبين الثلاثة الأولى ؟ ؟ .

على أن ما ساقوه كأدلة على الألوهية إنما أفادهم حسبما توهموا ألوهية كل واحد من الثالوث ، وكونه ربا وخالقا على حدة ، ولم تفد أن الثلاثة مجتمعين إله واحد وحدة حقيقية ، أو أن الواحد ثلاثة مجتمعين فى حقيقته ، فمن أين جىء بثالوثية الواحد ، أووحدة الثالوث ، وهو فيما يبدو من تصورات اللا معقول ؟ ؟

الدافع إلى تصور الثلاثة فى الواحد والواحد فى الثلاثة :

إن الذى دعاهم إلى ركوب هذا المرتقى الصعب هو أن المسيح جاء ملتزما بشريعة التوراة منهجا وعقيدة وسلوكا ، فقال : « ما جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ما جئت لأنقض بل لأكمل » .

والتوراة تصرح بالتوحيد كما ذكرت توحيداً ينزه الخالق عن الشريك والصاحبة والولد . مثل ما جاء فى سفر إشعياء (٤٤ : ٦) (هكذا

يقول الرب ملك إسرائيل وفاديه رب الجنود أنا الأول وأنا الآخر ولا إله غيرى » وما جاء فى سفر التثنية [٣٢ : ٣٩] « أنظروا الآن أنا هو وليس إله معى » وفى إشعياء أيضاً (٤٥ : ٢١) « أليس أنا الرب ولا إله آخر غيرى إله بار ومخلص ليس سواى » وقد أكثر هذا السفر من نصوص الوحدانية ، فضلا عما أكثرته التوراة من نصوص الوحدانية بما فى ذلك كتب الأنبياء ، وكلها تنطق بالتوحيد دون ما تلميح أو تلويح أو إشارة إلى تعدد أو تثليث :

وحين وجدوا أنفسهم أمام هذه النصوص الصريحة الناطقة بالتوحيد الخالص فى التوراة إضطروا إلى التماس التوفيق بين إلههم ذى الثلاثة أقانيم الذى قررته مجامعهم — على ماستعلم — وبين الواحد البسيط الذى صرحت به التوراة ، فقالوا بأن هذا الواحد ثلاثة والثلاثة واحداً جمعا بين الطرفين ، حتى لا ينشذوا عما جاء فى التوراة من التوحيد وماقررته مجامعهم المقدسة من ثالوثية الإله ، متخذين من تلك القررات قانونا مقدسا أعطوه قوة الناموس (الوحى) .

ثم انطلق كاتبوهم وراء ذلك التصور اللا معقول يتلمسون له المبررات المسوغة له ، وإليك ما يتلمسه أحد كتابهم لتبرير ذلك ، يقول صادق إلياس : « فكون الله يقول فى كتابه عن كل أقنوم من أقانيمه الثلاثة الذين فى ذاته أنه إله واحد وفى الوقت ذاته يعلن أنه هو الإله وحده وليس إله آخر معه . وذلك بقوله : « وليس إله معى » و« لا إله غيرى » و« لا إله سوى » فى النصوص المتقدمة فهذا دليل على أن الأقانيم الثلاثة ليسوا ثلاثة آلهة بل إله واحد ، لأنه حيث إن الآب أقنوم من الأقانيم الثلاثة الذين فى الإله ، وحيث إن كل ما فى الإله هو الإله فالآب إذن إله ، وحيث إن الإبن أقنوم من الأقانيم الثلاثة الذين فى الإله ، وحيث إن كل مافى الإله هو الإله فالإبن إذن إله ، وحيث إن الروح القدس أقنوم من الأقانيم الثلاثة الذين فى الإله ، وحيث إن كل مافى الإله هو الإله

فالروح القدس إذن إله ، وينتج من ذلك أن الآب إله ، والإبن إله ، والروح القدس إله ، ولكن ليسوا ثلاثة آلهة بل إله واحد[1] » .

ولعل القارىء يلاحظ أن الكاتب أخذ آيات الوحدانية فى سفرى التثنية وإشعياء ليدلل بها على وحدانية الثالوث لا على وحدانية الواحد

فهل هذا التوليف الساذج يدخل فى منطق المعقول أم اللامعقول ؟

وهل يسمح لنا هذا المؤلف المتكلف أن نسائله : لماذا لم يرد هذا التصور على لسان المسيح — عليه السلام — ؟ أو على الأقل : لماذا أغفلته الأناجيل ؟ بل كيف أغفله القديس الأعظم بولس ؟.

إن الذى أشق هؤلاء الكتاب وأضنام هو تمسكهم غير الملتزم بما جاء فى التوراة من آيات التوحيد الخاص ومحاولة تلبيسها معنى الثالوث ثم من الذى قال — كما ذكر الكاتب — إن الإله صار ظرفا احتوى هذا الثالوث العجيب ؟

على كل فهذا هو المنطوق اللامعقول فى العقيدة ومفهومها الساذج على لسان شراحهم وفى كتبهم ، وقد رأينا كيف يهرعون إلى التوراة يستوردون منها نصوص الوحدانية ، ويستعيرون منها ما يجعلونه واجهة غير حامية من سهام النقد والتقريع ، وأن التزامهم بوحدانية التوراة أوقعهم فى المأزق الحرج ، ثم رأينا كيف يجمعون الثلاثة فى واحـــد فى صعوبة ومشقة وتكلف لا يخلو من تعسف ؟ ولقد غاب عنهم أن واو العطف التى عطفت الإبن على الآب ، والروح القدس على الإبن تقضى المغايرة بين كل معطوف والمعطوف عليه وأن التغاير يناقض التوحد فلا يجتمعان

أما كيف يكون الواحد ثلاثة فهذا هو منتهى كمال الإله عندهم ، وبدون ذلك لا يكون الإله كاملا ، وإليك بيان دعواهم فى ذلك .

---

(١) صادق إلياس (معنى أن المسيح ابن الله) الفصل الأول من القسم الأول مطبعة النيل بالمنصورة

كيف يتصورون أن التثليث كمال الألوهية

يرى المسيحيون أن التثليث منتهى كمال الألوهية ، والإله بدونه يصبح ناقصا — وكأن التوحيد المجرد فى حسبانهم يبعده عن الكمال والسعادة — لأن الله محبة فى العقيدة المسيحية ، والمحبة سبيل السعادة ، ولا محبة إلا فى التثليث . وهذه المحبة إنما هى بين الله الآب والإبن ، ومن محبتهما الفائقة كان الروح القدس من ثمرة هذه المحبة . فالمحبة كنه الثالوث . وهى سداه ولحمته ، وأنه بدون الثالوث لم يعد ذا موضوع .

يقول الأب بولس إلياس الذى يثير تساؤلا حول ثلاثية الواحد ثم يجيب عنه فى كتابه يسوع المسيح : « من الناس من يقولون لم يا ترى إله واحد فى ثلاثة أقانيم ؟ أليس فى تعدد الأقانيم إنتقاص لقدر الله ؟ أو ليس من الأفضل أن يقال : الله واحد وحسب ؟ لكننا إذا اطلعنا على كنه الله لا يسعنا إلا القول بالتثليث وكنه الله محبة (يوحنا ٤ : ١٦) ولا يمكن إلا أن يكون محبة ليكون سعيدا ، فالمحبة هى مصدر سعادة الله ، ومن طبع المحبة أن تفيض وتنتشر على شخص فيضان الماء وانتشار النور ، فهى إذن تفترض شخصين على الأقل يتحابان ، وتفترض مع ذلك وحدة تامة بينهما ، فليكون الله سعيدا — ولا معنى لإله غير سعيد وإلا انتفت عنه الألوهية — كان عليه أن يهب ذاته شخصا آخر يجد فيه سعادته ، ومنتهى رغباته ، ويكون بالتالى صورة ناطقة له ، ولهذا ولد الله الآب الإبن منذ الأزل نتيجة لحبه إياه ، ووهبه ذاته ، ووجد فيه سعادته ومنتهى رغباته ، وبادل الإبن الآب هذه المحبة ووجد فيه هو أيضا سعادته ومنتهى رغباته ، وثمرة هذه المحبـــة المتبادلة بين الآب والإبن كانت الروح القدس ، هو الحب إذن يجعل الله ثالوثا وواحدا معاً ، ولا يصح أن يكون هذا الكائن الذى حبس الله الآب محبته عليه إلا الإبن ، ولو كان غير الإبن ولو كان خليقة محدودة بشراً أو ملاكا

لكان الله بحاجة إلى من دونه كمالا ، وعد ذلك نقصا فى الله ، وهو منزه عن النقص ، فتحتم إذن والحالة هذه أن يحبس محبته على ذاته ، فيجد فيها سعادته ، لهذا يقول بولس الرسول : إن الإبن هو صورة الله الغير المنظور بكر كل خليقة ، [كولوس ١ : ١٥] ليس الله إذن كائنا تائها فى الفضاء منعزلا فى السماء ، لكنه أسرة مؤلفة من أقانيم ثلاثة تسودها المحبة ، وتفيض منها على الكون براءته ، وهكذا يمكننا أن نقول : إن كنه الله يفرض هذا الثالوث »(١) .

وهكذا يأتى الكاتب بنظرية عجيبة يبرز بها أن كمال الألوهية لا يتحقق إلا أن يكون ثلاثة ، إنه يفترض بأن الله لكى يكون سعيدا كاملا يحتاج فى ذلك إلى كائن إلهى آخر يبثه حبه ويجد فيه سعادته ، فمن أجل ذلك ولد الله الإبن فوجد فيه تلك السعادة ومنتهى رغباته ، ولكن ما هى هذه الرغباب المزعومة التى هام بها الله الآب ؟ إن اللسان والجنان ليقفان عن التصوير والتصور لمثل هذه المزاعم الباطلة، وعلى أى حال فإن هذه الرغبات فى نظره ونظر من على دينه كان من نتاجها الروح القدس ثالث الثلاثة ، والذى تولد من العلاقة بين أقنومى الآب والإبن ، ثم إنه يؤكد العلاقة بين أفراد الثالوث فيصور الله — بعد أن يتمعن النظر فى كنه ذاته وحقيقته — فيدرك أنه عبارة عن عائلة مكونة من ثلاثة كائنات إلهية وكل كائن منها غير الآخر ، أما قرأت قوله (لكنه أسرة مؤلفة من أقانيم ثلاثة) ؟ وقوله : « وعليه أن يهب ذاته شخصا آخر ، وتأمل كون شخصا آخر !!!

إن القول بجعل الإله أسرة لها أبناء وزوجات هو التصور الإلهى لآلهة الإغريق فى القديم ، هذا ، ومع كل هذه التخيلات والخزعبلات يدعى أن علة كمال الإله هو وجوده على هذا التصور ، مع أنه ومن

---

(١) إقرأ (يسوع المسيح) لبولس إلياس .

يدين بهذه الفلسفة قد أضاع بذلك كل تصور للكمال الواجب للإله فقد جعله ناقصا لاحتياجه إلى غيره الذى يبثه حبه وعطفه وحنانه ، ولو كان من يحتاج إليه إلها مثله ، ثم إنه لمن مزيد النقص أن يتولد عن ذلك كائن آخر هو الروح القدس الذى به تكمل الأسرة الإلهية ، وليس بعد الاحتياج إلا النقص وسلب كل موجبات الألوهية ، كما أنه ليس أجرأ على الذات الإلهية من أن يدعى الإنسان الناقص اطلاعه على كنه الذات الأقدس جل وعلا .

كيف يتصورون الثالوث

لقد دأب المفلسفون لعقيدة التثليث أن يمنحوها صورة الإنسان ، وبعبارة أخرى يتصورن الإله المثلث الأقانيم شبيها بالإنسان ، وذلك حين يقربون صورة الثلاثة فى الواحد إلى الأذهان ، متخذين هدايتهم فى ذلك ما جاء فى سفر التكوين [١ : ٢٦ ، ٢٧] من أن الله خلق آدم على صورته ، فأخذوا فى عقد التشابه بين كون الله واحدا فى ثلاثة وبين الإنسان المخلوق على صورة الله ، وهو كونه واحدا ولكنه مكون من ثلاثة عناصر أيضا ، فالله كما يزعمون هو الآب « ذات الله » ، والمسيح الإبن « صورة الله »[1] والروح القدس « روح الله » ثم قالوا : إذا تأملنا الإنسان نجد فيه ثلاثة عناصر أو ثلاثة خواص شبيهة بأقانيم الإله الواحد ، العنصر الأول : هو النفس أو الذات ، ويستدلون عليها بالفكر والإحساس المنظم والمدبر لكيان الإنسان ، والعنصر الثانى أو الخاصة الثانية للإنسان : هى الصورة أو الجسد الترابى ، والعنصر الثالث : هو الروح ، ويذهبون إلى المغايرة بين النفس والروح ، حيث إن الحياة تكون بالروح ، والتحرك يكون بالنفس ، أما الوجود فيكون

---

(١) كولوسى ١ : ١٥

بالصورة (الجسد) فهذه ثلاثة عناصر الإنسان نفس وروح وصورة ، تكون كيانا واحدا هو الإنسان ، وهم دائما فى اتحاد تام وكامل ، إذ هم واحد فى حين أن كل عنصر قائم بذاته ، كذلك الإله الذى خلق الإنسان على شبهه ذو ثلاثة أقانيم كل أقنوم قائم بذاته ولكن الثلاثة واحد ، ووجه التشابه أو التقابل واضح بين عناصر الإنسان المخلوق وثلاثة أقانيم الإله الخالق ، فالعنصر الأول فى الإنسان الذى زعموا أنه النفس العاقلة المعبر عنها بالذات تقابل الأقنوم الأول الذى هو الله الآب (الذات) والعنصر الثانى فى الإنسان وهو الصورة الجسيمة تقابل الأقنوم الثانى وهو (الله يسوع الذى زعموه صورة الله) والعنصر الثالث فى الإنسان الذى هو الروح يقابل الأقنوم الثالث وهو « الروح القدس » الذى زعموه روح الله .

قالوا : وكما أن خواص الإنسان وعناصره فى إتحاد تام وهم واحد كذلك ثالوث الإله ، هو الله الواحد .

هـــذا هو تصورهم للثالوث فى صورته التقريبية التى يقربونها إلى الأذهان لإمكان تصورها ، وهذا تصور ساذج كما نرى ويمكن نقضه بما يلى :

١ — إن هذا قياس للغائب على الشاهد ، وهذا غير جائز فى القياس المنطقى الصحيح لعدم الإدراك الكافى للغائب بخلافه فى الشاهد .

٢ — إن القول بمغايرة النفس للروح أو اتحادهما اختلفت فيه أنظار الفلاسفة والمفكرين وعلى فرض أنهما اثنان لم يعد يقينا معرفة خصائص النفس وتمايزها عن خصائص الروح ،

٣ — إذا كان كل إنسان مكونا من عناصر ثلاثة كل عنصر قائم بنفسه والجميع واحد هو الإنسان ، فهل يكون المسيح الإبن كذلك

مكونا من عناصر ثلاثة ، نفس ، وروح وجسد ، وإذا كان ذلك كذلك فإنه يمكننا أن نقول كما تقولون[1] : حيث ان نفس المسيح (الله الإبن) عنصر وخاصية من عناصره وخواصه الثلاثة ، وحيث إن كل ما فى الإله هو الإله فنفسه إذن إله ، وحيث إن روح المسيح (الله الإبن) عنصر وخاصية من عناصره وخواصه الثلاثة ، وحيث إن كل ما فى الإله هو الإله فالروح إذن إله ، وهكذا يقال بالنسبة لجسد المسيح وصورته أيضا ، وينتج من هذا أن الإله الإبن احتوى ثلاثة آلهة بناء على أنه ناسوت (إنسان) وفى الوقت نفسه هو لاهوت فصار اللاهوت الإبن ثلاثة تضاف إلى الثالوث الأول فيصبح الله ستة أقانيم لا ثلاثة ، خاصة وأن أتباع الكنيسة الكاثوليكية يعتقدون أن المسيح ذو طبيعتين وإرادتين ومشيئتين لاهوتيه وناسوتية ، وكل واحدة منهما مستقلة وقائمة بذاتها ،وإذن فالتشبيه المزعوم فاسد لعدم تطابق المشبه والمشبه به فى وجه الشبه .

٤ — تمثيل أو تشبيه ثالوثية الإله بثالوثية الإنسان تشبيه فاسد ، إذ ثلاثة عناصر الإنسان المشبه به — لو سلمنا بها — محتاج كل عنصر منها للآخرين لا يبقى بدونهما ، والاحتياج أمارة الحدوث ، فإنه لا يصح فى العقل أن يتم التشابه فى الصفة أو فى العنصر بين الأزلى والحادث ، لأن الأزلى كامل غير محتاج ، أما الحادث فمن لوازم ذاته النقص والاحتياج ، وإذن فلا يصح ما ذكر من تشبيه وتمثيل .

هذا وبعضهم يزيد ذلك التصور استغلاقا فى الفهم وإبهاما فى التصور ، فيلصق بالله تعينات وتشخصات تزيد الموضوع تعقيدا ، وهذا ما فلسفه عوض سمعان حيث يقول : « الله واحد وثالوث ، فهو واحـــد من جهة وثالوث من جهة أخرى ، فكما أن الإنسان واحد فى مظهره ، وفى الوقت نفسه هو جوهر مكون من ثلاثة عناصر ، هى الجسد والنفس والروح ، كذلك الله ، فهو واحد من جهة وجامع وشامل من جهة أخرى دون

---

(١) راجع قول صادق إلياس ص ٣٢ من هذا الكتاب .

أى تعارض أو تناقض فى ذات الله ، فالله واحد من جهة الجوهر أو الباطن ، وهو جامع من جهة التعين أو الظاهرية ، وجوهر الله يسمى «اللاهوت» أى الله فى جوهره ، وهذا الجوهر نفسه بالنظر إلى تعينه وظهوره هو «الله» فالله هو اللاهوت معينا واللاهوت هو الله جوهرا ، أى أن الله هو اللاهوت ظاهرا واللاهوت هو الله مستترا، والله واللاهوت واحد ، لأن جوهر الله هو عين تعينه ، وتعينه هو عين جوهره ، ثم يسترسل قائلا : إن الله ليس تعينا واحدا بل تعينات، فذات الله تعينات، وكل تعين من هذه التعينات ليس جزءا من ذات الله بل هو عين ذاته ، أى هو ذات الله نفسها بكل خصائصها وصفاتها الذاتية ، ولذلك يكون كل تعين من هذه التعينات هو الله ، وهذه التعينات تسمى الأقانيم ، فالأقانيم هى تعينات اللاهوت أو هم اللاهوت معينا ، أى اللاهوت معاينا فى ذاته وصفاته »[1] .

وهكذا نراهم قد امتدوا بعقولهم إلى دواخل الذات الأقدس — جل سلطانه — وزعموا أنهم أدركوا ما فيها من نسب ، ومحبة ، وعشق وتشخصات وتعينات كلها عماء ، وتناقض واضطراب ألا ترى قول — عوض سمعان — (جوهر الله عين تعينه وتعينه عين ذاته) فإذا به يجعل التعين الواحد تعينات فيقول : (فذات الله تعينات) كيف يمكن لعاقل أن يقول هذا القول ؟ ثم هم ينتهون إلى القطع بأن الله وإن بدا للعقول على أنه واحد إلا أن حقيقته ثلاثة ، ثم إنه لا يخفى أن التعين هو التشخص ، وهو لا يكون إلا بشىء زائد على حقيقة ذات الأقنوم ليست فى حقيقة ذات غيره ليتحقق التمايز ، وبهذا يتحتم التعدد لا محالة، كما لهم فى تشبيهاتهم الله بالإنسان تصورات عديدة وأمثلة تنوء بحملها الجبال

(١) أنظر الله بين الفلسفة والمسيحية ص ٩٧ وما بعدها — عوض سمعان

جريا وراء الظاهر من عبارة التوراة التى تقول بأن الله خلق آدم على صورته، حتى انتهى بعض كتابهم إلى أنه لا يمكنهم أن يفهموا الله إلا عن طريق تصوره بالصورة البشرية[١].

يدعون كفر من أنكر الثالوث :

إن عقيدة التثليث هى باب الدخول فى الديانة المسيحيه، فمن أنكر كون الله مثلث الأقانيم فقد خرج عن الدين المسيحى بالكلية، واستحق الطرد من الكنيسة واللعن والحرمان منها ومن رحمة المسيح ورضاه، ومن أراد الدخول فى الدين المسيحى لا بد أن يعلن فى اعتقاد جازم أن الله ثلاثة أقانيم : آب وابن وروح قدس، وجملة القول، إن التثليث أساس من أسس الدين وعماد الأعمدة فى إقامته وهو سر العرفان بالله والإيمان به.

قال صاحب كتاب سر الأزل : « إن عقيدة الثالوث أعظم العقائد المسيحية أهمية وأساسها كلها لأنها تتصل بذات الله حسبما أعلن لنا نفسه فى كتابه[٢]، فمعرفتها هى معرفة الله، والإيمان بها هو الإيمان بالله، ومن يجهلها يجهل مولاه، ومن ينكرها ينكر مولاه... »[٣]، ثم يأخذ الكاتب فى تعميق الوجوب الإيمانى بذلك الثالوث وأنه لا يقبل الإنسان فى ملكوت السموات بدونه فيقول : « إن الدخول فى المسيحية لا يتم إلا بالإيمان

---

(١) إقرأ رسالة التثلث والتوحيد صـ ١٥٦ يس منصور

(٢) أين كتاب المسيح الذى أعلن فيه هذا السر العظيم وما اسم هذا الكتاب ؟؟ !! لا وجود لهذا الكتاب.

(٣) توفيق جيد / سر الأزل صـ ٥١

بسر الأزل ، سر الثالوث الأقدس إن كلمة السر التى بها يقبل أى كائن فى ملكوت السموات هى سر الأزل ، سر الثالوث الأقدس ، هذا الاسم ، إسم الآب والإبن والروح القدس ينبغى أن يوضع على كل من يلج باب الملكوت ، هذه هى السمة التى ينبغى أن يحملها على جبينة كل داخل إلى ملكوت السموات سمة الثالوث الأقدس »[١] .

ويقول الواعظ يسى منصور : « إن الثالوث الأقدس هو دعامة إيمان المسيحيين ، وهو فى شرعهم وعرفهم أشهر من نار على علم ، وصلتهم به صلة الجسد بالروح وصلة العين بالروح »[٢] .

وهكذا يوجبون الإيمان بسر مبهم لا يعلم المؤمن حقيقة ما يؤمن به سوى أنه سر يسمى سر الأزل من غير أن يعرف كيف ولماذا .

الأقنوم معناه وتشخصه عندهم :

تعارف المسيحيون على أن كلمة (أقنوم) معناها : الأصل أو الشخص[٣] ، ومعنى ذلك أن الله وإن كان واحدا إلا أنه ثلاثة أصول أو ثلاثة أشخاص ولا يخفى أن التشخص معناه : التعين ، فإذا كان كل أقنوم من الثلاثة واجب الوجوب لذاته باعتباره كائنا إلهيا له وجوده الخاص ، فإن ما به تعين أحدهم — أى تشخصه — غير ما به يكون تعين الآخر .

وهذا أمر يحقق التمايز التام بين الأقانيم ، فهى متمايزة وإن جمعها جوهر

(١) المرجع السابق

(٢) رسالة التثليث والتوحيد ١٥٦

(٣) يقول المسيحيون : إن كلمة أقنوم يونانية الأصل ويقابلها فى العربية « الشخص » .

واحد كما هى دعواهم ، وذلك كمثلث متغاير الزوايا ومع ذلك هو مثلث واحد ، فأسماء زواياه متعددة ، ولكل منها تعيينه الخاص، ويجمعها مثلث واحد ، بل إن حقيقة المثلث هى تغاير زواياه ، فما لم يكن متغاير الزوايا لم يكن مثلثاً فكذلك الثالوث المسيحى واحد فى الجوهر وهو فى الوقت نفسه متغاير الأقانيم ، فما لم يكن الله مثلث الأقانيم لم يكن إلهاً ، فالأقانيم بناء على تشخصها هى أصول متشخصة يجمعها جوهر عام .

والأقنوم ليس قوة مؤثرة تقوم بالذات ، ولا صفة ناعتة ، وإنما هو شخص له أوصافه وخواصه ، وهو كما يعتقدون كائن أزلى يأخذ تشخصاته من كل ما يطلق عليه ، فباعتباره أباً له تشخصات الأبوة الخاصة بالذات المتسمية بذلك ، وهذه التشخصات تميزه عن الإبن والروح القدس ، وباعتباره ابناً يأخذ تشخصات الإبن وحدوده المميزة له عن أقنوم الآب وأقنوم الروح القدس ، وهكذا أيضاً باعتباره روح قدس ، وهذا هو مرادهم وعرفهم وعليه إجماعهم ، وإذا لم يفهم الثالوث على هذا الاعتبار تكون أسماء الآب والإبن والروح القدس لمسميات غير متحققة الوجود ، يقول يسى منصور : « إن الأقانيم ليست مجرد أسماء تطلق على الله، أو مجرد صفات ينعت بها ثلاث شخصيات متميزة غير منفصلة متساوية فائقة عن التصور »[1] .

ويقول جورجى اسكندر : « وأقانيم معناه أشخاص تجمعهم ذات واحدة أو يشتركون فى جوهر واحد ومفردها أقنوم ، وهو أحد الأشخاص الذين يشتركون فى جوهر اللاهوت »[2] .

(١) رسالة التثليث والتوحيد ص ٥٦ .
(٢) كتاب (الإله الذى تؤمن به ص ٤٤) .

وهذا الواعظ صادق إلياس يقدم لنا أدلة عقلية يرى أنها تنتج لنا أن الثلاثة الأقانيم ذوات كل ذات منها تخالف الأخرى ، ونظراً لأننا فى حاجة إلى وضوح الفكرة عن حقيقة الأقنوم — حتى يكون نقدنا واضحاً ومبيناً ، وعلى أساس متين أستميح القارىء عذراً فى ذكر أدلة الواعظ بأكملها — قال سيادته :

أولا : يعلن لنا الوحى أن الآب والإبن والروح القدس أقانيم إلهية فى ذات الله العلية ...

ثانياً : إن الأقنوم الواحد يخاطب الآخر ، فالآب يخاطب الإبن قائلا له : أنت ابنى أنا اليوم ولدتك [مزمور ٢ : ٧] وعبرانيين ١ : ٥ . والإبن الذى هو السيد المسيح كثيراً ما خاطب الآب فى أيام تجسده كقوله له مرة — « والآن مجدنى أنت أيها الآب عند ذلك بالمجد الذى كان لى عندك قبل كون العالم [(١)] : [يوحنا ١٧ : ٥] ولا يخفى أن المخاطب — بكسر الطاء — غير المخاطب — بفتح الطاء — فلو أن الآب والإبن إسمان لله لا أقانيم فيه لما خاطب الأقنوم الواحد منهم الآخر ، إذ أن الإسم لايخاطب الإسم .

ثالثاً : إن الأقنوم الواحد يتكلم عن نفسه بقوله « أنا » ويتكلم عن الأقنوم الآخر بقوله « هو » فالآب يتكلم عن الإبن بكلمة « هو » ويتكلم عن نفسه بكلمة « أنا » وذلك بقوله « أنا أكون له أباً وهو يكون لى ابناً » [عبرانيين ١ : ٥] والإبن يتكلم عن نفسه بكلمة « أنا » ويتكلم عن الآب بكلمة « هو » وذلك بقوله لليهود « أنا — أعرفه لأنى منه — وهو أرسلنى » [يوحنا ٧ : ٢٩] .

---

(١) اعتمد المسيح : أى تاب وعاهد يوحنا « يحيى بن زكريا » على الإيمان بالله والدعوة إليه فلذلك سمى يوحنا بالمعمدان .

والروح القدس أيضا يتكلم عن نفسه بكلمة «أنا»، كما يقول الإنجيل «وبينما بطرس متفكر فى الرؤيا قال له الروح القدس هو ذا ثلاثة رجال يطلبونك لكن قم وانزل واذهب معهم غير مرتاب فى شىء لأنى — أنا — قد أرسلتهم» [أعمال ١٠ : ١٩ ، ٢٠].

ويقول السيد المسيح عنه أى الروح القدس، «ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم» [يوحنا ١٦ : ١٤].

ومن الواضح أنه فى سياق إخباره إياهم عن المسيح يكلمهم عنه بالضمير المستتر بكلمة «هو» ولا يخفى أن الشخص الذى يتكلم عن نفسه بكلمة «أنا» هو غير الشخص الذى يتكلم هذا المتكلم عنه بكلمة «هو» فلو أن الآب والإبن والروح القدس أسماء الله لا أقانيم فيه لما تكلم الواحد منهم عن نفسه بكلمة «أنا» ولما تكلم عن الآخر بكلمة «هو» إذ أن الإسم لا يتكلم عن اسمه ولا عن اسم غيره.

رابعا : لما اعتمد السيد المسيح من يوحنا المعمدان ظهر الثالوث ظهورا واضحا لا يختلف فيه اثنان كما يقول الإنجيل :

فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه وصوت من السموات قائلا هذا هو ابنى الحبيب الذى سررت به» [متى ٣ : ١٦ ، ١٧].

فإن كان الآب والإبن والروح القدس أسماء لله لا أقانيم فيه فيكون الاسم هو الذى اعتمد، ويكون الاسم الآخر هو الذى نادى بصوته

---

(١) اعتمد المسيح : أى تاب وعاهد يوحنا «يحيى بن زكريا» على الإيمان بالله والدعوة إليه فلذلك سمى يوحنا بالمعمدان .

من السموات ، ويكون الإسم الثالث هو الذى نزل بهيئة جسمية[1] مثل حمامة من السموات، وهذا عبث، ولكن الحقيقة هو أن الإبن الأقنوم الثانى فى اللاهوت هو الذى اعتمد من يوحنا المعمدان والآب الأقنوم الأول فى اللاهوت هو الذى نادى من السموات قائلا : هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت ، والروح القدس الأقنوم الثالث فى اللاهوت هو الذى نزل بهيئة جسمية مثل حمامة على الإبن.

خامسا : توجد نصوص كثيرة لا يمكن لمنكرى الثالوث أن يفسروها، وإن فسروها يكون تفسيرهم إياها كلاما لغوا ليس له معنى. وذلك مثل قول السيد المسيح : «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويحيى، كذلك الإبن أيضا يحيى من يشاء» [يوحنا ٥ : ٢١].

فإن كان الله أقنوما واحدا، والآب والإبن المذكوران فى هذا النص إسمان لله لا أقنومين فيه فيكون السيد المسيح يقول هكذا.

كما أن الله يقيم الأموات — أى من رقدتهم — ويحيى ، كذلك الله أيضا يحيى من يشاء[2] ويكون هذا القول عبارة عن كلام لغو ويكون

---

(١) هنا إقرار مصدره نص الإنجيل بأن «الله الإبن» قد انتقل إلى المسيح الجسد أو المتجسد ، والانتقال من خواص الذوات لا الصفات، وكذلك الشأن فى نزول الروح القدس متجسدا فى هيئة حمامة على الإبن المسيح ، والنزول انتقال ، ولا انتقال إلا للذوات المتشخصة ، فهل بعد هذا يقال إن الثالوث واحد فى الجوهر أم إن هؤلاء الثلاثة منفصلون ويمثلون ثلاثة جواهر ؟ إن هذا غير خاف على لبيب.

(٢) يريد الكاتب أن يقول : إذا كان لفظ «الإبن» إسما لا أقنوما فإن هذه الفقرة تكون ركيكة التعبير أو لغوا من القول غير واضحة بعد

السيد المسيح له المجد قد نطق به بدون وعى — وحاشاه — تبارك اسمه من كلام اللغو ، فإنه معصوم منه تنزه ، — وحاشاه — من عدم الوحى فإنه معصوم منزه عنه .. ويلزم مما تقدم أن الله واحد فى الجوهر لا فى الأقنوم ، وأن الآب والإبن والروح القدس أقانيم فيه لا أسماء له ، وأن الأقنوم الواحد هو غير الأقنوم الآخر، انتهى .

هذا عرض تفصيلى للعلاقة بين الثالوث، وهو كما نرى يبين أنه ثالوث أقنومى شخصى ذو ثلاثه ذوات مفترقين غير متوحين فى أصل واحد ، والشهادة على ذلك هو ماذكره من نزول الروح القدس فى هيئة حمامة ليحل على المسيح وهو صاعد من الماء ، — وهذا النص فى متى — ففى ذاك الوقت كان الله الآب فى السماء ، والله الإبن فى الأرض ، والله الروح القدس هابط بين السماء والأرض قبيل حلوله على المسيح، أليس هؤلاء ثلاثة ذوات منفصلين متميزين وهم على الأقل فى هذا الوقت ثلاثة متعددين قد انفكت وحدتهم .

أرى أن هذا هو القول الحق ، ثم إنى أدعو القارىء الكريم أن يتأمل معنى قوله الكاتب «ويلزم مما تقدم أن الله واحد فى الجوهر لا فى الأقنوم وأن الأقنوم الواحد هو غير الأقنوم الآخر» .

= المعنى ، إذ يكون معناها : كما أن الله الآب يميت الأموات ويحيى كذلك الله الآب يحيى من يشاء ، وبذلك يكون الإبن هو عين الآب ، وما كلمة الإبن إلا إسما فقط لذات الآب ، وعلى ذلك يكون قائلها وهو المسيح قائلا هراء لركاكة التعبير ولغوه، وهذا المعنى يؤكد قولنا بالتعدد الإلهى غير المتوحد .

أليس فى هذا الكلام تناقض صارخ ؟ كيف يكون الله واحدا فى الجوهر وفى الوقت نفسه كل أقنوم هو غير الآخر ،؟ فما معنى الغيرية إذن إذا كانت وحدتهم فى الجوهر ثابته ؟ إن اختيار القول بوحدة الجوهر فى هذا الكلام ليس بأولى من ترجيح القول بتعدد الذات وشاهد الترجيح هو قصة نزول الروح القدس على المسيح .

على كل فإن هذا هو بيانهم لحقائق الأقانيم ، وقد تبين أن الله ثلاثة أقانيم حقيقية فى أشخاصها ، ويحتاج الإله لكى يكون كاملا أن تعمل هذه الأصول أو الأشخاص مجتمعة من أجل تحقيق موجبات الألوهية ، وعلى هذا الاعتبار ستجرى مناقشاتنا لعقيدة الثالوث والأقانيم عند بيان رأى الإسلام تجاه ذلك بمشيئة الله تعالى .

إختصاص كل أقنوم فى عمل الألوهية عندهم :

عرفنا مما تقدم أن الله فى المسيحية يحتوى فى مجموعه ثالوثا يدعى بالأقانيم: الله الآب، والله الإبن ،والله الروح القدس ، وعرفنا أيضا معنى الأقنوم وعلاقته بنظيريه ، ومن حقنا أن نعرف ما يقوم به كل أقنوم من عمل كونى فى ملكوته الأعلى مما يدخل فى دائرة اختصاصه ، وسنعرف الآن ذلك من عرضنا لفكر هؤلاء الذين فلسفوا هذه العقيدة ، كما عرفنا منهم المعانى السابقة لأن المسيح لم يفصح فى الإنجيل عن تفصيل ذلك .

يدعى بعضهم أن الله الآب يقوم بعمل الخلق لكن بواسطة الإبن ، فهل ياترى لأنه الكلمة التى بها يكون الخلق والإيجاد على حد قول الله فى القرآن الكريم ، «إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون»؟ وربما يكون ذلك ، ولكن ليس على غرار مايقول القرآن ، ثم إن الإبن يقوم أو قد قام فعلا بعمل الفداء ، أما الروح القدس فإنه يقوم بعمل التطهير للنفوس الآيبة إلى الصلاح بعد العصيان ، يقول الدكتور يوسف

طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية ، الله الآب والله الإبن والله الروح القدس،فإلى الآب ينتمى الخلق بواسطة الإبن ، وإلى الإبن الفداء وإلى الروح القدس التطهير غير أن الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال الإلهية على السواء »[1] .

وهكذا ترى يوسف خصص لكل أقنوم عملا ثم عاد فجعل كل أقنوم يشترك فى كل عمل من غير تصنيف أو اختصاص وعلى سواء .

هذا وإن التطاول على مقام الألوهية لمعرفة التدبير الإلهى للكون وكيف يعمل الثالوث الإلهى فى ملكوته الأعلى لهو جرأة وأى جرأة ، خاصة وأنه لايستند إلى أى دليل من المسيح نفسه ، لذلك لاعجب إذا رأيناهم يختلفون فى توزيع هذه الاختصاصات ، فيرى بعضهم فى هذا التوزيع مالايراه الآخر ، فهـــذا القس (توفيق جيد) يعيد النظر فى توزيع الاختصاصات والوظائف مخالفا سلفه بوست ، فيجعل أحدهما يقوم بتحقيق العدالة وإحقاق الحق ، وثانيهما يقوم بدور الشفيع الذى يوقف نفاذ الحكم الذى قضى به ذلك العادل ، لأن الشفيع الذى هو الإبن رحيم يفيض بالرحمات على البشر بخلاف العادل الصارم ، وبذلك الإيقاف يتلاشى تنفيذ أثر العدالة بسبب رحمة الفادى الشفيع ، أما الآخر الثالث فإنه يقوم بعمل التقديس والتطهير والإحياء بنعمه الغامرة ، فالروح القدس ينقل الإنسان من ميدان المعاصى إلى حظيرة الإيمان والطاعة ، فهذا هو الذى يعبر عنه بالميلاد الثانى أو الولادة الثانية ، ويعنى بذلك حياة الإيمان والهداية بعد حياة الإنحراف والعصيان ... يقول توفيق جيد : « إن عملية خلاص الإنسان هى قضية التاريخ الكبرى من بدء الزمان ، وهذه العملية تفترض حاكما وقاضيا ، وتتطلب مخلصا وفاديا ،

---

(١) قاموس الكتاب المقدس ص ١٦

وتستلزم مقدسا ومحييا ، إنها تفترض حاكما وقاضيا صدر حكمه بموت الإنسان الخاطىء وهلاكه ، ومن يكون ذلك الحاكم القاضي سوى الأقنوم الأول في اللاهوت « الله الآب » وتتطلب مخلصا وفاديا يرفع الحكم عن الإنسان الشقي ، ومن يكون ذلك المخلص الفادي سوى كائن إلهي مثله ، ذلك الكائن هو الأقنوم الثاني في اللاهوت « الله الإبن » ثم إن عملية الخلاص تستلزم مقدسا ومحييا يخلق من الإنسان الخاطىء إنسانا جديدا في البر وقداسة الحق ، ومقدسا يعيد للإنسان الفاسد صورة القداسة المفقودة ، ومن يكون ذلك المقدس المحيي سوى كائن إلهي قادر على كل شيء هو الأقنوم الثالث في اللاهوت أي الروح القدس »[1] .

ويستبين لنا من ذلك القول أن الله الآب محقق العدل فهو العادل ، والله الإبن هو غافر الذنب ، وقابل التوب ، وناشر الرحمة لأنه مصدرها لا غير ، والله الروح القدس هو صاحب النعمة ، فهو المنعم ، ومصدر النعم ، هذا هو منطوق العبارة للسيد القس ، أما مفهومها فهو أن الله الآب لا يستطيع غفران الذنوب ، وأن الله الإبن ليس من اختصاصه تقديس النفوس ، وأن الروح لا يملك الخلق .

لذا ، فليطلب الإنسان حاجته من رب لا يجدها عند غيره من الأرباب فليس الذي عنده الرحمة في مقدوره التطهير أو الخلق ، والذي بيده الخلق ليس عنده التطهير والتقديس ، فكل إله منهم له اختصاص وكل رب قد استولى على سلطان ، وكل أقنوم ذهب مذهبا .

(١) توفيق جيد وسر الأزل .

الفصل الثاني

كيف تكونت عقيدة التثليث في المسيحية

تمهيد :

لم تكن المسيحية فى مطلع القرن الرابع الميلادى بالدين الذى ينطوى على مقدمات تجعله يستأهل العناية به لدى الهيئات الحاكمة فى الإمبراطورية الرومانية ، فلم يكن هو الدين الشعبى العام والغالب فى الدولة مثل الوثنية، ولم يكن دين الفئة التى تتمتع بالرضا والحماية من الحكام، ولم يكن الدين المسموح له بممارسة طقوسه كاليهودية ، ولكنه دين الأقلية المضطهدة من الفئتين السابقتين ، ورغم ذلك فقد كان المتمسكون به أقلية تمتاز بقوتها الناشئة عن تماسك يثير الدهشة ويصل إلى حد الإعجاب ، لأنها تصر على البقاء وسط نار الاضطهاد الملتهبة وإن تمزقت تلك الجماعة إلى شيع وأحزاب مختلفة ومتناقضة .

فإذا ما جاء الحاكم ولجأ إليهم السلطان وتدين بدينهم فإنه ينتفع بهم فى مجال الحكم والعمل السياسى ، ولا شك أن السابق إليهم هو المنتصر فى الوقت الذى أذنت فيه الديانات الوثنية بالأفول ، ولم يعد التعلق بها أمراً مستحسناً بعد ما ثبت لدى الإمبراطور (قسطنطين) أن استظلاله بظلال علم الدين المثراسى الوثنى لم يحقق له النصر فى حربه مع العدو فى الوقت الذى لقى من الفيالق المسيحية من القوة والبسالة فى الحرب تحت لواء المسيح وظلاله ما أثار إعجاب (قسطنطين) نفسه ، مما جعله يفكر فى أمر

هذا الدين وما قد يحققه له من مآرب ، أهمها توحد الأمة تحت سلطانه وحدة طالما كان يحلم بها إذا هو انضم إلى لوائه . ثم إنه لم يكن من طبع المسيحيين أن يخرجوا على نظام الدولة مهما لاقوا من عنت ، لأن رؤساءهم قد أوحوا إليهم بوجوب الطاعة للسلطات المدنية ، ولو صب عليهم من لهب الاضطهاد أشده ، وأن للسلطان المدنى فى رقابهم حق الطاعة والخضوع المقدس[1] .

ثم ما تمتاز به هذه الجماعة من متانة الأخلاق ، وحسن السلوك عن سائر سكان الإمبراطورية ، وروعة شعائرها إذا قيست بشعائر الوثنية ، فلعله كان يرى فى هذه السمات إذا ساد دينها تهذيب أخلاق الرومانيين ، ووضع الحدة المتأزمة المتناحرة بين الطبقات لما يتسم به أتباعها من تسامح وإيثار وزهد يرون أنهم يعتاضون عنه بالسعادة الأبدية فى الحياة الأخرى .

ويبدو أنه قد ظهر له أن سلطان الكنيسة الدنيوى والنظام الكهنوتى الحاضر فى وقته يحققان نظاما روحيا ودنيويا يناسب ملكية قسطنطين التى يصبو إليها ، وهذا السلطان الكنسى مع النظام الكهنوتى بما يحتويه من أساقفة وقساوسة تشكيل بارع نشد فيه ضالته فى سلطان مطلق تحققه له تلك الجماعة الدينية ، أو على الأقل تتحقق له وحدة السلطان تحت ظلال دينهم وتأييدهم لسلطانه ، ويستطيع أن يستخدم ذلك التشكيل كأداة لتوحد البلاد بعد تهدئتها من المنافسين فى الحكم ، ثم حكمها حكما مطلقا .

---

(١) انظر رسالة بطرس الأولى الإصحاح الثانى

قسطنطين والمسيحية :

من أجل كل هذه الاعتبارات السالفة الذكر وغيرها اعتنق الإمبراطور الرومانى قسطنطين المسيحية حوالى سنة ٣٢٤م تقريبا ، ثم وجه الدعوة إلى رعيته أن يعتنقوا هذا الدين الجديد معلنا أنه دين الدولة الرسمى .

والذى يلوح لنا أن قسطنطين لم يعتنق المسيحية رغبة فى التدين بها ، بل إنه جعلها وسيلة إلى غاية سياسية هى تفرده بالحكم من دون الأباطرة المنافسين فيه ، والدليل على جعله الدين وسيلة إلى استقرار الحكم له أنه لم يكن يهتم بالشعائر الدينية لهذه الديانة ، فقلما كان يخضع لمتطلبات العبادات المسيحية من شعائر وطقوس ، ورغم كل ذلك لم يكن يتردد فى المسارعة على القضاء على كل انشقاق يحدث، محافظة منه على الإمبراطورية السياسية ، وكان يعامل الأساقفة فى أثناء حكمه على أنهم أعوانه السياسيون ، فكان يجمعهم إذا لزم الأمر فى مجلس يرأسه ويقوم بتنفيذ ما تسفر عنه قرارات هذه المجالس حسب الأغلبية المطلقة كما كان مقررا ، فكان كما يقول صاحب قصة الحضارة «حاكما سياسيا أولا ثم مسيحيا ثانيا »ويتضح جعله المسيحية وسيلة إلى غاية تلك الرسائل التى كان قد بعث بها، إلى الأساقفة المسيحيين والتى يظهر منها أنه لم يكن يعنى بالفرق اللاهوتية التى كانت تضطرب بها المسيحية ، يقول ول ديورانت فى حديثه عن الاضطراب الذى أحدثته عقيدة آريوس (ولما جاء قسطنطين إلى نيقوميديا بعد أن هزم ليسنيوس سمع هذه القصة من أسقفها ، فأرسل إلى ألكسندر وإلى آريوس رسالة شخصية يدعوهما فيها أن يتخلقا بهدوء الفلاسفة وأن يوفقا بين آرائهما المختلفة فى سلام . فان لم يفعلا فلا أقل من أن يخفيا جـدلهما عن آذان الجماهير ، ثم يقول ول ديورانت المسيحى : ويكشف لنا هذا الخطاب الذى نقله لنا يوسبيوس — وهو مسيحى من كبار العلماء والمؤرخين — فى صراحة عن قلة اهتمام قسطنطين بعلوم الدين ، وعن الهدف السياسى

الذى يبتغيه من سياسته الدينية (لقد اقترحت أن أرد جميع آراء الناس فى الله إلى صورة واحدة لأنى قوى الاعتقاد بأنى إذا استطعت أن أوحد آراءهم فى هذا الموضوع سهل على كثيرا تصريف الشئون العامة ولكنى مع الأسف الشديد أسمع أن بينكما من الخلاف أكثر مما كان قائما فى أفريقية فى وقت قريب — لعله يشير إلى انشقاق الدونانية الآنى بيانه — ويبدو أن سبب هذا الخلاف بينكما صغير تافه غير جدير بأن يثير هذا النزاع الشديد، فأنت ألكسندر تريد أن تعرف رأى قساوستك فى إحدى النقاط القانونية، فى جزء من سؤال هو فى حد ذاته عديم الأهمية، وأما أنت يا آريوس فقد كان الواجب عليك إذا كانت لديك أفكار عن هذا القبيل أن تظل صامتا .. ولم يكن ثمة حاجة إلى إثارة هذه المسائل أمام الجماهير .. لأنها مسائل لا يثيرها إلا من ليس لديهم عمل يشغلون به أنفسهم .. تلك أعمال سخيفة خليقة بالأطفال العديمى التجربة لا برجال الدين أو العقلاء من الناس ..) فقسطنطين انحدر إلى مسيحية مظهرية من الوثنية التى لم يبرأ منها بعد، والتى يدين بها، فهو لم يعلن تنصره ودخوله فى المسيحية بشكل رسمى وحقيقى، إلا وهو على فراش الموت، وكانت مسيحيته وقت المجمع زائفة تمويهية أريد بها الكسب السياسى بمهارة بارعة كما سبق بيانه، وكما يثبت مما جاء فى قصة الحضارة: (ولما اشتد عليه المرض استدعى قسا ليجرى له مراسم التعميد المقدس الذى أخره عمدا إلى تلك الساعة وكان يرجو أن يطهره هذا التعميد مما ارتكبه من الخطايا فى حياته المزدوجة بالأعمال، ثم خلع الحاكم المجهد الأثواب الملكية الأرجوانية وارتدى الثوب الأبيض ثوب المسيحى الحديث التنصر وأسلم الروح ..)[1].

---

(١) قصة الحضارة ج ٤ م ١ ص ٤٠٢

ويذهب الشيخ أبو زهرة إلى أن الذى عمده هو القس الكاتب يوسيبوس العالم المؤرخ وأنه كان صديقاً له ، وأنه عمده وهو أسير الفراش ..) [١] ويوسيبوس هذا هو الذى اعتزم الكتابة عن قسطنطين وعن المسيحية فأوعى ، وتاريخه مقدس لدى الأوساط المسيحية ، وإن عملا كهذا من جانب قسطنطين يثير على الأقل الشك والتردد فى تنصره وقت إعلانه دينا رسميا ، ويؤكد ول ديورانت المسيحى ما ذهب إليه الشيخ أبو زهرة فيقول :(ولمامات قسطنطين فى السنة التالية تلقى — قبل موته — مراسم التعميد على يد صديقه ومشيره يوسيبوس أسقف نيقوميدية وهو من أتباع آريوس نفسه ..)[٢] .

هذا هو موقف قسطنطين من المسيحية ، فلم يتسم تدينه بالإخلاص إلا أنه كان حكيما فى سياسته وهذا ما أذهب إليه وأراه ، وقد كان يمكنه أن يسبقه إلى ذلك التدبير غيره من الأباطرة السابقين ، ولكنهم لم تغرس فيهم غريزة التهيؤ لقبول التدين المسيحى مثله ، إذ قد هيئت له ظروف لم تهيأ لسائر الحكام الوثنيين قبله ، فأمه (هلينا) اعتنقت المسيحية لما طلقت من والده قسطنطيوس ، ويبدو أنها أوحت إلى ولدها هذا بما تنطوى عليه المسيحية من فضائل أخلاقية هى على الأقل أفضل مما تنطوى عليه الوثنية ، ثم إنه تأثر بما حظى به من انتصارات عديدة فى معارك حربية خاض غمارها مستظلا بظلال لواء المسيح وصليبه .. وقد وجد قسطنطين حين دخل المسيحية أتباعها فى خضم مائج ومضطرب من التشيع والتحزب يكاد يقضى على ما يداعب أجفانه من أمل فى وحدة الأمة بفضلهم .. فماذا عساه أن يفعل ؟ لا بد أن يعمل على جمع أصحاب العقيدة الواحدة أولا على رأى مستقر فى مجمع عام وبأى وسيلة، ثم يعمل على جمع

---

(١) راجع محاضرات فى النصرانية ص ١٣٦ .

(٢) قصة الحضارة جـ ٤ م ١ ص ١٩ .

الأمة بهم ووحدتها بجهودهم . . وكان هناك بعض المجامع المحلية التى تنعقد لتقرر العقيدة التى تركن إليها وتحرم الخارجين عليها وتطردهم من الكنيسة بعد إعلان رفض عقيدتهم ، ولكن هذه المؤتمرات أو المجامع على حد تعبيرهم لم تقطع داء النزاع من أساسه ولم تقلعه من جذوره ، ولذلك يظل الخروج على الكنيسة والتنازع فى العقيدة دائما فى الأماكن المختلفة والمحلات المتباعدة، متميزاً بتميز الأهواء والأغراض، وإذن فلا مناص للسلطان حامى حمى المسيحية الجديد إلا أن يصدر أمره بعمل مجمع ولكنه ليس على مستوى المحلية أو المكانية كما كان ذلك من قبل ، ولكنه على مستوى المجتمع المسيحى كله فى أى مكان من الأرض فدعا إليه . . وحدد مكانه فى مدينة نيقية فى آسيا الصغرى وتم الاجتماع فى مايو من عام ٣٢٥م وكان هذا هو أول مجمع مسكونى عام .

وقبل أن أمضى فى بيان شكل هذا المجمع وما دار فيه وما أسفر عنه من قرارات أبين أسباب انعقاده .

أسباب انعقاد مجمع نيقية :

سأتكلم على المجامع المسيحية بما لها من قرارات لها صلة بهذا الموضوع الذى نحن بصدده وهو (كيف نشأ التثليث فى المسيحية ؟) دون غيرها من قرارات ، فأقول :

المجامع فى المسيحية كانت تتنوع إلى نوعين :

(أولا) نوع يعقد فى إطار دائرة معينة من البلاد والسكان لا تتعدى قراراته إلى غيرها لأن التمثيل فيه لأساقفة تلك المحلة وقسسها فقط ومن ذلك كل المجامع التى حدثت قبل مجمع نيقية ومجامع أخرى وجدت بعده وهذا النوع يعرف بالمجمع المحلى أو المكانى .

(ثانياً) نوع يعقد على مستوى العالم المسيحى وهذا النوع تطبق

قراراته على جميع سكان المعمورة من المسيحيين لأن الممثلين فيه هم جميع رجال الكنائس المسيحية تقريباً فى كل الأرض المسكونة التى يستعمرونها، وهذا النوع يعرف بالمجمع المسكونى نسبة إلى السكان حيث تشملهم آراؤه وقراراته، وكان أول مجمع مسكونى على هذا المستوى هو مجمع نيقية ، وإنما كان الأول لأنه لم يكن فى استطاعة أحد من المسيحيين قبل تنصر هذا الملك أن يدعو إلى مثل هذا المجمع ، فإن أغلال الاضطهاد كانت تصفدهم من السكان الآخرين — غير النصارى — الذين كانوا هم الكثرة الغالبة عليهم والقاهرة لهم ،ولكنهم فى ذلك الوقت قد آن لهم أن يجهروا ، لأن السلطان أصبح حامى المسيحية التى يجب أن يعتقدها المواطنون ، وأصبحت العقيده التى قررها هذا المجمع هى العقيدة الرئيسية للدولة ، وكان هذا المجمع تحيط به ظروف وأسباب خاصة أهمها :

(الأول) ما كان فى ذلك الوقت من انشقاق فى جميع الأديرة المسيحية حتى لا تكاد تتفق على عقيدة معينة ، اللهم إلا على انتسابهم إلى المسيح، ومنه تشعبت الديانة إلى فرق لا تحصى كل منها تصور المسيح بحسب ما يتفق وما علق بأذهانها من بقايا أديان درست وبادت آثارها ،وأخذت كل فرقة تحيى دينها السالف فى ثوب الدين الجديد المتمثل فى المسيحية كما يقول الشيخ أبو زهرة : مزيج غير تام التكوين غير تام الاتحاد والامتزاج . وقد يهون الخطب إذا تأكد لدينا أن كثيرا من المعتنقين الجدد للمسيحية فلاسفة أولوا فى فهم العقيدة بفكرهم الفلسفى والإلحادى ، وكان منهم الوثنيون من جميع الفئات ، ونوع آخر من الفكر المسيحى جنح إلى العقائد المتوارثة . ولو كان ذلك الجنوح عفوا ومن غير قصد، ثم خلطتها بالعقيدة مع إضافة آراء دينية وفلسفية لبعض الفلاسفة المتنصرين ، وهناك أنواع من الفكر أخذت تتجاذبها الآراء والأفكار التى تستهويها، من كلا النوعين السابقين مع اعتبار أن كل هاتيك الفرق تزعم كل منها أن مذهبها هو المسيحية الصحيحة التى أتى المسيح بها ودعا إليها حتى أصبح

لا يشك فى انهيار النظام الدينى آنذاك . ولقد ظهرت هذه الاختلافات بصورة مستفحلة وأطلت برأسها المخيف حين آمن المسيحيون على أنفسهم بالجهر بدينهم بدخول قسطنطين فى المسيحية .

(الثانى) اعتنق قسطنطين المسيحية فى عام ٣٢٤م تقريبا لأسباب مر تفصيلها فى التمهيد المتقدم : ولم يكد يمر على تنصره عام واحد حتى فوجىء بانشقاق زائد الخطورة وذلك أن (دونا تس) أسقف قرطاجه قد قام بدعوة جديدة يؤيده فيها أحد القساوسة وأتباع آخرون يرى أن الأساقفة الذين أسلموا الكتاب المقدس لرجال الشرطة الوثنيين قد فقدوا بهــذا العمل استحقاقهم لمناصبهم وأهليتهم لسلطانهم الدينى ، وأن كل شعائر التعميد وتعيين القساوسة التى تجرى على أيديهم باطلة .

ولكن الكنيسة رفضت العمل بهذه الآراء الدوناتية ، وقام الدوناتيون فى مقابل ذلك بتعيين أساقفة جدد فى كل مكان يرون أن الأسقف الذى فيه لا يحوز شروطهم ولقد أعقب شيوع هذا الرأى الدوناتى فوضى وعنت حزن من أجلها قسطنطين وهو الذى كان يرى من قبل أن المسيحية هى الوسيلة القوية إلى وحدة الأمة تحت سلطانه وهذه الفرقة ظلت تؤرقه بإمعانها فى الانشقاق . .)[1] .

فهذا الانشقاق الدوناتى هو أحد الأسباب الداعية إلى عقد مجمع نيقية ، ولعله يكون من الملحوظ فى سلوك قسطنطين السياسى أنه إذا دعا إلى عودة المنشقين إلى الكنيسة ليس معناه أنه مسيحى لأنه لم يتنصر على الحقيقة بعد ، ولكنه يأمل من وراء ذلك توحد الأمة وعدم إثارة الشعب من أى لون كان كما مر ، وهذا ما يجعل الظن غالباً فى أن تنصره كان لأسباب سياسية بحتة فى أول أمرها كما مر أيضا فى الفقرة السابقة .

(١) راجع قصة الحضارة ج ٣ ص م ٣ ص ٣٩٠ ، ٣٩١ .

(الثالث) فى هذه الآونة قام فى الأسكندرية أخطر حركة فى تاريخ الكنيسة كما يصفها تاريخهم ، فكان هناك قسيس مصرى تقدم فى حوالى عام ٣١٨ م إلى أسقف الأسكندرية بآراء عن طبيعة المسيح يحكيها صاحب قصة الحضارة فيقول : (يقول آريوس إن المسيح لم يكن هو والخالق شيئا واحدا بل كان هو الكلمة أول الكائنات التى خلقها الله وأسماها ، واحتج الأسقف ألكسندر على هذا القول ، ولكن آريوس أصر عليه وقال : إنه إذا كان الإبن من نسل الآب فلا بد أن تكون ولادته قد حدثت فى زمن ، وعلى هذا لا يمكن أن يكون الإبن متفقا مع وجود الآب فى الزمن ، يضاف إلى هذا أنه إذا كان المسيح قد خلق فلا بد أن يكون خلقه من لاشىء ، أى من غير مادة الآب ، لأن المسيح والآب ليسا من مادة واحدة ، وقد ولد الروح القدس من الكلمة ، وهو أقل ألوهية من الكلمة نفسها)[1] .

هذا ما يمكن التماسه من أسباب مهدت لعقد مجمع كان له أكبر الأثر فى تحول العقيدة المسيحية وإبرازها فى ثوب جديد بدأت بتأليه المسيح ، وكان أقوى الأسباب أثرا هو عقيدة آريوس التى تقرر عدم ألوهية المسيح ، والذى يبدو من بعض الملامح .أن مذهب آريوس أحدث انشقاقا كبيرا أعقبه فجوة يقرب من المستحيل انسدادها .

وقد أحدثت عقيدته اضطرابا اختلطت معه الأفكار المسيحية، وضربت المجتمع المسيحى ضربة فككت أوصاله حتى انزعج لذلك قسطنطين ، ولا يمكن أن يحدث هذه التصدعات شخص بمرده ، بل لا بد

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩٢

أن يكون وراءه دعاة يعضدون فكرته ، وينشرون عقيدته من رجال الدين أنفسهم ، كما جاء ذلك فى تاريخهم ، ولا عجب فى ذلك ، فعقيدة عدم ألوهية المسيح لم تكن بدعا من العقائد، بل هى الحقيقة التى حاربها المسيح ، وعليها كان بعض المسيحيين من قبل آريوس، كما أثبت التاريخ المسيحى ذلك .

فجاء فى كتاب تاريخ الأمة القبطية: (الذنب ليس على آريوس ، بل على فئات أخرى سبقته فى إيجاد هذه البدع ، فأخذ هو عنها ، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديدا كما كان تأثير آريوس الذى جعل الكثيرين ينكرون سر الألوهية حتى انتشر هذا التعليم وعم)[1].

والذى يمكن استنباطه من ذلك أن آريوس لم يكن مخترعا لمذهبه ، بل كان مجددا دينيا أظهره الله بالحقيقة التى يريدها، وقد أحدثت مقالته هذه مالم يحدثه من سبقه ، لما حباه الله به من قوة الحجة ، وبيان القول ، وجرأة فى الحق ومجاهرة به ، وسعة الحيلة والأفق.

ويبدو أن الذى أثار أشجانه وجعله ينطلق فى دعوته بقوة ثائرة هو ما تبنته كنيسة الأسكندرية من بثها فى الناس فكرة ألوهية المسيح ، ودعوتهم اليها ، فنهض بهدم هذه البدعة بحرب منطقية لا هوادة فيها .

وقد بايعه فى ذلك بطاركة كثيرون ومعهم أتباع كنائسهم مثل كنيسة القسطنطينية ، وفلسطين ، وأسقف فيلا ، وأسقف مدينة نيقوميدية كان يدعو إلى مذهبه ويعظ الناس على أساسه يقول الشيخ محمد أبو زهرة (وفى الحق أننا نجد أسقف مقدونية وأسقف فلسطين وكنيسة أسيوط كل أولئك على رأى آريوس ، والأسكندرية وحدها هى التى تحاربه ،

---

(١) عن كتاب محاضرات فى النصرانية للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٢٠ ط ٢

فالخلاف محصور إذن بين آريوس ومعه أسيوط وفلسطين ومقدونية وبين بطريرك الأسكنديه) [١] .

والذى يبدو من كلام الشيخ أبى زهرة أن بطريرك الأسكندرية كان وحده فى المقاومة، كما أنه يلوح أن أتباعه كانوا قلة بحيث لم يستحقوا الذكر ، وأن الكثرة الغالبة كانت على دين آريوس .

ولقد ارتاع ألكسندر بطريرك الأسكندرية من هذا المذهب ومن أتباعه، فدعا إلى مجلس من الأساقفة المصريين فاجتمعوا فى الأسكندرية، واستطاع أن يقنع أعضاء ذلك المجلس بأن يحكموا على آريوس وأتباعه بالتجريد والحرمان ، ثم أبلغ هذا الإجراء إلى سائر الأساقفة ، فأحدث ذلك شغبا أكثر، وكان بمثابة إطفاء النار بمادة ملتهبة ، فقد اشتعلت نيران الخلاف فى بلاد اليونان وكان الأمر كما حكاه ول ديورانت أن: (اعترض على الإجراء بعضهم وأظهر بعض القساوسة عطفا على آريوس واختلفت آراء رجال الدين والدنيا فى الولايات الآسيوية فى هذه المشكلة وترددت فى المدائن أصداء الضجيج والاضطراب . حتى كان الدين المسيحى . كما يقول يوسبيوس — مؤرخ وعالم مسيحى معاصر للجميع — موضوع السخرية الدنسة من الوثنيين حتى فى دور التمثيل نفسها) [٢] .

وكان لابد والأمر كذلك أن يتدخل قسطنطين لحسم هذا الأمر ، ووضع حد له ، سيما وهو الحريص على مملكته أن لاينفلت زمامها من يده بسبب هذه الانقسامات الدينية التى قد تودى بالملك السياسى ، فأرسل

---

(١) المرجع السابق ص ١٣١

(٢) قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ ص ٣٩٣

خطابا شخصيا إلى كل من آريوس وألكسندر يدعوهما فيه إلى الاتفاق على توحيد الكلمة والعقيدة[1].

ولكن هذه الرسالة لم يكن لها أى أثر ، لأن نقطة الخلاف بينهما كانت فى مسألة اتفاق الإبن والآب فى مادة واحدة ، وهى مسألة لها شأن كبير من وجهة النظر السياسية والدينية فى نظر الكنيسة التى كانت ترى أنه إذا لم يكن المسيح إلها فان التصدع يبدأ فى التسرب إلى كيان العقيدة المسيحية ، وإذا استمر الخلاف فاشيا فى هذا الموضوع فإن الفوضى السائدة فى العقائد المسيحية آنذاك أكبر الظن أنها ستقضى على سلطان الكنيسة وعلى وحدتها ، وبالتالى يكون القضاء على قيمتها بوصفها عونا للدولة ، ولذلك رأى قسطنطين أن يقضى على كل ذلك بتوجيه دعوة لأول مجلس عام للكنيسة ، وهرع إليه الجميع تلبية للدعوة .

مجمع نيقية

عدد المجتمعين وما يحملون من نحل :

فى مايو من عام ٣٢٥م انعقد أول مجمع مسكونى فى بلدة نيقية ، بالقرب من نيقوميدية بآسيا الصغرى ، أسفر عن نتائج حولت مجرى الحياة العقيدية لدى الديانة المسيحية إلى اليوم ، فقد عقد ذلك المجمع ليبت الأمر فيما يجب أن يعتنقه المسيحيون فى مسيحهم . وفيما يجب أن يصبح عليه شكل الإله لطوائف المسيحية ، وعلى قسطنطين أن يعد المال اللازم لنفقات المجتمعين بعد تهيئة المكان بما يليق بمقام البطاركة والأساقفة والقساوسة والشمامسة ومن إليهم .

---

(١) أنظر فقرة (قسطنطين والمسيحية) .

ولقد لبى الدعوة جميع رجال الكنائس فى أنحاء المعمورة بالنسبة للدولة الرومانية ، وبلغ عددهم كما يقول ابن بطريق (ألفين وثمانية وأربعين أسقفا وكانوا مختلفى الآراء والأديان فمنهم من كان يقول : إن المسيح وأمه إلهان من دون الله وهم البربرانية ويسمون المريمتيين ، ومنهم من كان يقول : إن المسيح من الآب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار ، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية ، وهى مقالة سابليوس (بابليوس) وشعيته ، ومنهم من كان يقول : لم تحبل به مريم تسعة أشهر وإنما مر فى بطنها كما يمر الماء فى الميزاب ، لأن الكلمة دخلت فى أذنها وخرجت من حيث يخرج الولد من ساعتها وهى مقالة إليان وأشياعه ، ومنهم من كان يقول إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره ، وأن ابتداء الإبن من مريم ولأنه اصطفى ليكون مخلصا للجوهر الأنسى صحبته النعمة الإلهية ، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة ، ولذلك سمى ابن الله ، ويقول: إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد ويسمونه بثلاثة أسماء ، ولا يؤمنون بالكلمة ولا بروح القدس ، وهى مقالة بولس السمساطى بطريرك أنطاكية وأشياعه وهم البوليقانيون ، ومنهم من يقول : إنهم ثلاثة آلهة لم تزل صالح وطالح وعدل بينهما ، وهى مقالة مرقيون اللعين وأصحابه وزعموا أن مرقيون هو رئيس الحواريين وأنكروا بطرس ، ومنهم من كان يقول بتأليه المسيح وهى مقالة بولس الرسول ، ومقالة الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا ، فلما سمع قسطنطين الملك مقالاتهم عجب من هذا الاختلاف ، وأخلى لهم دارا يجتمعون فيها ، وأمرهم أن يتناظروا لينظر من منهم مع الدين الصحيح فيتبعه ، فاتفق منهم هؤلاء الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا على دين واحد ورأى واحد فناظروا باقى الأساقفة وناظروهم فأفلجوا عليهم حججهم وأظهروا الدين المستقيم ، وكان أيضا فى الأساقفة آخرون مختلفوا الآراء والأديان)[1] .

(١) أنظر تاريخ ابن بطريرك ج ١ ص ١٢٦

هل اتفق المجمع على رأى .. ؟ :

الذى يبدو مما ذكره ابن بطريق أنه لم يكن فى الإمكان حسم الخلاف على رأى يحصل على الأغلبية المطلقة كما كان مقررا لعدد الألفين والثمانية والأربعين أسقفا فلم يحصل اتفاق ، فرأى الملك ضغط هـــذا العدد إلى ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا ، هم على الأقل المتقاربون فى الآراء ، ولعله رأى أيضا أن هذا العدد يمكن أن يحصل منه على أغلبية يخرج منها برأى موحد، مع ملاحظة أنه جعل رئيس المجمع والمقدم فيه هو ألكسندر بطريرك الأسكندرية الذى يقف ضد فريق آريوس الموحدين وعدوهم .

المجلس الخاص وبدء التعدد :

يقول ابن بطريق : (ووضع الملك للثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا مجلسا خاصا عظيما ، وجلس فى وسطهم ، وأخذ خاتمه وسيفه وقضيبه فدفعه إليهم وقال لهم : قد سلطتكم اليوم على مملكتى لتصنعوا فيها ما ينبغى لكم أن تصنعوا مما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين، فباركوا على الملك وقلدوه سيفه ، وقالوا أظهر دين النصرانية وذب عنه)[1] .

القرارات :

قرر مجمع الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا قرارات هى كما جاءت فى كتبهم :

١ ـ الحرمان واللعنة على آريوس وأتباعه والنفى من البلاد وكذلك كل من يقول بمقالته .

٢ ـ وضع الأمانة (قانون الإيمان) ورأوا أن الابن مولود من

(١) المرجع السابق ص ١٢٧

الآب قبل كل الدهور، وأن الإبن من طبيعة الآب غير مخلوق، وهاك نص الأمانة أو قانون الإيمان كما وضع فى ذلك المجمع : (نؤمن بإله واحد ، وهو الآب ، القادر على كل شيء ، خالق الأشياء كلها ، ما ظهر منها ، وما بطن ، والسيد واحد ، هو المسيح ابن الله المولود .. غير مخلوق من نفس جوهر الآب ... وبأنه من أجلنا نحن البشر ومن أجل نجاتنا نزل وتجسد وصار إنسانا ، وتعذب ، وقام مرة ثانية فى اليوم الثالث ، وصعد إلى السماء وسيعود ليحاسب الأحياء والأموات)[1] .

٣ — قرروا أربعين كتابا فيها من السنن والشرائع منها ما يصلح للملك أن يكملها ويعمل بها ومنها ما يصلح للأساقفة أن يعملوا بما فيها .

٤ — هناك قرار أخير لكنه مرسوم إمبراطورى أصدره قسطنطين يقضى بإحراق كتب آريوس جميعها ، بل ويجعل إخفاء أى كتاب منها جريمة يعاقب عليها بالاعدام، بل وإحراق كل الكتب على إختلاف ألوانها، ثم أوصى الإمبراطور بجمع الأساقفة أن يتحدوا وألا ينهش بعضهم أجساد بعض ، وذلك بعد أن دعاهم إلى وليمة ملكية كانت تحية الوداع ، وكأنه حين أوصاهم بذلك كان يتنبأ بمستقبل الخلاف والشقاق المتجدد ، فإن التفكير فى بقاء مجتمع كهذا على عقيدة غير متنازع فيها لهو تفكير عقيم ، بل إننا نرى قسطنطين نفسه يغير رأيه بالنسبة له فيما بعد حيث انقلب إلى عقيدة آريوس .

هذا وقد قرروا قرارات أخرى ليس هذا البحث محل ذكرها .

---

(١) انظر قصة الحضارة ج ٣ م ٣ ص ٣٩٥ وقد عدل هذا القانون بالصيغة التى هو عليها الآن وذلك بقرار صدر فى عام ٣٦٢ م .

النتـائج :

١ — أصبح القول بألوهية المسيح هو عقيدة الملك، ويجب أن تسود عقيدته، حيث إنهم أذاعوا أن هذا القول هو رأى الغالبية العظمى بين رجال الدين، وهى التى يعبر عنها الكاثوليكيون أحيانا بعقيدة الملكية أو الملكانية، وهذه العقيدة قد جاء بيانها فى كتاب تاريخ الأمة القبطية، وهو: «أن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه، وأنه لم يوجد قبل أن يولد، وأنه وجد من لا شىء، أو من يقول إن الإبن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الأب، وكل من يؤمن أنه خلق أو من يقول إنه قابل للتغيير أو يعتريه ظل دوران [١] »

٢ — ثبتت الكنيسة وقدر لها البقاء، بعد أن زعزعتها ريح العواصف العقائدية، وتحددت هذه العقائد فى عقيدة موحدة ولو إلى حد ما، وكما حفظت قوة السلطان بقاء الكنيسة كذلك حفظ بقاء الكنيسة سلطان المـــلك.

٣ — أصبح هذا الاتفاق أساسا لاشتقاق اسم الكنيسة فى العصور الوسطى وهو الكنيسة الكاثوليكية.

٤ — قد حان الوقت لإحلال المسيحية محل الوثنية وجعلها المظهر الدينى والساعد القوى للإمبراطورية الرومانية.

٥ — أصبح على قسطنطين أن يحزم نفسه مع المسيحية برباط أشد قوة من ذى قبل وأن يؤكد تحالفه معها لتكون قوته الضاربة.

---

(١) انظر تاريخ المسيحية فى مصر، الحلقة الثانية، تأليف لجنة التوفيق القبطى.

٦ — الإيذان ببدء حضارة من لون جديد تقوم على قواعد الدين الجديد، ومؤسسة على أشلاء حضارة خافتة، وعقيدة باهتة، هى ثقافة الوثنية المحتضرة.

٧ — الإيذان ببدء العصور الوسطى. ويعتبر هذا إيذانا بانتهاء عهد الوثنية من الوجهة الرسمية وبداية العصور الوسطى، عصور انتصار الإيمان من الوجهة الرسمية أيضاً إن صح هذا التعبير.

دور قسطنطين فى اتخاذ القرارات

أغلب الظن أن قرارات مجمع نيقية لم تتسم بالنزاهة الكافية، فقد كان من الممكن أن ينعقد المجمع من غير حضور الإمبراطور فى سلطانه، وأن يترك للمجتمعين الحرية التامة فى تقرير الحق المشترك بينهم، ولكن يبدو أنه رأى فى حضوره قطع رأس الخلاف بأى وسيلة يراها، ولعله أحس بتماسك كل شيعة بما اعتقدت، ولذلك حين رأى شقة الخلاف متباعدة استعمل حيلة الأريب التى تحقق له رغبته. فلعله رأى أن عدد الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً متقاربون فى الرأى والإتجاه، ويمكن إزالة ما بينهم من فوارق قد تبدو يسيرة، فيتوحدون بتأثيره الخاص، ومن هنا فقد عقد لهم مجلساً خاصاً غير مكترث بالأغلبية الساحقة البالغ عددها ثلاثين وسبعمائة وألفا، والذين كانوا حاضرين فى المجمع الأول، وكان من تأثيره عليهم أن دفع إليهم بسيفه وقضيبه وخاتمه إشارة لهم إلى أن قوة السلطان تخدمهم، وعظمة الملك معهم وفى جانبهم، أو كما رأى أن إجماع سلطان الكنيسة الدنيوى مع الكهنوت الدينى خير نظام يوافق سلطة الملك التى يبتغيها، فأراد أن يعيرهم ذلك التنظيم البارع وقتا ما كى يصل إلى مبتغاه. وهو نوع من الإغراء لهم ليسيروا على ما رآه، خاصة ونحن نراه يناظر بعض المجتمعين، وبالطبع له رأى يحبـــذه فى مناقشته كمناظر، أو لعله

فى الوقت نفسه أراد بإبرازه السيف والقضيب بالإضافة إلى ماسبق عن الإغراء... الإشارة إلى استعمال القوة والعنف لكل المخالفين لما يراه هذا المجلس ، مما حمل الجميع على الموافقة على القول بألوهية المسيح .

والخلاصة :

أن موقف قسطنطين كان موقف المرجح لما يراه مألوفا له من المذاهب للإعتبارات السابقة ، محبذا رأى المنادين بتأليه المسيح ، ولعله اعتاض عن عبادته هو بعبادة المسيح كصاحب نعمة من الله ، وفى كل عبادة للبشر والأبطال . فالمسيح من غير شك أكثر بطولة من قيصر. أما اتباعه للموحدين فثقيل عليه لما فيه من تكليف بشريعة التوراة وعقائدها ،وفى التكليف مشقة لم يتعودها فى وثنية القديمة ، وفى تأليه المسيح انتقال من وثنية إلى وثنية

صدى قرارات مجمع نيقية :

لقد قوبلت قرارات مجمع نيقية بتأليه المسيح باتجاهين متباينين :

أولهما : من جانب المعددين والمؤلهين للبشر عامة من وثنيين وغيرهم وهؤلاء قد أرضاهم قراراته وارتاحت لها غالبية فرقهم .

وثانيهما : من جانب الموحدين من أنصار آريوس ، وهؤلاء قابلوا قرارات المجمع وخاصة القول بتأليه المسيح بصمود قوى معارض ، والذى يتأمل المجتمع المسيحى آنذاك فى استساغته لفكرة تأليه المسيح لا يجد خارجاً عليها إلا أتباع آريوس الموحدين ، مما يعطينا دليلا شبه قاطع بأن المتدينين بدين التوحيد هم كثرة المجتمع المسيحى على الإطلاق ، وإلا فأين صدى آراء بقية الفرق والشيع ؟ ، إن التاريخ لا يسمعنا لهم همساً ولا يحسنا بهم ركزاً ، ويحق لنا أن نتساءل... لماذا لم يعلن المجلس قراراته

بعدده الأول حسيما ظهر قبل المجلس الخاص ؟ ولماذا وضع طلاء التمويه على آراء الأعضاء الثلاثين والسبعمائة والألف. وهم الكثرة الغالبة بالنسبة لثمانية عشر وثلاثمائة ؟ فلماذا لم يبين لنا رأيهم الذى كانوا يدينون به ... ؟ هل كانوا يميلون إلى التوحيد متابعين لآريوس فى مقالته ، ولا يقولون بتأليه المسيح ، أو أنهم كانوا غالبية أعضاء المجلس النسبية ، وذلك بالنسبة لبقية النحل الأخرى .. ؟ .

ولعلنا نستضىء فى ذلك بقول الشيخ أبى زهرة : (إن الرواة يقولون إن آريوس لما اجتمع بهم وألقى بدعوته ونحلته إليهم انضم إلى آرائه أكثر من سبعمائة أسقف ، وذلك العدد هو أكبر عدد نالته نحلة من تلك النحل المختلفة ، فلو كانت النصرة بالكثرة النسبية لكان الواجب إذن أن يكون الغلب لآريوس الذى احتج بما تحت أيديهم من أناجيل ، فلما عارضوه بنصوص أخرى تدل على ألوهية المسيح ادعى تحريفها)[1] .

ولذلك لم يضع مجمع نيقية حـــداً للنقاش الذى احتدم أواره بين أثناسيون وآريوس، صحيح قد كان هناك مرحبون بفكرة التأليه المسيحى، وهم عباد الوثن، الذين وجدوا فى الدين المسيحى على النمط النيقاوى الجديد متنفسا لما ألفوه وشبوا عليه ، فأسرع هؤلاء إلى الرضا بقرار التأليه ، بيد أنه لم يمنع ذلك من أن يحتال الآريوسيون من أجل ظهور عقيدتهم صامدين فى الدعوة إليها مجاهرين بها رغم ما اتخذ فى نيقية، وإليك مثلا على ذلك :

فقد عقد اجتماع فى (صور) بمناسبة تقديس الأماكن المقدسة التى بنيت كنائس ، وحضر الإجتماع جماعة من البطاركة والأساقفة وحشد من الناس ، ولم يكن فى هذا الاجتماع حيطة لإبعاد المخالفين لعقيدة نيقية، وكان فى المجلس رجل يقال له «أومانيوس» وجمـــاعة معه يرون رأى

---

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٤٣ طبعة ثالثة .

آريوس ، فأوعز «أوسابيوس» بطريرك القسطنطينية إلى «أومانيوس» ليسأل «أثناسيوس» ، وكان أوسابيوس وإن رجع إلى الملك وأظهر أنه مخالف لآريوس إلا أنه كان يرى رأيه ويقول مقالته ، فشرح أومانيوس عقيدة آريوس وقال لأثناسيوس : إن مجمع الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا تعدوا على آريوس وحرموه ظلما وعدوانا ، ولما أصر أثناستوس على معارضته لرأى آريوس انقض عليه المجتمعون وضربوه حتى كاد يقتل ، ولم ينقذه إلا ابن أخت الملك الذى حضر نائباً عنه)[1] .

وهنا تبدوا الملاحظة بأن المجلس كان آريوسيا بالإجماع ، فلم يكن هناك من ينضم إلى أثناسيوس بطريرك الأسكندرية ، بل كان وحيداً بين الموحدين ، فهذا بعض الصدى الذى قوبل رأى مجمع نيقية .

على أن قسطنطين لم يستنكف بعد أن اتخذ قرار المجمع وطرد آريوس من البلاد أن يدعوه إلى اجتماع شخصى عام ٣٣١ م ، وحين اجتمع به لم يجد فى مقالته ما يمكن أن يعد خروجاً على الدين ، وأوصى بأن ترد إلى آريوس وأتباعه كنائسهم ، واحتج أثناسيوس على ذلك فاجتمع فى صور مجلس من أساقفة الشرق ، وقرر خلعه من كرسى الأسكندرية الدينى سنة ٣٣٥ م وظل طريداً فى غالة — فرنسا — وقد زار آريوس قسطنطين مرة أخرى ، ... وآمن قسطنطين بأقواله ، وأمر ألكندر بطريرك القسطنطينية أن يقبله فى العشاء الربانى .

وفى هذا يقص سقراط المؤرخ الكنسى هذه القصة الحزينة المؤلمة (قصة موت آريوس الذى عاجلته منيته فى يوم السبت وكان عازما على الاجتماع بالمصلين فى اليوم التالى)[2] وملامح القصص توحى بأنه مات مسموماً ...

---

(١) انظر ابن بطريق ج ١ ص ١٣١

(٢) قصة الحضارة ج ٤ م ١ ص ١٩

ولقد كان مذهب آريوس أقرب إلى العقل والمنطق ، فقد زين أتباع آريوس عقيدتهم لقسطنطين ابن قسطنطين ، وبينوا له أن أصحاب مجمع نيقية كانوا مخطئين — والعقل دائماً ينعكس عليه ضوء الحق وإن خيمت عليه سحب الباطل فأظلته حينا — فهم قسطنطين بقبول رأى آريوس ،ولكن يبدو أن أحد البطاركة اشتم رائحة ذلك وأحس به، فقال إنه رأى صليبا غطى وجه الشمس أعظم من الذى كان على عهد أبيه ، وقال له أرجو أن تلعن أصحاب آريوس كما قرر مجمع نيقية، فرجع عن رأى أتباع آريوس[1] وصاحب قصة الحضارة يقول : بأن قسطنطيوس بن قسطنطين اعتنق مذهب آريوس ودافع عنه (وعنى قسطنطين بشئون الدين عناية فائقة أكثر جدية من عناية أبيه فشرع يبحث بنفسه بنوة المسيح ، وخرج من هذا البحث باعتناق مذهب آريوس ، وشعر بأن واجبه الأدبى يحتم عليه أن يعرض هذه الآراء على جميع العالم المسيحى ، وطرد أثناسيوس من كرسى الأسكندرية مرة أخرى سنة ٣٣٩ م ، وكان قد عاد إليه بعد موت قسطنطين ، ودعيت مجالس الكنائس تحت إشراف الإمبراطور الجديد، وأيدت تشابه المسيح والآب دون اتحادهما فى المادة، وأخرج الكهنة الذين استمسكوا بعقائد مجمع نيقية من كنائسهم ، وكان الغوغاء فى بعض الأحيان هم الذين يخرجونهم منها ، وأتى على المسيحية نصف قرن من الزمان لاح فيه أنها ستؤمن بالتوحيد ، وتتخلى عن ألوهية المسيح ، وكان أثناسيوس فى هذه الأيام العصيبة يقول عن نفسه إنه يقف وحده فى وجه العالم كله ، فقد كانت جميع قوى الدولة تقاومه ، بل إن أتباع كنيسة الأسكندرية خرجوا عليه ، واضطر فى خمس مرات مختلفة أن يفر من كرسية (٣٢٣ — ٣٧٣) صابرا يكافح ويدافع عن عقيدته كما حددها مجمع نيقية بزعامته ، مستعينا على ذلك بمهارة الدبلوماسى وعنف

---

(١) راجع ابن بطريق جـ١ ص١٣٩ ولاشك أن مقالته قريبة مما فيها مرية

الرجل البليغ، ولم تلن له قناة حتى بعد أن ضعف البابا «ليبريوس» واستسلم، وإليه يرجع معظم الفضل فى استمساك الكنيسة بعقيدة التثليث ...[1]).

هذا، وينبغى أن يستقر فى الذهن أن هناك عدداً لا يستهان به من البطاركة الذين كانوا على دين آريوس اعتلوا كراسى بلاد مختلفة، وسادوا أزمانا طويلة، وظل كثير من الأساقفة — كانوا هم الكثرة الغالبة فى الشرق — يناصرون آريوس سرا أو جهرا، على معنى أنهم كانوا يرون أن المسيح ابن الله، ولكنه لا يشترك مع الآب فى مادته، ولا فى خلوده، ويمكن معرفة أسماء هؤلاء وسنى رئاستهم من التاريخ المسيحى فى كتب المسيحيين أنفسهم.

وخلاصة المقال فى هذه الفقرة من الحديث يظهر أن قرار مجمع نيقية المسيحى إنما كان نزعة واهنة قوتها، وحمتها يد السلطان الملكى والكنسى، وأثارت فى الوقت نفسه مكامن التوحيد المستقر فى أعماق الموحدين الذين ضمهم لواء آريوس، ولو كان لرأى آريوس قوة حامية مثل ما كان لمخالفيه لساد مذهبه، وانتصرت المسيحية الحقة الأولى التى جاء بها المسيح — عليه السلام — كما فى إشارة قصة الحضارة السابقة، ويمكن القول بأن التوحيد كان هو الدين السائد الذى ظل أتباعه يدعون إليه كلما واتتهم الظروف.

ملاحظات على ما أسفر عنه المجمع :

هناك ملاحظات على ما أسفر عنه المجمع أهمها :

١ — إن المجمع الخاص المقدر عدده بثلاثمائة وثمانية عشر أسقفا

(١) قصة الحضارة جـ ٤ م ١ ص ٢٠

لم يتفق أعضاؤه على عقيدة تأليه المسيح بالإجماع كما قال ابن بطريق مامعناه: (وكان الأساقفة الحاضرون مختلفين فى الآراء والأديان)[1] ويتبعه فى ذلك ول ديورانت بأنه كان هناك مخالفون لهم رأى آخر لعله رأى التوحيد فلم يوقعوا على القرار، أى القرار الذى اتخذه المجمع الخاص، ولعل هذا يؤكد الضغط السياسى الذى ساد المجمع حتى أصدر قراراته من غير اقتناع من الحاضرين.

٢ — من أين أتى الموحدون بعقيدتهم؟ هل هى نحلة فردية ونزوة أنانية؟. لو كانت كذلك لخمدت جذوتها أمام اضطهاد الملك والكنيسة، أو على الأقل لماتت بموت صاحبها، وتفرقت جماعته من بعده، ولماذا لم تمت هذه العقيدة كما ماتت سائر النحل الأخرى تحت نير التعسف والاضطهاد، ولكنه يبدو أن العكس هو الصحيح، فلقد ثبتت العقيدة الآريوسية، وعمقت جذورها، وكثر أتباعها، لأنها عقيدة السماء الحقة التى أتى بها المسيح، والتى ألفها الناس الباحثون عن الدين الحق، أما عقيدة التأليه السلطانية فقد ظلت مترنحة تساندها يد السلطان من التمايل الذى ألم بها، فقد ولدت ناقصة التكوين غير تامة الخلق، ولذلك لا نعجب إذا رأينا قسطنطين نفسه يرجع عن عقيدة مجمع نيقية ويعتنق عقيدة التوحيد الآريوسية، ومن بعده ابنه كما مر فى الفقرة السابقة.

٣ — يكفى تزييف ما أسفر عنه مجمع نيقية من تأليه المسيح أنها أصبحت تعرف بأنها عقيدة الملك أو عقيدة المجمع، ويدل هذا على أنه دين خاص ملكى طبقى. فلم تكن هى عقيدة السماء التى يجب أن يدين بها كل الناس على اختلاف أوصافهم وطبقاتهم، فالدين للديان والناس جميعاً رعاياه، ويؤكد ذلك ابن بطريق فينصف الحق فى غفلة من نفسه حين يقرر أن

---

(١) تاريخ ابن بطريق ج ١ ص ١٢٦

مقالة الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفا والتي تقرر ألوهية المسيح . إنما هي مقالة بولس الرسول وعقيدته الخاصة[1] ، ولم يقل إنها عقيدة المسيح .

أو عقيدة الخالق في علياته ، وبذلك يكون الصبح قد وضح لذي عينين ، خاصة إذا عرف من هو بولس العدو الصديق الدخيل[2] .

٤ — في الإمكان أن نتساءل : لماذا احتضن قسطنطين أصحاب القول بألوهية المسيح ؟ ولماذا لم يرق في نظره مذهب آخر فاحتضنه من مذاهب المجتمعين وما أكثرها ؟ .

الملاحظ أن الجواب واضح ،وخلاصته أن قسطنطين احتضن القائلين بألوهية المسيح نظراً لأنها أقرب إلى وثنيته التي ما زال قلبه يخفق بالولاء لها ، ويتبنى كل فكرة تنصرها على منافسيها ، سيما وأنه وجد ركيزته في رجال الدين أنفسهم الذين تشربوا ثقافة المدرسة الأسكندرية ، والتي توغلت في ثالوث الأفلاطونية الحديثة ، لأننا لم نجد من يتبنى فكرة تأليه المسيح إلا كنيسة الأسكندرية فقط لا غير . فما بالنا في عقيدة تولى أمرها وتعاون على إظهارها وثني معدد مثلث ، لابد أن تنحدر قطعاً إلى أوهام التعدد والتثليث ، فلا عجب إذا جنح إلى التثليث ذلك الملك الذي يقول عنه (ول ديورانت) المسيحي : (ويبدو أن عقيدته المسيحية التي كانت بدايتها خطة سياسية قد استحالت بالتدريج إلى إيمان صحيح استمسك به بإخلاص ...)[3] وليس يهمنا متى استحالت إلى إيمان صحيح — فهذا مرت الإشارة إليه في فقرة الحديث على قسطنطين — ولكن المهم أنه عبث بهاحين كانت البداية السياسية . إذ كان وقت المجمع منتصرا حديثا ، ولتأكيد ذلك تراجع رسالته الشخصية السابقة إلى كل من آريوس وألكسندر .

---

(١) ابن بطريق جـ١ ص ١٢٦ (٢) إقرأ كتابنا : بولس والمسيحية

(٣) قصة الحضارة جـ ٢ م ٣ ص ٤٠٢

٥ — هناك قرار بمرسوم ملكى كله تعسف وبعد عن اللياقة ذاك هو أمر قسطنطين بتحريق كتب آريوس ، فليته ترك هذا التراث وأخرج لنا من تراث ملته وفكر كتابه ما يقرع الحجة بالحجة ، ويحكم العقل بالبطلان على مايخرجه أى الفريقين ، أو بالصحة والبقاء والخلود ، ثم إذا كانت أفكار آريوس وأصحابه لا تتفق والعقيدة السليمة فبطلانها لابد ظاهر ، فلماذا يخاف منها ما دامت تحمل عناصر زيفها وتفاهتها ، إن الأمر بتحريق هذه الكتب ليعلن فى صراحة ووضوح أنها كانت كتبا قيمة ، تحمل أفكاراً طيبة . وتنطوى على عقيدة صحيحة ، خيف أن تنتصر ، لسهولة استساغتها ، ومرونة تعاليمها ، وبساطة تصورها ، وأنها تحمل أدلة قوتها ، فأطفأ أنوارها بسدف من ظلام الشرك والوثنية . علما بأنه كانت هناك كتب حرمها المجمع غير كتب آريوس ، ثم أرجعتها المجامع الأخرى. ولكن على الرغم من كل ذلك فقد كان التوحيد يحظى بين الجمهور بأنصار وأغلبية ساحقة تفوق حد التصور ، بما قد لمسناه فى مجمع نيقية فى كثرته الغالبة الممثلة للشعب ، وفى مجمع صور بالإجماع الشامل عدا بطريك الأسكندرية بمفرده ، ولكنه على الرغم من كثرة الموحدين فقد تحايل أصحاب الألوهية ليغالبوا أعداءهم ، فأخذوا يعينون الأساقفة من أنصارهم عباد المسيح ، وكبتوا الحق بكبت أهله وتم لهم ما أرادوا .

٦ — يلاحظ أنه لم يأت للروح القدس بذكر فى أعمال المجمع ولذلك لم يذكر فى الأمانة التى وضعوها (قانون الإيمان) وإلى زمن هذا المجمع لم تتقرر ألوهية الروح القدس ، كما يلاحظ أن تثبيت القول بتأليه المسيح لم يبدأ إلا بعد مضى ثلاثة قرون وربع قرن من رفع المسيح ، ومنه كانت المسيرة إلى عقيدة التثليث .

٧ — كان من الممكن أن يتغـــير وضع مجمع نيقية ، فينكر القول بألوهية المسيح ، ويقضى على هذه النباتات الخبيثة التى طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، كما قضى عليها المسيح من قبل وأصحابه ، وكما قضى المجمع على

سائر المذاهب والنحل الأخرى ، كان فى الإمكان أيضا أن يقضى على هذه النحلة ويتبنى فكرة التوحيد فيقررها رسمية واجبة الاعتقاد ، فيكون بذلك قد حق الحق وأبطل ، ولكن المجمع كان على العكس من ذلك ، فقد تبنى فكرة اللاهوت والتعدد بالسق والرعاية ، حتى أنبتت وبسق عودها ، وآتت ثمار التثليث بعد وقت ليس بالبعيد وغمط حق التوحيد المقدس .

لقد كانت طفرة بالدين المسيحى أن يصبح المسيح إلها ويدعى إبنا لله ، لقد نبذ ذلك القول بالمسيح إلى خارج القواعـــد والأصول الأساسية لحقيقة المسيح والمسيحية ، وبدأ طريقه إلى التعدد . ويعلم الله متى يستقر به ذلك التعدد فى ذلك الوقت ، هل يظل ثابتا على هذا القدر فيكون الله أبا وإبنا كما سموهما ، فلا يزاد عليهما بعد ذلك ؟ إن ذلك جائز . أو يزاد له آخر فيصير ثلاثة: آب وابن وشيء آخر يجود الزمان به والمجمع؟ هذا جائز أيضا ، وبذوره كامنة فى ثنايا الفرق المثلثة وارثة الثقافات الوثنية القديمة والتى يموج بها المجتمع المسيحى آنذاك ، وهى مستعدة أن تخرج إلى الوجود إذا ما تعهدها المريدون ، ثم إنه قد يصير العدد فى الإله أكثر من ذلك ، فهناك آلهة الرومان الكثيرة إلى غير حد ، حتى كانت تتكون منها أزواج وزوجات وبنين ، على كل لا نستعجل الزمان ، فنحن فى انتظار ما تجود به الأفكار ومن ورائها تسلط السلطان ، وقد يمكننا التنبؤ بنهاية العدد الذى سوف يقف عنده كنه الإله إذا ما ظل المتبنى لفكرة التعدد أساقفة الأسكندرية وبطاركتها ، ومعنى ذلك أنهم عشاق الثالوث الأفلاطونى الذى تدرسه الأسكندرانية الفلسفية ، والمدرسة الدينية الوثنية التى يتكون ثالوثها من : زوسترپس وإزيس والإبن حورس أو حوارس .

متى بدأ الاتجاه إلى تأليه المسيح عند المسيحيين

لعل القول بألوهية المسيح قد وجدت بذوره الأولى فى حياة المسيح نفسه — عليه السلام — فإن المسيحيين بل عامة الناس كانوا يعتقدون ألوهية كل من أجرى الله معجزة على يديه ، ولعل مما يرشح هذا الرأى أن المسيح فى زمن رسالته قد اعتراه شك فى أن مجتمع الأتباع من غير الحواريين قد شاع بينهم الاعتقاد فى كون المسيح أكثر من إنسان ، فأراد أن يختبر إيمان أصحابه فى طبيعته فقال لهم يوما : (وأنتم من تقولون أنى أنا ؟ فأجاب بطرس وقال له أنت المسيح ..)[1] .

فلذلك وعندما اطمأن إلى رسوخ معرفة حقيقته الإنسانية لدى أصحابه من غير إلهية فيه رضى جواب بطرس وصيه ، ورئيس الحواريين، وصدقه فى جوابه . وإذا كان فى الإنجيل مايشعر بشطط بعض العقول فى حقيقته، وافتتانهم به ، لما رأوا ما يجرى على يديه من المعجزات والقوى ، فقد جاء فى رسالة أعمال الرسل ما يؤكد تلك النزعة المغالية ، وهى أن الناس كانوا يعتقدون ألوهية من تجرى على يديه خوارق العادات . فجاء فى هذه الرسالة (.. فالجموع لما رأوا ما فعله بولس وبصحبته برنابا من المعجزات رفعوا أصواتهم قائلين إن الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا .. فلما سمع الرسولان برنابا وبولس مزقا ثيابهما واندفعا إلى الجمع صارخين وقائلين : أيها الرجال لماذا تفعلون هذا ؟ نحن أيضا بشر تحت آلام مثلكم نبشركم أن ترجعوا عن هذه الأباطيل إلى الإله الحى الذى خلق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها الذى فى الأجيال الماضية ترك جميع الأمم يسلكون فى طرقهم مع أنه لم يترك نفسه بلا شاهد وهو يفعل خيرا يعطينا من السماء أمطارا وأزمنة مثمرة ويملأ قلوبنا طعاما وسرورا ..)[2] .

---

(١) مرقس ٨ : ٢٩ .　　(٢) أع ١٤ : ١١ — ١٧ .

ثم شاعت فكرة تأليه المسيح بعد رفعه بين الفرق المسيحية التي أخذت كل منها تعطى المسيح من فكرها السقيم شكلا يوائم تصوراتها المهوشة.

وهكذا نرى أنه قد بذرت البذور الأولى لهـــذه الفكرة فى حياة المسيح، ولكنه لم يشأ لها أن تخرج إلى الوجود، لأنه عليه السلام قد كبتها ولم يمدها بمقومات الحياة، فأخذت فى الإنزواء تغذى جذورها، وتترقب الفرص المواتية لها، وتطل إلى البروز تبحث عن متعهد لها ينميها بعد المسيح، وقد حظيت بالمريدين من بعده، ونجحت محاولة ألوهيته التى بدأت فى حياته من المغالين فيه.

إكتمال الثالوث المسيحى

يلاحظ مما سبق أن مجمع نيقية قصر البحث على المسيح ومنزلته من الآب، ولم يطرح للمناقشة عقيدتهم فى الروح القدس، بل الظاهر أن هذه العقيدة لم تدر بخلد الأعضاء على وجه جدى، حتى ظهر فى عام ٣٨١ م رجل يدعى «مقدونيوس» يقول ويعلم: بأن روح القدس مخلوق مصنوع وليس بإله على الإطلاق، وقد تقبل الناس مقالته لأنه يبدو أن ألوهية روح القدس لم تصبح أمرا ذا بال فى نظر المسيحيين آنذاك بعد ما حصلو على ما روى ظمأهم من عبادة الأشخاص ممثلا فى المسيح الذى ألهوه فى مجمع نيقية.

ولكن أرباب الثالوث الأسكندرى وقفوا بالمرصاد لمن لا يقول بألوهيته، فقد وجدوا فى ألوهية الروح القدس نشدان ضالتهم، فهذا ثالث الثالوث الذى ينفع غلة بطاركة الأسكندرية وقسسها، ويملأ الفراغ المستكن فى الإله الذى لم يتقرر من ثالوثه إلى الآن سوى شعبتين منه، الله الآب، والمسيح الإبن، فأخذوا يدافعون عن ألوهية الروح القدس، متصدين لمقالة مقدونيوس، مثبتين أن روح القدس إله قديم، وأوعزوا كما هو شأنهم إلى السلطان أن يعمل مجمعا من الأساقفة والبطاركة

يقرر ألوهيته ، ويلعن مقدونيوس ومن يقول مقالته ، وزينوا للملك ذلك المسلك ، وفى النهاية قرر الملك أن يعقد المجمع ، وكان عقده فى القسطنطينية فى عام ٣٨١ م من خمسين ومائة من الأساقفة ، وقد لعب فيه بطريرك الاسكندرية دوراً خطيرا فى الدعوة والتوصية بوجوب القول بألوهية الروح القدس ، وتبنى الفكرة وأوحى إلى زملائه بذلك ، وإن الشياطين ليوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، وكان هناك فى ذلك المجمع من يقول إن الآب والإبن والروح القدس وجه واحد . ومنهم من كان يقول : إن جسد المسيح بلا عقل ، وقرر المجمع ألوهية الروح القدس كما أراده الكرسى الاسكندرى ، على الرغم من المعارضين والمناوئين ، يقول ابن بطريق حاكياً آخر الظروف فى تثبيت الإله ذى الثالوث «... كان هناك مجمع فى القسطنطينية لينظروا فى مقالة مقدونيوس وكانت مقالته : «أن روح القدس ليس بإله ولكنه مخلوق مصنوع «فقال تيموثاوس بطريرك الاسكندرية : ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله ، وليس روح الله شيئاً غير حياته ، فإذا قلنا إن روح الله مخلوق ، فقد قلنا إن روح الله مخلوق وإذا قلنا إن روح الله مخلوق فقد قلنا إن حياته مخلوقة ، وإذا قلنا إن حياته مخلوقة ، فقد زعمنا أنه غير حى ، وإذا زعمنا أنه غير حى فقد كفرنا به ، ومن كفر به فقد وجب عليه اللعن . واتفقوا على لعن مقدونيوس فلعنوه هو وأشياعه ولعنوا البطاركة الذين كانوا بعده ويقولون بمقالته ، ولعنوا سابليوس أسقف لوبيه وأشياعه ، لأنه كان يقول إن الآب والإبن والروح القدس وجه واحد ، ولعنوا أبوليناريوس وأشياعه لأنه كان يقول : إن جسد سيدنا المسيح بلا عقل ، وأثبتوا أن روح القدس خالق ، غير مخلوق ، إله حق ، من طبيعة الآب والإبن جوهر واحد ، وطبيعة واحدة وزادوا فى الأمانة التى وضعها الثلاثمائة والثمانية عشر أسقفاً الذين اجتمعوا فى نيقية «وروح القدس الرب المحى المنبثق من الآب الذى هو مع الآب والإبن مسجود له وممجد . .) وأثبتوا أن الآب والإبن وروح القدس ثلاثة أقانيم ، وثلاثة وجوه ، وثلاث خواص

وحدية فى تثليث ، وتثليث فى وحدية ، كيان واحد فى ثلاثة أقانيم ، إله واحد ، جوهر واحد طبيعة واحدة ، وأثبتوا أن جسد المسيح بنفس عاقلة ناطقة)[١] .

وهنا نقول كما قال الشيخ أبو زهره فى مناقشة قولهم بألوهية الروح القدس بأن المقدمات التى بنيت عليها القضية غير مسلمة ، وهذا ابن أبى شاكر يأتينا بأنباء أخرى عن موقف أبوليناريوس ، وداعية آخر يدعى صبليوس فيقول : وفى عام ٥٨٨٩ من بدء العالم وفى عهد الملك (ثاوذاسيوس الكبير الملك المؤمن فى أول سنة من ملكه، كان المجمع الثانى بالقسطنطينية حضره مائة وخمسون أسقفا ولعنوا مقدنيوس عدو روح القدس وأبوليناريوس ، الذى كان يقول آب إبن روح القــــدس . يجعل الجوهر الإلهى أقنوما واحدا ويترك الواو واحرموا صبليوس الذى كان يقول : عظيم وأعظم منه وأفضل عظما ، يسمى الروح القدس عظيما والإبن أعظم منه والآب أفضل عظما ...)[٢]

وبما تقرر فى مجمع القسطنطينية الأول اكتمل الثالوث الأفلاطونى الأسكندرى الذى تحرص الأسكندرية الفلسفية على تعليمه وتقريره ، وأصبح إله المسيحين من ذلك الحين ذا ثلاث شعب ، لاظليل ولا يغنى من اللهب .

هذا وإن القول بألوهية الروح القدس ليدعو إلى الملاحظة ، فالذى يتراءى للعيان هو أن عقيدة المسيحية الإلهية أخذت تخرج على الناس ركاما متقطعاً متدرجا ، فتقرر منها أقنومها الأول ، وهو الله الآب منذ عهد المسيح ، وأخذت فئات المسيحية تتصوره حسبما يعن لها ، وكان من

(١) تاريخ ابن بطريق جـ ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ ، مطبعة الآباء بيروت

(٢) تاريخ ابن أبى شاكر المعروف بابن الراهب ص ٤٧ ، ٤٨

هذه التصورات أن تغالت بعض الفرق منها فى تقدير شخص المسيح ، فمن خلال تصورها للإله لم يضنوا على المسيح بألوهية. ولكن مع الإله الآب أما كيف ؟ فهذا ميدان الصراع

ثم بدا لهذا البعض عدم الرضا بالإله إلا مثلثا، فأخذ يتلمس الجوانب ليكمل الثالوث فاعتقده فى الروح القدس فأصبح الإله مثلثا ... وليت شعرى ماحكم الدين المسيحى فيمن مات قبل أن يدرك اكتمال الثالوث الإلهى، أى قبل أن تعرف ألوهية الروح القدس . أكبر الظن أن المسيحيين منذ كان المسيح حتى عام ٣٨١ م كانوا على ضلال فى العقيده غير مهتدين إلى الحقيقة الإلهية . فقد كانوا غير مسيحيين لأنه لم ينزاح الستار بعد عن ألوهية الروح القدس .

على أننا لم نر أو نسمع بأن المسيح قال بأن للروح القدس إله واجب العبادة ، وإذا كان قد قالها فعلام الخلاف الذى ملأ المشارق والمغارب حول ألوهية الروح وألوهية نفسه ، فإن يكن قد دعا إلى ألوهيتها ، كان الواجب ألا يحصل الخلاف فى ذلك ، وإلا يكون قد دعا إلى ذلك فالقول به هرطقة وكفر بالمسيح ، وبدعوته وبالله عز وجل ،

وإذا قال قائل بأنه قال بالألوهية بالتلميح وأشار بالتلويح ، فأقول :

إن الناس لا يكلفون إلا بما هـــو صريح وواضح ، وصحيح ، خاصة فيما يتعلق بأمور الاعتقاد فى البارى سبحانه . أما التمحل فى ذلك فهو عين الفسوق والضلال ، وقول على المسيح ببهتان وإثم وضلال :(ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ليضل الناس بغير علم).

لقد ازداد الإله ظلاما ، وأصبح تصوره عسير الفهم . بعيد الإدراك مجهول المعرفة بعد قولهم فى مجمع القسطنطينية بأن الله ثلاثة فى واحد وواحد فى ثلاثة .

الفصل الثالث

المسيح بين الأقنوم الإلهى والطبيعة الإنسانية

ما أن اكتمل الثالوث المسيحى بتقرير ألوهية الروح القدس حتى انهارت أركان العقيدة بين المتفقين على ألوهية المسيح أنفسهم، وتشعبت الاتجاهات حول طبيعته، وأخذ كل اتجاه يكون فرقة لها رأيها ويدفعها إليه يقينها وحماسها وتدافع عنه بمنطقها، ومن هذه الفرق أيضاً من تؤيده قوة الملك والسلطان، ومنهم من تعرض لجبروت ذلك السلطان وقسوة النفى والتعذيب والحرمان.. وأياً ما كان فإن مجتمع الثالوث ظل مترنحاً بعد ألوهية المسيح فى مجمعى نيقية والقسطنطينية الأول، وهو يعيد النظر فى ذلك الإله، فقد كان الخلاف من قبل بين القائلين بألوهيته والمنكرين لها، أما اليوم فإن المتفقين على الألوهية ينظرون فيرون أن المسيح كان إنسانا بكل معالمه ومشخصاته إلى أن مات أو رفع، وطالما أقرع مسامعهم بأنه ابن إنسان يزهو فى ثوب الافتخار بنعمة الله المباركة عليه، وأنه كان يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، يركب الحمار وينام ويتعلم من العلماء، ويعظ فى المجامع ويبشر بقرب ملكوت الله للتائبين والآيبين، ثم أنه خضع للقدر والآلات والموت فمات ودفن فى قبر ولف فى الأكفان . . كل ذلك شغلت به حياة المسيح عيسى ابن مريم، وفى الوقت نفسه ينظرون إليه على أنه الله، بيد أن الإله لا يأكل ولا يشرب، ولا ينام ولا يتصف بما يتصف به الإنسان ولا يلحقه بما يشعر بحاجة أو نقصان... ثم بعد كل ذلك كيف يكون الإنسان إلها ؟ .

إن ذلك يستدعى إعادة النظر حتماً فى قضية الألوهية، أو على الأقل يستدعى الأمر التوفيق بين طبيعة المسيح كإنسان وطبيعته كأقنوم فى الله، وبدأت

الأفكار تنطلق لتمحص البحث بدءاً من هذه النقطة ، فهل يمكن أن تتفق طبيعة الأقنوم الإلهى مع طبيعة الإنسان بأن تحل فيه أو تتحد الطبيعتان ثم تسيران جنباً إلى جنب ، ؟ . ثم متى الاتحاد وكيف ؟ . أو أن طبيعة الأقنوم الإلهى تستحيل بالذوبان فى طبيعة الإنسان حيث إن الظاهر لهم هو الإنسان وابن الإنسان فى حقيقته ؟ ثم هل يصح أن تلد المرأة ربها وإلهها إن صح القول بالاتحاد ؟ كل هذه الأفكار خلقها القول بألوهية المسيح ، ولا بد أن يكون ذلك نهاية القول فى رجل أصبح الناس فيه شركاء متشاكسون ، وعلى هذه الحافة المتميعة ذهب كل من المرتابين مذهبا ، وتحولت مذاهبهم إلى فرق ، وتحاكم عباد المسيح إلى المجامع كما كانت من قبل حكما بينهم وبين مخالفيهم فى ألوهيته ، وأذكر هنا أهم الفرق فى ذلك الوقت المبكر من نشأة المسيحية وتفنيها وأسباب نشأتها فيما يلى :

النسطورية :

إن أول من قرع باب الخلاف فى ذلك هو نسطور السورى بطريرك القسطنطينية، وقد سمى أتباعه من بعده نسطوريين نسبة إليه ، وكان رأيه : أن المسيح أقنومان وطبيعتان ، فحين ولدت مريم لم تلد إلها وإنما ولدت إنسانا وحصل اتحاد بالمولود بعد ولادته، فاتحد الإبن بالإنسان وأصبح المسيح إلها وابن إله بالمجاز لا بالحقيقة ، ولكن نسطور لم يبين كيفية ذلك الاتحاد والاختلاط وإن اكتفى بالمجاز فى ذلك عن الحقيقة وادعى أنه فوق البشر بالموهبة التى وهبت له من الله . وهذا الادعاء متفق مع القول بنبوته .

قال ابن بطريق يحكى مقالته :(بعد سبع عشرة سنة من ملك ثاوذيسيوس الصغير صير نسطوريوس بطريكا على القسطنطينية أقام أربع سنين وشهرين

وكان يقول: إن مريم العذراء ليست والدة الإله بالحقيقة، وإن ذلك كان اثنان أحدهما الإله الذى مولود من الآب. والآخر إنسان الذى هو مولود من مريم، وأن هذا الإنسان الذى يقول إنه المسيح، بالمحبة متحد مع الإبن، ويقال له إله وابن الله ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة، واتفاق الإثنين بالكرامة نفسها كأحد الأنبياء)[١]. ويقول زكى شنوده: إن نسطور يقول: (إن مريم لم تلد إلها لأن ما يولد من الجسد ليس إلا جسدا، ولأن المخلوق لا يلد الخالق، فمريم ولدت إنسانا ولكنه آلة للاهوت، وعلى هذا فمريم لا تسمى والدة الإله بل والدة المسيح الإنسان، وقد جاء اللاهوت بعيسى بعد ولادته أى اتحد عيسى بعد الولادة بالأقنوم اتحاداً مجازيا فمنحه الله المحبة ووهبه النعمة)[٢].

ويقول ول ديورانت للذين يقولون إن مريم أم الله: (إن هذا أكثر مما يطاق ويرد عليهم بقوله إن مريم لم تكن أم الطبيعة الإلهية فى المسيح بل أم الطبيعة البشرية، وأن خيراً من تسميتها بأم الله أن تسمى أم المسيح. ولهم أتباع وجماعات لا يزالون حتى الآن يعيشون جماعات متفرقة فى فى آسيا ولا يزالون ينكرون عبادة مريم)[٣].

هذا هو خلاصة مذهب نسطور، حكاه بعض مؤرخيهم، ولقد ذكرت فى ذلك ما يوضح المقام، ويبينه، ولكن المسيحيين لم يعطوه الفرصة لنشر رأيه، وإنما كان لابد من اتخاذ موقف حاسم فى شأنه. وقد بدأ هـذا الموقف بالدعوة لعقد مجمع مقره فى إفسس للحكم عليه وعلى مذهبه.

---

(١) ابن بطريق جـ ١ ص ١٥٦ طبعة بيروت
(٢) تاريخ الأقباط جـ ١ ص ١٥٩ زكى شنوده
(٣) قصة الحضارة جـ ١ م ٤ صفحة ١٠٠، ١٠١

مجمع إفسس الأول

إن أول من هب فى وجه نسطور كالعادة هو بطريرك الأسكندرية المدعو كيرلس الكبير الأول، فحين علم بمقالته كاتبه ناهيا له عنها، وكاتب سائر البطاركة والرهبان، كما كتب بذلك إلى القيصر ثاوذوسيوس، ولكن نسطور لم يعبأ بكل ذلك وأصر على موقفه، وفى هذه الأثناء عقد أسقف روما مجمعا مكانيا حرم فيه نسطور، وبدعته وأمهله عشرة أيام للتوبة، ويبدو أن أسقف أنطاكية انتصر لنسطور وانشقت الكنيسة، فأمر الملك بعقد مجمع فى إفسس عام ٤٣١م قيل إنها بلدة فى الأناضول، وكان عدد المجتمعين مائتين، ووجهوا الدعوة إلى نسطور للحضور، ويبدو أنه كان يعرف رأى المجمع مقدما فلم يرغب فى الحضور، ولم يعبأ بهم، لأنه مصر على مذهبه، ولم يحضر أسقف أنطاكية أيضاً، وقد حضر الجميع ماعداهما، وعقد المجمع وكان برئاسة بابا الأسكندرية كما هى العادة، وكان الكرسى الأسكندرى هو الذى أخذ على عاتقه تثبيت قضية التثليث وتشكيلها حتى نهايتها، فلم يرأس المجامع إلى ذلك الوقت إلا بطاركة الإسكندرية وهم المقررون لأهدافها: ثم انتهى الإجتماع وأخرج قرارات كان ابن بطريق أحد رواتها فقال: (فأوجبوا اللعن على نسطور ولعنوه ونفوه، وثبتوا أن مريم العذراء والدة الإله وأن المسيح إله حق وإنسان معروف بطبيعتين متوحد فى الأقنوم وهو خلاف المحبة. لأن نسطور إنما كان يقول: إن الاتحاد هو اتفاق الوجهين وأما الاتحاد المستقيم فإنما هو أن يكون أقنوما بطبيعتين ... وأما نسطور فنفى إلى صعيد مصر وأقام فى إخميم سبع سنوات حتى مات ودفن فى قرية يقال لها سفلان. وكانت مقالة نسطور قد اندرست، فأحياها من بعده بزمان طويل (برصوما) مطران نصيبين فى عصر يوستينيانوس ملك الروم. وقباذ بن فيروز ملك الفرس، وثبتها فى المشرق، وخاصة أهل فارس، ولذلك تكاثرت النسطورية فى العراق،

والمشرق والموصل والفرات والجزيرة فاسم النسطورية مشتق من اسم نسطور[1]) . ويقال إن أتباع هذا المذهب موجودون فى هذه الأماكن إلى الآن ، وتتردد أنباء المؤرخين أنه حدث فى هذا المجمع انشقاق من بطريك الأسكندرية الذى كان يرى رأيا مخالفا، وانشق معه المشرقيون، ولكن الملك وفق بين المنشقين وسائر المجمع، وعاد بطريك الأسكندرية وأرسل إليهم وقال «أمانتى التى فى صحيفتكم» أى أنى مستقيم على ما اتخذتموه من قرارات ووضعتموه من مبادىء وعقائد .

الملكية :

رأينا ما اتخذ من قرارات فى مجمع إفسس الأول، وأنه قرر أن المسيح إله حق وإنسان حق له طبيعتان وأقنوم واحد وأن اتحاد الأقنومين كان قبل ولادة المسيح، ولذلك فمريم ولدت الإله المتحد مع الإنسان ، خلافا لما قاله نسطور الذى يرى أن مريم ولدت الإنسان ولم تلد الإله ... ، ورأينا أن الملك الرومانى سعى للتوفيق بين ماذهب إليه بابا الإسكندرية مخالفا لرأى المجمع وما ذهب إليه أنصار المجمع ، وأن الملك حبذ رأى المجمع فى المسيح ذى الطبيعتين المختلفتين فى الجوهر المتحدين فى الأقنوم ، وأزال الخلاف وجمع بين المتنافرين .

ومن كل هذه الملاحظات نرى أن القول بالطبيعتين والأقنوم الواحد هو مذهب السلطان ونزعة الملك ، فلذلك سمى أتباع هذه الفكرة بالملكية أو مذهب الإمبراطور إن صحت تلك التسمية ، لأن الإمبراطور كان يسوس الناس على ذلك القول ويحملهم على اعتناقه، وإطلاق لفظ الملكية على أتباع ذلك المذهب من وضع الغرب كما ذهب إلى ذلك الإمام ابن حزم .

---

(1) تاريخ ابن بطريق جـ ١ ص ١٥٧ ، ١٥٨ ، وقصة الحضارة م ٤ جـ ١ ص ١٠١

هذا وليس أجدر بشرح عقيدة الملكية من أحد أتباعها والدعاة لها وهو ابن بطريق الذي يقول : (إن من عظيم تدبير الله وكماله وعدله وجليل رحمته أن كلمته الخالقة التي بها خلق كل شيء وكونه ، التي هي من جوهر ليس بمخلوق ، ولكن مولودة من الله قبل الأدهار كلها ، لم يكن الله بلا كلمة قط ، وبلا روح قط ، ولا كانت الكلمة بريئة منه قط ، ولا من روحه الخالقة ومن جوهره ، فهبطت كلمة الله الخالق بقوامها القائم الذي لم يزل ولا يزول وتجسدت من مريم العذراء ... فاحتجبت الكلمة الخالقة بإنسان مخلوق خلقته لنفسها ... خلقا جديدا من غير نطفة آدمية وانفكاك عذرة الجارية المقدسة ، إنسانا تاما بجسده ونفسه الدموية وروحه العاقلة الكلمانية ... خلقه الله لسكنى الإله وحلوله واحتجابه بها ... الذي هو أحد التثليث الإلهي ... فهو ... واحد في التثليث بجوهر لاهوته ، واحد في الناس بجوهر ناسوته ، وليس اثنين ، ولكن واحد مع الآب والروح وهو إياه واحد مع الناس جميعاً ، جامع لجوهرين مختلفين من جوهر اللاهوت الخالق وجوهر الناسوت المخلوق ، ... من غير مفارقة من الآب ولا من الروح القدس ... وفي وقت المولد تسعة أشهر ... ولكن مثل شعاع الشمس المولود من عين الشمس ... من غير مفارقة العين التي ولد منها حقا ... فلذلك سكن ابن الله في الناسوت من غير أن يفارق الآب .. ومثل ما أن كلمة الإنسان هي المولودة من عقله تكتب في قرطاس فهي في القرطاس كلها من غير أن تفارق العقل الذي منه ولدت ولا يفارقها العقل الذي منه ولد ... وكذلك كلمة الله كلها في الآب الذي ولدت منه ، وكلها في نفسها في الروح ، وكلها في الناسوت التي حلت فيها واتحدت بها ... وليس حلول كلمة الله الخالقة والتحامها بجوهر الناسوت عنه انتقال ولا تغير واستحالة من أحد الجوهرين عن كيانه ... ولكنها خلطة نفوذ الطبيعة الروحانية اللطيفة في الطبيعة الهيولانية الجسمانية حتى تنتشر فيه جميعها وتخالطها كلها ولا يبقى موضع من الطبيعة الهيولانية خلوا من الطبيعة الروحانية من غير استحالة من الروحانية عن طبيعتها الروحانية

اللطيفة ولا استحالة من الجسمانية الهيولانية عن طبيعتها الغليظة الهيولانية ولا تغير ولا فساد لأحدهما، مثل خلطة النفس والجسد، مثل خلطة النار والحديد فى قوام جمرة واحدة ... فهو نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق من جوهر أبيه وطبيعته . . خلق الناسوت له والتحم بها ... لأن المسيح ذو كيانين ... معروفين بفعال كل واحد منهما على حدته وإرادته ، يريد كل واحد من الطبيعتين بإرادتهما ويفعل فعالهما ... وإنما جرى التثليث بالأقانيم ... ولم يزل جوهر ناسوته مطيعا لجوهر لاهوته منذ لبس الجوهر ، ولم يزل هوى ناسوته منقادا لهوى لاهوته ... ولكن بالمشيئة الإلهية، لأن المشيئة للجنس وليست للخاصة، ولذلك كل ما يشاؤه الآب يشاؤه الإبن وروح القدس، وكل ما يشاؤه الإبن يشاؤه الآب والروح القدس ، وكل ما يشاؤه الروح القدس يشاؤه الآب والإبن ، ليس بينهم اختلاف ولا فرقة ، كذلك مشيئة الناسوت إنما هى للجنس وليس للخاصة . لذلك لزم المسيح مشيئتان لكيانين تامين إلهية وناسية ، وجنسان تامان خالق ومخلوق مضمومان بلا تخليط بأقنوم واحد ... وأنه هو الذى نزل من السماء فتجسد وأصعد الجسد إلى السماء ... فالمسيح هو أقنوم واحد أزلى بلاهوته ، وزمانى بناسوته ، مصلوب ميت بناسوته، غير مصلوب ولا ميت بلاهوته، لأن التغير والمصائب والموت من ذات الناسوت وليس من ذات اللاهوت ... وهذا شرحنا لاتحاد لاهوت سيدنا المسيح بناسوته، ووحدانية بنوته وربوبيته، وتبين لكل ذى عقل وتمييز أن المسيح واحد بتوحيد القوام الواحد قوام الكلمة الأزلى ، ذو طبيعتين إلهية لم تزل ، وناسية خلقها له ، وهذه مقالة النصرانية الملكية ...) انتهى مختصرا .

هذه هى مقالة الملكية أتباع مذهب السلطان الرومانى، نقلتها من كلام أحد رجالها الدعاة لها ، حتى لا يبقى للقوم حافية يدعون التمسك بها إلا وقد

(١) ابن بطريق ج ١ ص ١٦٢ — ١٧٦

أتينا بها، ليكون موقفنا منها متسما بالنزاهة حين نضعها فى الميزان للحكم عليها.

صدى القول بالطبيعتين ومجمع إفسس الثانى سنة ٤٤٩م

بعد أربعين سنة من ملك ثاوذوسيوس الصغير ملك الروم وجد بالقسطنطينية راهب يدعى أفتشيوس[١] أو أوتيكيس[٢]، أو أوطاخى[٣]، كان يقول: (إن جسد المسيح ليس هو مع أجسادنا فى الطبيعة، وأن المسيح قبل التجسد من طبيعتين وبعد التجسد من طبيعة واحدة) ثم يقول ابن بطريق: (إن هذا الراهب هو أول من ابتدع هذه المقالة، ولما سئل فى ذلك كان قوله: (إن قلنا إن المسيح طبيعتان فقد قلنا بقول نسطور ولكننا نقول: إن المسيح طبيعة واحدة، وأقنوم واحد، لأنه من طبيعتين كانتا قبل الاتحاد فلما وقع الجسد زالت عنه التثنية وصار طبيعة واحدة وأقنوما واحدا..). وناظروه ولكنه أصر على موقفه فلم يتزحزح فلعنه بطريرك القسطنطينية وحرمه فاشتكى أمره إلى الملك الذى كان يرى رأيه آنذاك، فأمر بجمع مجمع البطاركة، فاجتمعوا فى مدينة إفسس، ورأس هذا المجمع ديسقورس أسقف الأسكندرية، فثبت المجمع رأى أفتشيوس (أوطاخى) لقضاء رئيس المجلس بذلك وقطع الباقين وأصبح ذلك الرأى هو دين ديسقورس ومعه الملك، وصارت الأمانة والمقالة مقالة أفتشيوس وخاصة بمصر والأسكندرية[٤].

---

(١) ابن بطريق جـ١ ص ١٦٢ — ١٧٦

(٢) قصة الحضارة م ٤ جـ١ ص ١٠٢

(٣) تاريخ المسيحية فى مصر

(٤) ابن بطريق جـ١ ص ١٨٩ — ١٩٠

ويقول ول يورانت : إن هذه الشيعة التي زعيمها أوتيكيس كانت أعظم الشيع أثراً في تاريخ المسيحية . ثم حكى ما قاله ابن بطريق وزاد بأن أطلق البابا (ليو) الأول على هذا المجمع اسم (مجمع اللصوص) نظراً لارتياعه مما اتخذ فيه من قرارات ..)[1] .

مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م .. والاختلاف حول طبيعة المسيح

لقد جلب ما أنتجه إفسس الثاني من قرارت تذمراً واسع النطاق . فربما استحى أرباب المذهب الملكي من القول بالطبيعة الواحدة لما كانوا متفقين عليه من بشرية المسيح التي تأكدت لديهم ، فلم يستسيغوا أن يهضموا فيه الجانب البشري ويمحوه ، وربما خافوا من لوم اللائمين حين يحاجونهم بما كان يحتويه المسيح من جسد بشري وروح وفكر بشريين ، بل وكل معالم البشرية المودعة فيه ، لذلك كان الخلاف محتدماً حول القول بالطبيعة الواحدة ومذهب الطبيعتين ، فما إن مات الملك ثاوذوسيوس حتى ذهب البطاركة من جميع الأنحاء الذين كانوا يقولون بالطبيعتين إلى الملكة (بلخاريا) أخت الملك الراحل يشكون إليها أمر مجمع إفسس الثاني وما اتخذ فيه ديسقورس من قرارات — والذي قد صار جدل طويل حول قيمته من حيث الاحترام لقراراته والبقاء لأثرها وغير ذلك — فأمر «مرقيان» زوج الملكة بأن يجتمع الأساقفة في مدينة خلقيدونية لينظروا ويفحصوا مقالة أفتشيوس أو أوطاخي على اختلاف في اسمه ، وأن يثبتوا الأمانة على ما ثبتها عليه الثلاثة المجامع المقدسة باستثناء مجمع إفسس الثاني الذي لم يعتبره مقدساً ، فاجتمع في خلقيدونية ستمائة أسقف ، وكان المقدم في المجلس بطاركة القسطنطينية ، وبيت المقدس ، وأنطاكية ، وقرروا ما يأتي :

(فساد مقالة ديسقورس بطريرك الإسكندرية وما حصل من

---

(١) قصة الحضارة م٤ ج١ ص ١٠٢

موافقته على مقالة أفتشيوس، ثم لعنوا الإثنين وثبتوا أن ربنا يسوع المسيح إله وإنسان، وهو فى الكيان مع أبيه فى اللاهوت، وفى الكيان معنا فى الناسوت، يعرف بطبيعتين تاما بلاهوته وتاما بناسوته مسيح واحد، وثبتوا ما جاء فى مجمع نيقية ... ولعنوا آريوس، وثبتوا قول المجمع الثانى الذى اجتمع فى القسطنطينية على مقدونيوس، وقالوا إن روح القدس إله، وإن الآب والإبن وروح القدس إله واحد طبيعة واحدة، وأقانيم ثلاثة، ووجوه ثلاثة، ولعنوا مقدونيوس، وثبتوا قول مجمع إفسس الأول الذى اجتمع على نسطور، وقالوا إن مريم العذراء ولدت إلها ربنا يسوع المسيح الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الإلهية ومع الناس فى الطبيعة الناسية، وشهدوا بأن المسيح طبيعتان وأقنوم واحد ووجه واحد ولعنوا نسطور وديسقورس ومن يقول بمقالة ديسقورس ونفوه ولعنوا مجمع إفسس الثانى ... وكان أهل مصر والأسكندرية قد قالوا بمقالة ديسقورس وزعموا أن ديسقورس لمن ظلما ... فأما ديسقورس لما نفى سار إلى فلسطين وبيت المقدس فساد مذهبه هناك..)[1].

هذه كانت قرارات المجمع، أما ما دار فيه من نقاش وما كان يسوده من حماس ربما كان من أجل تحبيذ فكرة الغلو فى تقدير طبيعة المسيح بجعله طبيعة واحدة وهو رأى بطريرك الأسكندرية ومن شايعه فينقل لنا أنباءه الشيخ أبو زهرة نقلا عن كتاب تاريخ الأمة القبطية فيقول: (وكان أول اقتراح طلبه مندوبوا رومية انسحاب ديسقورس بطريرك الأسكندرية من المجلس، فسأل الرئيس عن الباعث لهذا الانسحاب وعن الأسباب التى تلجىء المجمع إلى إخراج هذا البطريرك من قائمته؟ فكان اعتراض هؤلاء أن ديسقورس شكل مجمعا دون أن يستأذن الكرسى الرسولى، ويقصدون بالكرسى الرسولى بابا رومه .. فلم يصادق

---

(١) ابن بطريق ج ١ ص ١٨١ — ١٨٣

مندوبوا الحكومة على هذا الرأى السقيم، وقرر الجمع بقاء ديسقورس، ولكن على غير كرسى الرياسة كما كان فى الجمع السابق، لأنها أصبحت فى يد رجال الإمبراطورة، وقد حدث ضجيج ومنازعات أثناء الاجتماع مما جعل مندوبى الحكومة يصيحون فيهم قائلين بلسان أحدهم.. (إنه لا يجدر بالأساقفة وأئمة الدين أن يأتوا بمثل هـــذه الأعمال الشائنة من هياج وصراخ وسب وقذف وضرب ولكم، بل يجب عليهم أن يكونوا قدوة للشعب فى الهدوء وتسيير الأمور على محور الحكمة والسداد، ولذلك نرجو أن تستعملوا البرهان بدل المهاترة والدليل بدلا عن القول الهراء وأميلوا آذانكم إلى سماع ما سيتلى عليكم)[1].

وقال الشيخ أبى زهرة. وسادت المناقشة بعد ذلك فى جو عنيف متعصب، وانتهى الجمع إلى اتخاذ القرارات آنفة الذكر. ويذكر كتاب تاريخ المسيحية فى مصر أن أعضاء الجمع انقسموا حزبين حزب لديسقورس وآخر عليه، وكاد حزبه ينتصر بالرغم من تهديد الملك ووعيده)[2].

ثم إن نفى ديسقورس ولعنه أهاج عواطف المصريين من أجل اضطهاد بطريركهم، فأعلنوا استمساكهم بعقيدة ديسقورس التى تقول بالطبيعة والمشيئة الواحدة، وظلت قلوبهم تنبض بمبدئه ولو أنه فى منفاه الذى دعا فيه إلى عقيدته، واستجاب الناس له، وصار المصريون يرفضون كل أسقف يجلس على كرسى الإسكندرية يدين بدين الطبيعتين ولو أنه دين الملك، وقد لاقى المصريون من جراء ذلك صعابا كثيرة من تعسف الأباطرة واضطرارهم إلى اعتناق عقيدة الطبيعتين، ولكن الغالبية العظمى من شعـــب مصر والإسكندرية ظلوا متمسكين بعقيدة الطبيعة الواحدة.

---

(١) محاضرات فى النصرانية للشيخ أبى زهرة ص ١٤٦ طبعة ثالثة.

(٢) خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر الحلقة الثانية ص ٩١ تأليف لجنة التوفيق القبطية.

وأخيراً انشقت الكنيسة لعدم الاتفاق على طبيعة المسيح :

لقد أحدث مجمع خلقيدونية أعظم انشقاق بين المثلثين وأعنف انصداع بين عباد المسيح ، فقد تمسكت كنيسة الأسكندرية بعقيدة الطبيعة الواحدة الإلهية للمسيح وتحت لوائها جميع الأقباط ومن أثرت فيهم دعوة الزعيم ديسقوروس من البلاد غير المصرية ثم من يرق فى نظره مقالته ، وكان ذلك المذهب المغالى فى تقدير المسيح قد ساد فى كثير من البلدان فى الدولة الرومانية ، وتمسك غيرهم من أنحاء أخرى بعقيدة القول بالطبيعتين والمشيئتين والإرادتين وعلى رأسهم الملك وكنيسة رومة والقسطنطينية ، واشتد النزاع بين الفريقين وعمقت أغواره، وبعدت آثاره، وتشعبت فروعه، واتسعت هوة الخلاف بينهما حتى لقد حاول كلا الطرفين تضييق هذه الهوة مراراً فلم يفلحا، ومازالت آثاره باقية إلى الآن وكل حزب متعصب لمذهبه .

جاء فى كتاب خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر بأن مجمع خلقيدونية هو مبدأ انشقاق الكنيسة العامة الجامعة ، فقالوا : بذلك صار مجمع خلقيدونية بدء انشقاق الكنيسة المسيحية الجامعة ، وقد عقدت بعد ذلك مجامع مكانية فى الإسكندرية وفى القسطنطينية شجبت عقيدة المجمع المشار إليه، إلا أن ذلك لم يؤد إلى إعادة الوحدة، وصار كلما ارتقى عرش القسطنطينية قياصرة يعتقدون معتقد المجمع الخلقيدونى ، إذ كانوا ينصرون القائلين بالطبيعتين ويشايعونهم ويضطهدون القائلين بالطبيعة الواحدة ، ولكى يحملونهم قسراً على ترك معتقدهم سواء بالإسكندرية أو بالقسطنطينية أو بغيرهما ، وبسبب ذلك وجد بالإسكندرية مسيحيون خلقيدونيون دعوا (ملكيين) نسبة للملك الذى يدينون بعقيدته ، ومسيحيون (أرثوذكسيون)[1] أبناء الكنيسة القبطية[2] .

---

(١) (الأرثوذكس) معناه الدين الخاص .

(٢) لجنة التوفيق القبطى ص ٩٣ الحلقة الثانية .

وهكذا انتهى الأمر بالتفرق والتنازع حول طبيعة المسيح، فنهم من غالى ولم يرض أن يكون فيه طبيعة البشر، بل اتحـــدت اتحاد تاما باللاهوت، حتى أصبح طبيعة واحدة، ومنهم من تلاءم مع الحال فأقر بالطبيعتين اللاهوتية والناسوتية، وقد بين عقائد الكنيستين المختلفتين المصرية والغربية كتاب خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر فيقول: (ولأجل الفائدة نثبت هنا عقائد الكنائس المسيحية المختلفة فى هذه المسألة:

١ — فكنيستنا المستقيمة الرأى التى تسلمت إيمانها من كيرلس وديسقورس ومعها الكنائس الحبشية والأرمينية والسريانية الأرثوذكسية تعتقد (بأن الله ذات واحدة مثلثة الأقانيم أقنوم الآب، وأقنوم الإبن، وأقنوم الروح القدس، وأن الأقنوم الثانى أى أقنوم الإبن تجسد من الروح القدس [١]، ومن مريم العذراء، مصيرا هذا الجسد معه واحدا وحدة ذاتية جوهرية منزهة عن الاختلاط والامتزاج والاستحالة، بريئة من الانفصال، وبهذا الاتحاد صار الإبن المتجسد طبيعة واحدة من طبيعتين ومشيئة واحدة).

٢ — وتعتقد الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية والكنيسة الكاثوليكية [٢] بأن للأقنوم الثانى طبيعتين ومشيئتين) وعلى ذلك فالخلاف قائم ومستقر إلى الآن، والتباعد بينهما متزايد وليت شعرى ما حكم الشريعة المسيحية فى كليهما؟.

اليعقوبيون:

وساد المرح أنحاء الإمبراطورية فترة طويلة، فقد أخذ المصريون يدعون إلى عقيدتهم بجرأة مشوبة بالتعصب، ويروجون لها فى كل مكان،

---

(١) هذا يخالف القول بأن التجسد من الكلمة وليس من الروح القدس.
(٢) (كاثوليك) معناه الدين العام أو العالمى (يراجع قصة الحضارة م ٤ ج ١ ص ٤٣).

أما أنصار مذهب الطبيعتين فأخذوا يتعقبون المخالفين ويدعون إلى مذهبهم وكان الصراع المحتدم بين المثلثين ، وفى هذه الأثناء وفى منتصف القرن السادس الميلادى تقريباًظهر داعية يدعى يعقوب البراذعى ، جاب البلاد داعيا إلى المذهب المصرى وضرورة القول بالطبيعة الواحدة [١] . وكان هذا الداعية قوى التأثير فى نفوس سامعيه ، مقتنعاً بعقيدته ، مما جعله يؤثر أبلغ الأثر فى قلوب الناس ، فجذب الكثير إلى عقيدته بحسن بيانه ، وقوة بلاغته ، مع شدة حماسه وحدة صلابته وبالغ ذكائه ، فطوف فى البلاد الرومانية مجاهرا موضحا فصيحا جريئا غير مهتم بما عساه يصيبه من عسف أواضطهاد حتى ظهر مذهبه ، وكثر أتباعه ، وساد كثيرا من بلاد الإمبراطورية ، وسمى يعقوب البراذعى لأنه كان يلبس لباسا من خرق البراذع كما يقول ابن بطريق : (وكان سويرس يرى رأى ديسقورس وأفتشيوس ، وله تلميذ يقال له يعقوب وكان لباسه من خرق البراذع التى للدواب يرتقع بعضها ببعض ، وكان يسمى يعقوب البراذعى وكانت مقالته : أن المسيح طبيعة واحدة من طبيعتين ، وجوهر من جوهرين ومشيئة واحدة ، موافقاً لقول سويرس وديسقورس وأفتشيوس الملاعين ، فخرج إلى نحو الجزيرة والحيرة وتكريت وحـــران وأرمينية فأفسد أمانة الناس وصيرهم يقولون بمقالته فسمى التابعون لدين يعقوب والقائلون بمقالته يعقوبيين مشتقا من اسم يعقوب) [٢] ويقول الشيخ أبو زهرة نقلا عن كتاب تاريخ الأمة القبطية : (قيل إن يعقوب رسم [٣] / ٨٩ أسقفاً وألوفا من الكهنة والقسوس) [٤] .

هذا وإن المذهب اليعقوبى وإن كنا نرى نشاطه يقوى فى منتصف

---

(١) قصة الحضارة م ٤ جـ ٣ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) ابن بطريق جـ ١ ص ١٩٥ .   (٣) (رسم) أى عين .

(٤) محاضرات فى النصرانية ص ١٤٨ .

القرن السادس الميلادى إلا أن مبادئه قد تقررت وأذيعت من قبل ذلك بكثير، فإن أول من قال به هو أفتشيوس الطبيب الذى عقد من أجله مجمع إفسس الثانى سنة ٤٤٩ م وقرر ذلك المجمع اعتقاده برئاسة ديسقورس بطريرك الاسكندرية، وتلقفه المصريون من بطريركهم، وأصبح عقيدتهم وعقيدة من هم فى منفى ديسقورس حيث دعا إليه هناك واستجاب الناس له حتى كاد أن يصبح عقيدة جمهور المملكة الرومانية، وقد تكون جذوره أبعد من ذلك الزمان، فربما كان هذا هو رأى بطريرك الأسكندرية فى مجمع إفسس الأول سنة ٤٣١ الذى عقد من أجل عقيدة نسطور والذى انشق المشرقيون فيه.

ورأى بطريرك الأسكندرية رأيا مخالفا لم يعلن عنه ابن بطريق عند ذكره لذلك، فلعل رأيه كان القول بالطبيعة الواحدة بدلا من القول بالطبيعتين ثم وفق الملك بينه وبين رأى المجلس القائل بالطبيعتين فعاد بطريرك الأسكندرية إليهم كما مر ذلك فى موضعه.

وبناء على ذلك يكون المذهب اليعقوبى ضاربا فى القدم إلى زمان مجمع إفسس الأول حيث بذرت بذوره الأولى ثم استوى نباته فى عهد ديسقورس بمقالة أفتشيوس، ثم جاءه ذلك الداعية فأضفى عليه من قوة الدعوة ما جعل ذيوعه أكثر، وانتشاره أسرع، فنسب المذهب إليه لأنه اشتهر به.

المسيح الخيالى ومجمع القسطنطينية الخامس سنة ٥٥٣م

هناك من المثلثين من ذهب إلى أن جسد المسيح خيالى ليس له حقيقة فى الوجود، وهذا مع من الغـلو المتطرف، وهو رأى أساقفة الرها، والمصيصة، وأنقره، وأوريجانوس، ثم ضربوا فى التطرف مسافات طويلة حتى قال أوريجانوس بتناسخ الأرواح وأن ليس قيامة.

وبناء على ذلك فليس هناك قيامة ولا بعث ولا حساب.. فسارع القساوسة الآخرون إلى الملك الذى بدوره أمر بعقد مجمع فى القسطنطينية

سنة ٥٥٣ م وقرروا فيه طرد ولعن القائلين بذلك القول، قال ابن بطريق (كان فى عصر يوستينيان الملك أساقفة منبج والرها والمصيصة وأنقره، وكان هؤلاء يقولون : إن جسد سيدنا المسيح كان فانطاسيا أى خياليا غير حقيقة فسمع بمقالتهم الملك فوجه فأشخصهم وجمع بينهم وبين بطريرك القسطنطينية أولا ثم أمر فأحضر سائر الأساقفة فكان عدد الحاضرين منهم فى هذا المجمع الخامس مائة وأربعة وستين، فلعنوا هؤلاء الأساقفة ومن يقـــول بمقالتهم، وهم أوريجانوس أسقف منبج وتداوس أسقف المصيصة وأيبا أسقف الرها وتاودوريتوس أسقف أنقرة، وثبتوا أن جسد سيدنا المسيح كان حقيقة لا خيالا، وأنه إله تام وإنسان تام معروف بطبيعتين ومشيئتين وفعلين وأقنوم واحد، وثبتوا قول المجامع الأربعة التى كانت قبلهم، وأن الدنيا زائلة، والقيامة لا بد أن تكون وأن سيدنا المسيح يأتى بمجد عظيم فيـــدين الأحياء والأموات كما قال الثلاثمائة والثمانية عشر وانصرفوا ...)[1].

ثم إن من يطالع التاريخ المسيحى يجد أنه وجد بطاركة منانيون كثيرون، أى على مذهب مانى، ملأوا مشارق الإمبراطورية ومغاربها بما كان له أكبر الأثر فى طمس معالم المسيح والمسيحية، ولئلا نقول على القوم، فشاهد ذلك هو ما جاء فى كتبهم وسجلته أفكارهم، وكذلك من يطالع كتاب تاريخ المسيحية فى مصر يرى أن كثيرا من الأساقفة ممن شغلوا منصب البطريرك كانوا وثنيين ومعروفين بوثنيتهم، ومع ذلك فهم كانوا هداة المسيحية فى عصرهم والذين ألقى إليهم تبصير الناس أصول العقيدة .

المارونية والمجمع السادس :

إن الهزات العنيفة التى كانت تهز العقيدة كانت متوالية فى غير هوادة، وأصبح الجميع عاجزا عن تكييف اقتران طبيعة الإله بطبيعة الإنسان،

(١) ابن بطريق ج ١ ص ٢٠٥، ٢٠٦

فالجميع يتأمل ويجمع بحسب نظر الناظرين ، والفكر البشرى مهما تسامى فلن يصل إلى معرفة الحقيقةالعليا إلا بارشاد سماوى يهديه السبيل المستقيم حتى لايضل فى مهامه الشرود الفكرى والضلال العقدى ، وهذا ما هوى إلى حضيضه أتباع المسيح وعباده ، فنجد أن الأفكار والزمان يأتياننا بالجديد كلما اغتر مغتر بفكره ، فهذا أحدهم ويدعى يوحنا مارون يخرج علينا برأى جديد يصير مذهبا وله أتباع وأنصار . إنه يرى أن المسيح ذو طبيعتين ولكن له مشيئة واحدة وفعل واحد، خلافا لما تقرر فى مجمع خلقيدونية ، وكان ظهور مارون فى سنة٦٦٧م ،ويهب المسيحيون لطرده ولعنه وحرمانه كما هى العادة ، ويؤلفون لذلك مجمعا هو المجمع السادس، كماقدزعموا سنة٦٨٠م بمدينةالقسطنطينية ،وكانت نتيجة عمل المجمع فصل مارون ومن يذهب مذهبه من الكنيسة، وطرده وحرمانه وكفره هو ومن شايعه كما اتخذ مثل ذلك من قبل بالنسبة لفصل كنيسة الأسكندرية عن كنيسة الأقباط، وصاحبهم فى ذلك الفصل السريان والأرمن والأحباش.

يقول ابن بطريق فى بيان مذهب المارونية: (فى عصر موريق ملك الروم كان هناك راهب يدعى مارون وكان يقول : إن سيدنا المسيح طبيعتان ومشيئة واحدة وفعل واحد وأقنوم واحد، فأفسد مقالةالناس وأكثرمن تبعه على مقالته تلاميذه القائلون بها: أهل حماه وقنسرين والعواصم وجماعة من أهل الروم، وقد سمى أتباعه والقائلون بمقالته المارونية، مشتق من اسمه فلما مات مارون بنى أهل حماة ديرا بها وسموه دير مارون ودانوا بدين مارون .

وكان من قرار المجمع أن قال: (نؤمن بأن الواحدمن الثالوث الإبن الوحيد الذى هو الكلمة الأزلية الدائم المستوى مع الآب الإله فى أقنوم واحد ووجه واحد ، يعرف تاما بناسوته ، تاما بلاهوته ، فى الجوهر الذى هو ربنا يسوع المسيح بطبيعتين تامتين وفعلين ومشيئتين فى أقنوم واحد ،وشهدوا كماشهد المجمع الخلقيدونى أن الإبن الإله فى آخر الزمان

اتخذ من العذراء السيدة مريم القديسة جسداً إنسانيا بنفس ناطقة عاقلة، وذلك برحمة الله محب البشر ولم يلحقه فى ذلك اختلاط، ولا فساد، ولا فرقة ولا فصل.

ولكن هو واحد يعمل مايشبه الإنسان أن يعمله فى طبيعته ومايشبه الإله أن يعمله فى طبيعته الذى هو الإبن الوحيد الكلمة الأزلية المتجسدة التى صارت بالحقيقة لحما كما يقول الإنجيل المقدس، من غير أن تنتقل من مجدها الأزلى وليست بمتغيرة، ولكنها بفعلين ومشيئتين وطبيعتين إله وإنسان، وبهما يكمل قول الحق وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها فتعملان بمشيئتين غير متضاضتين — أى غير متعارضتين — ولعن المجمع كذلك كل من قال بالطبيعة الواحدة وكان تعداده تسعة وثمانين ومائتى أسقف كما جاء عن ابن بطريق[1].

ويذهب الشيخ أبو زهـــرة إلى أن يوحنا مارون شايعه بعض القسيسين ومعهم بعض من مسيحى آسيا .

وأن المنتحلين لهذا الرأى لم يكونوا ذوى شوكة وقوة حتى يكونوا بمنجاة من الأذى والاضطهاد، فقد نزلت بهم اضطهادات شديدة لم يكن لهم من يدفعها عنهم إلا الفرار، فلم يجدوا لهم مأمنا يعتصمون به إلا بعض البلاد فى جبل لبنان فاعتصموا بها .

وقد استمروا على اعتصامهم وبعـــدهم حتى أدنتهم إليها الكنيسة الرومانية وقربتهم منها، وأعملت الحيلة والسياسة حتى أعلنوا الطاعة للكنيسة الكاثوليكية والاتحاد معها، على أن يبقوا على رأيهم. ولقد كان اتحادها مع الكنيسة الرومانية سنة ١١٨٢ بعد الميلاد ومازالت هذه الطائفة

(١) ابن بطريق ح ١ ص ٢١٠ وما بعدها .

متوطنة بجبل لبنان ، ولها بطريرك خاص وإن كان يقر بالرياسة لبطريرك روما[١] .

تصدع الكنيسة حول مصدر انبثاق الروح القدس

كما تصدعت الكنيسة حول بيان طبيعة المسيح .. انفصم عراها مرة أخرى حول انبثاق الروح القدس ، وكيفية ذلك الانبثاق ، فهل كان مصدره الآب وحده دون شركة الإبن فى ذلك أو كان مصدره الإبن وحده لا غير أم أنه صدر عن الإثنين جميعا .. ؟ إزدادت العقيـــدة تهافتا حول ذلك وما يزال التفرق سائدا إلى الآن ، فقد مرت الكنيسة بقرون طويلة كان كل همها إرادة التعرف على طبيعة المسيح، وللأسف كان ذلك مبعث تفرق وانفصام للكنيسة على نفسها وتشعبها إلى فرق شتى كما مر ذلك ، وعقدت مجامع عديدة التوفيق فيما بينها ومن أجل ذلك قررت ما قررت كما مر .

أما الحديث حول أصل انبثاق الروح القدس ومصدر وجوده فلم يتخذ فيه قرار حتى منتصف القرن التاسع الميلادى ، وإن كان قد أشير إلى ذلك فى قرار مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١ م والذى تقرر فيه أنه منبثق من الآب وحده ، إلا أنه يبدو أن هذه الإشارة كانت صادرة من غير ترتيب أو عمق تفكير ، فقد ألقيت على عواهنها ، ويلوح أنه حين بدأ نضج الفكر الفلسفى فى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى أخذ يتناول فكرة أصل انبثاقه على وجه من الترتيب، لأنه قد يبدو أنهم فكروا فى أن المسيح لابد أن يكون له يد طولى فى إيجاد الروح القدس، ولا عجب فهو الجدير بالخلق والإيجاد فى نظر المغالين فى المسيح، لأن الآب لا يخلق إلا بواسطة الإبن كما هو مقرر عندهم ،وقد أثار هذه الفكرة أحد بطارقة القسطنطينية الذى ذهب إلى أن انبثاقه من الآب فقط، وقد سبق فى

(١) محاضرات فى النصرانية ص ١٧١

ذلك بما ورد فى قرار مجمع القسطنطينية الأول ، ولكن هذا الرأى من بطريرك القسطنطينية وجد المعارضة القوية من بطريرك رومة الذى رأى أن انبثاق الروح القدس كان من الآب والإبن معاً ولم يكن من أحدهما وحده ، وكل من البطريركين قرر رأيه فى مجمع جمعه، وادعى مسكونيته أى عمومه، وكل لعن الآخر وطرده من الكنيسة وحرمه كما هو معتاد لديهم ، وكان لكل منهما أنصار وأعوان ، ويعتقد كل فريق بطلان مذهب منافسه ، والعجب أن كل ذلك سائد إلى الآن .

وبذلك انفصلت كنيسة القسطنطينية عن كنيسة رومة، وتسمى الأولى الكنيسة الشرقية اليونانية وقد تسمى أيضا بكنيسة الروم الأرثوذكس أو الكنيسة الشرقية، لأن معظم أتباعها فى الشرق من جزر البحر الأبيض المتوسط واليونان وروسيا والعرب والصرب وغير هؤلاء كثير وسلطانها فى القسطنطينية ، وأيضا مع هؤلاء فى الرأى كنيسة الأسكندرية التى ترى هى الأخرى انبثاق الروح القدس من الآب فقط .

أما كنيسة رومة وهى التى تقول بأن الانبثاق كان من الآب والإبن معا فتسمى بالكنيسة الغربية اللاتينية، حيث مقرها وسلطانها فى أوربا والبلاد الغربية مثل فرنسا وبلجيكا وأسبانيا والبرتغال وإيطاليا وغيرهم، ورئيسها هو بابا رومة ، وتسمى بالكنيسة البطرسية، لأنهم يزعمون أن مؤسسها هو بطرس الرسول وصى المسيح ورئيس الحواريين ، وكل بابا فى روما إنما هو خليفة بطرس هذا الذى يدعون أنه رأس كنيستهم . إلى غير ذلك مما يدعونه من سلطان يستأثرون به وليس هذا مجال البحث فيه، لأن الذى يعنينا هنا هو أن نبرز للناس عدم استقرار العقيدة المسيحية على رأى، وعدم اتفاقها على عقيدة فى حقيقة الإله حتى هذا التاريخ المذكور .

خلاصة واستنتاج

وبعد هذا العرض والتتبع لحكايات القوم عن الأطوار التى مرت بها فكرة الإله لدى المسيحية، نرى أن نسجل بعض الاستنتاجات فى خلاصة مبسطة .

لقد وضح أن المسيحية فى عصرها الأول قبل مجمع نيقية تناولت فكرة الإله على طريقة هى إلى الأمشاج أقرب منها إلى التمايز بين الأفكار والتصورات للإله ، فكان الموحدون يتجاذبونها من المعددين ، والثنوية يتلقفونها من المثلثة وهكذا كان مجمع نيقية الذى بدأ يرسى قواعد العقيدة المتجاذبة، فقرر مع الله إلها آخر هو المسيح الإبن سنة ٣٢٥ م ثم كان ما كان من تصدع فى الفكرة بين القائلين بألوهية المسيح بسبب اتحاد الطبيعة الإلهية بالطبيعة الناسوتية ،وهل هما بعد الاتحاد طبيعة واحدة أو طبيعتان تستوجبان مشيئة واحدة أو مشيئتين، ونحى كل فريق منحى يغاير مسلك الآخر وإيمانه إلى اليوم، مع كثرة المذاهب فى ذلك وبعد الشقة بين الجميع ، بل قد بلغ بهم الغلو فى ذات المسيح حتى أخرجوه عن دائرة الوجود الحقيقى، فزعمه بعضهم خياليا لا حقيقة له،وكل هذه الأفكار حول المسيح كانت وليدة الغلو فيه، وهو ما أكده القرآن فى قوله : (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه)[1] .

وهناك فى عام ٣٨١ م تتقرر ألوهية ثالث الثالوث وهو الروح القدس، وكان ذلك صدى لما آثاره أنصار التوحيد من تصحيح الانحراف فى العقيدة ، كما كان القول بألوهية المسيح من قبل فى نيقية صدى لما أثاره الموحدون أيضا، وعند تقرير ألوهية الروح القدس كان انقسام ، وكان

---

(١) سورة النساء / ١٧١

تشقق أيضا، ثم يمر الزمان ويأتى النصف الثانى من القرن التاسع الميلادى، وتستعر أوار معركة فكرية بين المجتمع المسيحى بأثره حول أصل الصدور للروح القدس، فمن قائل هو من الآب وحده، ومن ذاهب إلى أنه من الآب والإبن على السواء، وكان انقسام وكان تصدع فى الكنيسة أيضا إلى اليوم كما مر فى موضعه، وكل ذلك جماع أفكار أخذت تشكل الإله حسب الإرادة والهوى بدأ ذلك من بولس الرسول وأخذها من بعده نظام المجامع التى منحت نفسها حق تأليه الإله وتشكيله .

وبعـــد ...

فهذا عرض لعقيدة التثليث عرضت لها مع ما لحقها من سلطان المجامع ومقاومة أتباعها لأرباب المذاهب الأخرى حتى انتهى بها المطاف إلى ما يراه القارىء مما يؤكد أن هذه العقيدة بدع من أفكار البشر، وركام تكون من رواسب الديانات القديمة مما لم يأت به المسيح عليه السلام، إذ ليس من المعقول أن يترك رسول الله المسيح عليه السلام أمر العقيدة ليقررها من بعده أتباعه، مع أنه لم يأت رسول إلا ويعلن منذ اللحظة الأولى لرسالته حقيقة العقيدة فى الإله، وليس بحال أن يترك المسيح هذه العقيدة مجهولة لتقرر بعد رفعه بثلاثمائة وخمس وعشرين عاما، ثم يختلف فى أمرها البشر من أتباعها فلا يكادون يتفقون إلى يوم الدين.

وإنما قصدت إبراز كل هذه الأطوار التى مرت بها عقيدة التثليث من مصادرهم ليستبين فى تأكيد أنها ليست عقيدة السماء التى يرضاها رب العباد لعباده، وإنما بينها وبين الصلة بالسماء أبعد مما بين الأرض والسماء، بل لا صلة لها بالوحى الإلهى بأدنى قصور

منزلة الصليب فى المسيحية :

الموت على الصليب شرع فى الدولة الرومانية لكل من خرج على النظام بحيث يعد فى عرف القانون مجرما ، وفى الشريعة مخالفا ، وعليها خارجا ، ولقد عهدناه كذلك منذ عصور قديمة آلة يموت عليها من يحكم عليه بالموت (الإعدام) .

وقد كان ذلك شرع مصر الفرعونية فى عهد سيدنا موسى — عليه السلام — فهذا فرعون يتوعد من تبع موسى وآمن به بالموت صلبا كما أنبأ القرآن الكريم ، فقال تعالى حكاية لما توعد به فرعون الخارجين على نظام عقيدته (فسوف تعلمون لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين ...)[١] بل كان ذلك هو النظام السائد فى عهد نبى الله يوسف — عليه السلام — فقد أنبأ القرآن قول يوسف لصاحب الرؤيا الذى رأى فيها أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه ... فقال تعالى: (وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ...)[٢] إخبارا عن موته على الصليب والتمثيل به حتى تأكل الطير منه ، وكانت عادة الحكم الرومانى أن يحمل المحكوم عليه بالموت صليبه المعد له وهو فى طريقه إلى التنفيذ أو يحمله آخر ويتبعه ، فحينما جاء المسيح كانت تلك العادة سارية ، ولذلك كان كثيرا ما يأمر متبعيه بالتفانى والتضحية فى سبيل العقيدة وتقويم المعوج من السلوك ، وأن يستهينوا بالموت فى سبيل المبادىء الأخلاقية الفاضلة ، ونظرا لأن ذلك السلوك محفوف بالمخاطر والأشواك التى قد تعرض صاحبها للموت أحيانا كان المسيح يأمرهم ويهىء أذهانهم

---

(١) سورة الأعراف ١٢١ ، ١٢٢ واقرأ الآية ٧١ من سورة طه والآية ٤٩ من سورة الشعراء

(٢) سورة يوسف / ٤١

لذلك بأن يحملوا صليبهم كرمز ودليل على الإستعداد لطارىء الموت فى سبيل الدعوة فى أى لحظة ، ولو كان ذلك الموت يدخلهم ظلما فى عداد المجرمين الجانين، ولو كان أيضا على طريقة تنطوى على الشناعة والاشمئزاز، فكان يقول لهم (ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى) [١] فلما أن صلب المسيح كما زعموا اتخذ المسيحيون طريقهم إلى تقديس الصليب نظرا لذلك ، ولكن لا يصل تقديسه إلى حد العقيدة بحسب ذاته وإن كان تعظيمه يصل فى نفوسهم إلى درجة عميقة . ومن المعانى التى يلحظونها فى تقديس الصليب أنه رمز للتضحية والفداء التى ضربها مثلا لهم إلههم المزعوم ، فهم يحملونه تأسيا به واتباعا له ، كما قد حمله هو على رواية أحد الأناجيل ، وأنهم يرون فيه أيضا تحقيق لاهوت المسيح ، وأنه عنوان قوتهم وفخرهم ، ولذلك فهو شارتهم المقدسة وشعارهم المميز ، كما رأوا فيه أنه مظهر المحبة والعدل والرحمة ، فهو الذى تمثلت عليه محبة الله للخليقة يبذل ابنه الوحيد فداء وكفارة ، وتحقق عليه عدل الله بالقصاص من المخطىء والخطيئة ، وعليه أفاض الله رحمته على البشرية الهاوية إلى الجحيم الأبدى فأنقذها دم المسيح المبذول على الصليب إلى الحياة الباقية بعد ذلك الموت الأبدى .

هذه نظرتهم إلى الصليب ، وإنها فى نظر العقل فكرة معكوسة ، إذ كيف يقدس الإنسان شيئا رأى فيه مذلته ومهانته وقضاء نحبه ؟ ، وكان الصواب أن ينظروا إليه نظرة البغض والكراهية . والاشمئزاز كنظرتهم إلى الخطيئة نفسها، مع أن تقديسه يوحى بعقيدة الوثنية، وأذكر فى ذلك قول الأستاذ عبد الأحد داود فى كتابه (الإنجيل والصليب) : (ومن عجب أن الكنيسة التى تعلن الحرب على الأصنام هى بذاتها تقدس صليبا مصنوعا من معدن أو خشب وتوصى بتقديسه ... ثم يقول : قد يقول المسيحيون إن الصليب ليس إلا رمزا ، ونجيبهم بأن العرب فى

---

(١) متى ١٠ : ٢٨

جاهليتهم الأولى قالوا عن عبادتهم للأصنام « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .. » ومع هذا فقد عيب عليهم عبادتهم للأصنام مع أنهم كانوا في عهد جاهلية .. .

قانون إيمانهم :

هذا ، وتثبيتا لعقيد الثالوث وإعلانا لمبادئها ، وضع كبار الأساقفة في مجمع نيقية قانون الإيمان(١) المسيحي الذي ينطوي على الإيمان بالثالوث وعقيدة التجسد والفداء ، وقد تضمن بذلك أسس المسيحية الجديدة وقواعدها ، وإن كان ذلك القانون قد عدل فيما بعد ، حتى أخذ شكله الحالي الذي يردده المسيحيون خلف القسس داخل الكنائس قائلين :

نؤمن بإله واحد ، الله الآب ضابط الكل(٢) خالق السماء والأرض ما يرى وما لا يرى ، نؤمن برب واحد يسوع المسيح ، ابن الله الوحيد ، المولود من الآب قبل كل الدهر ، نور من نور إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب في الجوهر ، كل شيء به كان ، وبغيره لم يكن شيء مما كان ، هذا الذي من أجلنا نحن البشر ، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس(٣) وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي ، وتألم وقبر وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه ، وأيضا يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات الذي ليس لملكه انقضاء . نعم نؤمن بالروح القدس ، الرب المحيي المنبثق من الآب

---

(١) يعبرون عن قانون الإيمان « بالأمانة » أيضا أو دستور الإيمان

(٢) أي الذي بيده مقاليد الأمور

(٣) أي اتخذ لنفسه شكل إنسان

نسجد له ونمجده مع الآب والإبن الناطق فى الأنبياء [١] ، وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية ، ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى أمين ...) .

أما بعد : فلعلنى قد عرضت عقيدة التثليث فى المسيحية كما هى عقيدتهم وكما أفاضت بذلك كتبهم وقررتها مجامعهم دون ميل أو هوى ودون تدخل فى عرضها أو تصويرها ، وذلك حتى يكون موقفنا منها موقف المواجهة لحقيقة غير مزيف فيها بزيادة منا أو نقص كما هى بحسب نظر المؤمنين بها ، ودون قصور فى استقصاء جوانبها ، .

وبهذا يكون قد آن الأوان لبيان موقف الإسلام من عقيدة التثليث فى المسيحية وعقيدة تأليه المسيح ومازعموه فيه من غلو فى طبيعته وأمه ،



---

(١) أى الذى يتكلم بوحيه الأنبياء ، فهم يعتقدون أن الأنبياء ينطقون بالإلهام المعطى لهم من الروح القدس .

الباب الثانى

موقف الاسلام من عقيدة التثليث المسيحية

«... ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم
إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد»

(سورة النساء : ١٧١)

تمهيـــد :

إن الدين الإسلامى يستمد عقائده فيما يتعلق بالبارى عز وجل، وبأنبيائه ورسله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، من مصدرين أساسيين لا يعلوهما مصدر آخر، هما كتاب الله عز وجل (القرآن الكريم) وسنة رسوله الأمين (محمد) — ﷺ — وفيهما العصمة الكاملة لمن يتمسك بأهدابهما، والرشد من الغواية، والهدى من الضلالة، لمن يستضىء بأنوارهما. وقال فى ضمان هذا السبيل رسول الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه — لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله، وسنتى) وقال الله فى الذكر الحكيم : (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ..)[1] وقال : (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)[2] .

وقال فى شأن حفظه وصيانته من تحريف أو تبديل : (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[3] .

---

(١) سورة الأسراء ٩ — (٢) النحل ٨٩

(٣) الحجر ٩

وإنه لمن العسير التكهن بمعرفة مايجب للذات الأقدس كما يليق بذاته تعالى مالم يكن مصدر هــــذه المعرفة كتابا سماويا أو إخبارا إلهيا . لذلك ضل فى بيداء معرفة الذات الإلهية جهابذة الفكر وأرباب العقول على تعاقب البشرية ومختلف مراحلها حين أرادوا أن يخوضوا غمار تلك المعرفة غير مستضيئين بمصباح الوحى السماوى، وإن حاولوا فإنهم يعودون من الرحلة بالقصور وعدم الكمال . وإن علم ذلك فضل كبير من الله يمن به على من يشاء من عباده فهو وحده : (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا .) [١] ، (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) [٢] . هذا وإن البارى سبحانه واجب الوجود لذاته كما هو مقرر فى الإسلام بل هو اللائق به ، ووجوب الوجود يستلزم أحديته المطلقة ، فلا احتياج ولا تركيب ولا أجزاء له فى ذاته بأى وجه من وجوه التجزؤ أو التركيب ، فهو واحد أحد كما يستفاد من قوله تعالى فى كتابه العزيز : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) ... [٣] فأحدية الله تنفى عن ذاته مجرد الإيهام بوجود آخر يدانيه ، ولعل فى عدول القرآن فى التعبير فى الآية بلفظ (أحد) بدلا من (واحد) فى قوله جل شأنه (قل هو الله أحد) مايفيد أنه سبحانه متوحد فى ذاته أحدية مطلقة لا ند له فيها ، بل ولا يصح توهم ذلك حيث إن فى قولنا (واحد) مايشعر ولو من بعيد بأن الواحد واحد الإثنين ولو أن ذلك توهم بعيد بخلافه فى الأحد ، والله يريد بذلك أن يبعد عن ذاته توهم مثل ذلك فى الأذهان ، لأنه وحده الأحد البعيد كل البعد عن توهم الند المماثل أو التركيب فى الذات فهو سبحانه (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) [٤] ولذلك جاء القرآن كلام الله مؤكدا لهذه

---

(١) سورة البقرة ٢٦٩ — (٢) آل عمران ٧٣

(٣) الأخلاص — (٤) الشورى ١١

الأحدية بقوله : (الله الصمد) ومعناه غير المحتاج إلى شيء آخر ، سواء كان شريكا أو معينا أو مقوما للحياة بما يستمر به الوجود .

فإذا كان هذا هو عقيدة الإسلام في الباري — تقدست ذاته وعز سلطانه — فما هو إذن موقف الإسلام من المسيحية في ادعائها أن الله ثلاثة أقانيم إلهية متساوية في الجوهر هي : الآب والإبن والروح القدس ، وأن الثلاثة إله واحد، وأن الإبن هو المسيح ابن مريم ؟ . وهذه عقيدة اتفقت جميع الفرق والطوائف على اعتقادها دون تمييز بينها — عدا الموحدين منهم — لذلك حين يأتي الإبطال لهذه العقيدة إنما يأتي على جميع من يدينون بها .

وإني حين أقوم الآن بإبطال عقيدة التثليث وإثبات عقيدة التوحيد من الكتاب (القرآن الكريم) والسنة النبوية والعقل في هذا الباب فإنما أقرر في الوقت ذاته ما أكده الإسلام وجاء به القرآن من توحيد الله توحيدا مطلقاً من مثل ماجاء قوله تعالى : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد)، وقوله : (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ..) [١] ومثل قوله — ﷺ — مخاطبا الناس في حجة الوداع : (أيها الناس إن ربكم واحد [٢] وإن أباكم واحد .. [٣]) كما أنى في الوقت نفسه أحق الحق في مثل ماجاء من قوله تعالى : (لقد كفر الذين قالو إن الله ثالث ثلاثه وما من إله إلا إله واحد ..) [٤] . والله ولى التوفيق .

---

(١) البقرة ١٦٣

(٢) وهو الله الواحد الاحد الفرد الصمد

(٣) وهو آدم عليه السلام

(٤) المائدة ٨٢ ـ ٧٧

الفصل الأول

موقف القرآن من عقيدة التثليث وأصحابها

تقـــديم :

أذكر هنا خلاصة مذهبهم فى عقيدة التثليث لأجل استحضار صورها أمام القارىء الذى ربما تكون قد بهتت صورها فى ذهنه .

فالإسلام قد جاء والعقيدة التى يعتنقها النصارى فى الإله — باستثناء المعتدلين منهم — هى أن الله واحد فى أقانيم ثلاثة هى : الآب والابن والروح القدس ، وأن المسيح هو الإبن الذى حل فى مريم متخذاً لنفسه هيئة الإنسان مع ما كان من اختلاف المذاهب فى المسيح وفى طبيعته ، هل هو ذو طبيعة لاهوتية وأخرى ناسوتية ؟ أم هل هـــو ذو طبيعة واحدة لاهوتية فقط ، ثم هـــل هو ذو مشيئة واحدة مع اختلاف الطبيعتين أو ذو مشيئتين ؟ وهل هو بعد كل هذا وذاك قديم كالآب مخلوق ؟ .

كما طال الجدل حول ابن مريم — عليهما السلام — فمنهم من قال : إنه رسول كسائر الرسل ، ومنهم من قال : بأنه رسول لكن له بالله صـــلة الموهبة الخاصة ، ومن قائل بأنه ابن الله ، فهو من غير أب لكنه مخلوق للآب ، وآخرون بأنه إبن الله على الحقيقة وليس مخلوقا ، وله صفة القدم كالآب سواء بسواء ، إلى غير ذلك من مذاهب وآراء مما بينته فى فصل (كيف تكونت عقيدة التثليث) ، والثابت من التتبع التاريخى فى الفصل آنف الذكر ، أن عقيدة التثليث وعقيدة بنوة المسيح وكذلك عقيدة ألوهية مريم ودخولها فى بعض التثليثات كل ذلك لم يصاحب المسيحية

الأولى التى جاء المسيح بها ، بل أضيفت إليها على فترات متفاوتة فى التاريخ تقترن بدخول الوثنيين فى النصرانية ، ولم يكن الداخلون فيها قد تطهروا بعد من التصورات الوثنية ، ونظام الآلهة المتعددة ، وتبين كذلك فى ذلك الفصل ، ما كان يقوم بالموحدين من اضطهادات أنزلها بهم الأباطرة الرومانيون ، والمجامع المقدسة الموالية للملكية) إلى ما بعد القرن السادس الميلادى ، مما حدا بهؤلاء الأباطرة عن طريق كبار البطاركة تصفية هذه الخلافات بواسطة مجـــامع مقدسة عامة بدأت بمجمع نيقية عام ٣٢٥ م وتواصلت إلى مشارف النهاية للقرن السادس كما هو مفصل هناك فى الباب المذكور حتى صار حالهم حقيق بوصف القرآن لهم : (فاختلف الأحزاب من بينهم)[١] .

وتخلف عن ذلك فرق كثيرة أشربت قلوبهم العداوة فيما بينهم حتى كان منهم بعد ذلك النسطوريون ، واليعقوبيون والملكيون ، وأخيراً منهم الكاثالكة والأرثودكس والبروتستانت، والمارونيون، وسوف لا يلتقون إلى يوم القيامة كما قال سبحانه : (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العـــداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ..)[٢]

ومن المعلوم أن عقيدة النصارى فى أصلها الناصع السمح تسربت إليها رواسب الوثنية من شتى الأقوام وشتى الملل التى احتكت بها النصرانية، سواء فى ذلك أساطير الإغريق والرومان وأساطير قدماء المصريين وكذلك أساطير الهنود ، وهم الذين حرصوا على مزج عقائدهم الوثنية بعقيدة التوحيد الناصعة حتى لم يعد هناك إمكان لفصلها وتنقية جوهر العقيدة منها، وسنفصل فى الباب الأخير لهذا الكتاب أن الديانات الوثنية لها أثر بالغ فى تحويل المسيحية الموحدة إلى المسيحية المعددة المثلثة ، وخاصة آثار

---

(١) مريم / ٣٧ (٢) المائدة / ١٤

الفلسفات الهيلينية[١] والأفلاطونية الحديثة ومبادئها ، أو أقانيمها الثلاثة ، فثالوث الأفلاطونية الحديثة وتهذيبه لمفهوم التثليث المصرى هو أصل الاقتباس لثالوث المسيحية — ولقد تطورت فكرة البنوة وفكرة التثليث حسب رقى الفكر وانحطاطه، وأمام الاشمئزاز الفطرى من نسبة الولد لله، ومما زاد هذا الاشمئزاز ماحصل عليه الفكر والعقل من ثقافة نيرة كاشفة اضطروا أمام هذا الاشمئزاز أن يفسروا البنوة بأنها ليست عن ولادة كولادة البشر ولكنها عن (المحبة) بين الآب والإبن ، ثم حاولوا تفسير كون الإله الواحد فى ثلاثة بأنها تارة (صفات) لها خاصيات متميزة، وتارة (أشخاصا) مستقلة ، ونظراً لصعوبة هذا التصوير وعدم القدرة على جمع الثلاثة فى واحد ، وتناقض كل هذه التصورات وتصادمها للبديهيات العقلية فى إدراكها — ونظراً لما يجدونه من كل ذلك ، أحالوا معرفة حقائقها إلى معميات غيبية ومساتير خفية لاتنكشف إلا بانكشاف حجاب السموات والأرض كما قال القس (بوطر) فى رسالته (الأصول والفروع) فى شرحه لهذه القضية : (قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا ونرجوا أن نفهمه فهما أكثر جلاء فى المستقبل حين ينكشف لنا الحجاب عن كل مافى السموات والأرض) ، إلى غير ذلك مما أفاضوا فى شرحه وكما بيناه فى باب العقيدة عندهم .

---

(١) العصر الهلنستى : هو العالم الناطق باليونانية فى العصر القديم ، ويبدأ من عام ٣٣٤ ق . م ، وهى الفترة التى كانت السيادة فيها لمقدونيا بدءا من فليب وفتوحات الأسكندر إلى نهاية الحكم المقدونى وبداية الحكم الرومانى وهى الفترة التى تأثرت فيها الثقافة الإغريقية بمؤثرات أجنبية .

أما العصر السابق لهذا فيسمى العصر الهلينى الذى لم تتأثر فيه هذه الثقافة بتلك المؤاثرات — والهلينيون هم الإغريق ، ويمكن تسمية العصر الهلنستى بالعصر المستهلن . راجع ذلك فى الرد الجميل ط مجمع البحوث ١٩٧٤ م .

القرآن وعقيدة التثليث :

لما كان الأمر كما تقدم واختلطت عقيدة التوحيد هكذا بشتى العقائد والنحل ، جاء الإسلام فى طوره الأخير وفى آخر تصوراته فى الرسالة الخاتمة رسالة القرآن المنزل على خاتم النبيين محمد ﷺ جاء ليصحح عقيدة البشر فى الله وينقذها من كل انحراف وغلو وتفريط وإفراط ، جاء ليصحح كل تصور للتوحيد سواء منه قبل الميلاد من فكر فلسفى أو وثنى ، أو بعد الميلاد من أفلاطونية الأسكندرية وآثارها ، ونادى العالم أجمع إلى الاستظلال بعقيدة التوحيد الخالصة النقية وذلك فى شخص أهل الكتاب ، والقرآن فى هذا الفصل يحكم ببطلان عقيدة التثليث عند النصارى ويقضى بكفر من يعتنقها ، والخطاب وإن كان للمثلثين من النصارى إلا أنه عام لكل من أشرك فى العقيدة ، فينادى رب العباد جميع الخلائق قائلا : (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا . .)[1] .

فى هذا النداء إنصاف للمسيح من الغلو فى شأنه والانحراف عن الحق بما يزعمونه فيه من أفكار زائفة ، فالله ليس بشراً ولا متحدا بالبشر ، ولم يتخذ الله لنفسه صاحبة ولا ولدا ، والله خالق والمسيح مخلوق ، وهو واحد ولا تعدد فيه ، ولا شريك معه ، وإلى هذا تشير الآية الكريمة : (إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السموات وما فى الأرض) فقرر القرآن وجه الحق فى هذه القضية ، وقال كلمة الفصل للنصارى من أهل

---

(١) النساء / ١٧١

الكتاب فى عقيدتهم، ثم قضى بكفر من زعم أن الله هو المسيح ابن مريم فقال : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ...)[١] .

فهذه عقيدة الكفر وإن تعددت ألوانها ، والقرآن يثير فى النفوس منطق العقل والفطرة والواقع : (. . قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً . .)[٢] .

فهذه تفرقة بين الله والمسيح ، فذات الله واجبة ، ويترتب على هذا الاعتقاد أن تكون ذاته واحدة ، ومشيئته غير مقيدة ، ومتفرد فى سلطانه ولا يملك أحد مهما كان أن يرد مشيئته ، أو دفع سلطانه وإرادته إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً ، فهو سبحانه مالك كل شىء وخالق كل شىء ، والمسيح ، مخلوق ، والخالق غير المخلوق ، والمالك غير المملوك .

(ولله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على شىء قدير . . .)[٣] .

وبذلك تتجلى خصائص الألوهية وتفرده سبحانه بالسلطان المطلق بتقرير حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، وفرق بين عبد ومعبود ورب ومربوب، لذلك يقول الله سبحانه وقوله الحق فى حقيقة المسيح وكيفية خلقه التى زاغوا بسببها : (إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ...) فيحدده بأنه رسول الله كأى رسول من الرسل ، شأنه فى ذلك شأن نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، ومحمد ، وبقية الرهط الكريم المختار لتبليغ رسالة الله إلى خلقه ، وأقرب ما يقال عن كونه (كلمة الله ألقاها إلى مريم) أن الله عزوجل خلق عيسى بالأمر الكونى

(١، ٢، ٣) المائدة / ١٧

المباشر الذى لايتوقف على وسيط أو سبب كسائر البشر ، وكثيرا ما أعلمنا الله سبحانه فى القرآن عن ذلك الأمر الكونى أو التكوينى الذى هو (كن . . . فيكون) فيه ألقى الله هذه الكلمة إلى مريم فخلق عيسى فورا ومباشرة فى بطن مريم من غير نطفة أب — كما هو مألوف البشر باستثناء آدم — وكلمة الله هذه التى تخلق كل شىء من العدم لاعجب فيها أن تخلق عيسى — عليه السلام — فى بطن مريم ، وهى التى عبر الله عنها بقوله : (... وروح منه ...) فما هذه الروح . : ؟ إن ولادة عيسى غريبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر ، ولكن أى غرابة فيها إذا قيست بخلق الإنسان الأول آدم أبى البشر ، فمن قبل نفخ الله فى طينة (آدم) من روحه فكان إنسانا وقال فى ذلك الذكر الحكيم : « إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين[1] ... » .

وكذلك قال فى شأن عيسى وخلقه : « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا »[2] .

وإذن فللحادث سابقة ، والروح الذى من الله هنا هو الروح الذى من الله هناك ، فأى فرق بينهما ؟ وإن قصة (آدم) ونفخ الله فيه من روحه معلومة لأهل الكتاب وفى كتابهم ، مع التشابه التام بين الحادثتين ، بل إن (آدم) يزيد على أنه من غير أب وأم ، وعيسى خلق مع وجود أم ، ومع ذلك لم يقولوا إن (آدم) إله ، أو ابن إله ، أو أقنوم من أقانيم الإله ، أو أن له طبيعة لا هوتية ، فهم لم يلصقوا بآدم مثل ماألصقوا بعيسى مع التماثل التام بين الإثنين ، ولم يجادلوا فى شأن آدم أبدا . ولذلك فان القرآن يعرض هذا الأمر فى بساطته وجلائه برد الأمر الى الحقيقة الأولى . حقيقة خلق آدم ، فإن هذه الحقيقة وحقيقة عيسى بل وحقيقة الخلق كله ترجع إلى مشيئة غير مقيدة خلقت النواميس ، وهى هى تستطيع

---

(١) سورة ص ٧١ ، ٧٢ (٢) الأنبياء ٩١

بقدرتها الفائقه أن تستغنى عن التقيد بالناموس ، فلذلك يعجب الإنسان كيف يثار الجدل حول عيسى وخلقه حين يرد القرآن الأمر فى ذلك إلى المشيئة العليا وخلقها لآدم حيث يقول : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[1] وبالانتهاء إلى قول الله للشيء (كن .. فيكون) انتهاء من كل عجب ومن كل جدال ، وتتضح القضية جلية فى بساطة ويسر وسهولة تقبل العقل لها ، وفى الوقت ذاته تتضح القضية بتعقيداتها بسبب فعل الهوى ورواسب الوثنية فى أجيال تعاقبت من غير يقظة للفطرة والواقع البسيط ، ولهذا الوضوح وسهولته ينادى القرآن الكريم : « فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم » أى آمنوا يامعشر المسيحيين من أهل الكتاب بوحدانية الله المطلقة التى دعاكم إليها عيسى وآمنوا برسله ومنهم عيسى ومحمد ، بوصفه رسولا وخاتم الرسل والأنبياء ، وإذا كان هناك انتهاء عن التعدد فلا قول ولا عقيدة بكون الثلاثة واحدا أو الواحد ثلاثة وإذن .. « .. إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد .. » فالولد كما هو مقرر امتداد لوجود الفانين فى شخص الأنبياء ، وعون للضعفاء والعاجزين ، والله غنى عن الامتداد ، لأنه ليس فانيا ، وعن المعين لأنه قادر مسيطر ، فهو سبحانه : « له ما فى السموات وما فى الأرض » مالك ناصية الجميع فى وحدته المتفردة (وكفى بالله وكيلا » فهو كافل الخلائق جميعا ، وراعيهم وحده بعين عنايته ، وادعاء الولد له تعالى إفك وبهتان : « ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون »[2] .

وهكذا يقرر القرآن حقيقة التوحيد ويصحح عقيدة النصارى من أهل الكتاب فى غلوهم وشططهم فى القول والتصور .

---

(٣) آل عمران ٥٩ (١) الصافات ١٥٢

وبعد وضوح التصور فى حقيقة المسيح يمضى الذكر الحكيم فى تخليص عقيدة التوحيد من كل زيف وباطل، ويقررها حقيقة ثابتة فى النفس راسخة فى العقل عميقة فى الوجدان، فيبين أن حقيقة الألوهية فى توحدها تستتبع عبودية، فإذا كان البارى هو الإله الواحد الأحد فهناك عبودية تشمل كل شىء فى هذا الوجود عدا الواحد، فيستطرد الحديث القرآنى فى تصحيح الإسلام لعقيدة النصارى فى عيسى، وكذلك تصحيح العقيدة التى تتخذ من الملائكة بنوة لله أو شركاء له فى الألوهية كعيسى فيقول الله تعالى: «لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا[1] ..» فلا بنوة لأحد، ولا يتحد الله بأحد، إن هى إلا ألوهية وعبودية: «إن هو إلى عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى إسرائيل»[2]، وهكذا بلغ من انحراف النصارى فى عقيدتهم فى الله أن: «جعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين[3] ..»، فطغى الإنسان وضل السبيل، ولكن الإسلام كشف عن هذا الزيف والباطل، ووضع الحق فى نصابه، فلا ألوهية لعيسى، أو لغيره، فعيسى لن يستنكف أن يكون عبدا لله. والملائكة المقربون لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لله، وأن جميع الخلائق ستحشر إليه سبحانه فأما الذين يستنكفون عن صفة العبودية فهناك العذاب الأليم وأما الذين يعترفون ويقرون بعبوديتهم لله فأولئك لهم الثواب الجزيل: «فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا[4] ...».

«ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالو سبحانك أنت ولينا من دونهم ..»، وهنا يقول عالم السر

---

(١) النساء ١٧٢ (٢) الزخرف ٥٩

(٣) الزخرف ١٥ (٤) النساء ١٧٣

وأخوف خاطبا » . . فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون(١) . . » .

والمسيح — عليه السلام — خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، فلا يأبى أن يكون عبدا لله ، بل فى ذلك منتهى كماله ، ولا يكون العبد كالمعبود ، يعرف ذلك عيسى تماما وكذلك الملائكة المقربون وفيهم روح القدس جبريل — عليه السلام — شأنهم جميعا كشأن سائر الأنبياء والمرسلين، فما بال أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ويقرره حق الإقرار .

ولقد عمد رؤساؤهم إلى الجمـــل ذات التعبير المجازى فى كتابهم ، فيلوون ألسنتهم بها ليا يخرج بها عن معانيها الحقيقية إلى مدلالوت ومرادات لا تدل عليها بغير لى أو تحريف . وذلك ليوهموا الدهماء والعامة أن هذه المدلولات المبتدعة هى من كتاب الله ، ويقولون هى من عند الله ، فكشف القرآن حيلتهم وأبان تحريفهم فقال سبحانه : « وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون(٢) ... » .

وكانوا يهدفون من وراء ذلك إلى إثبات ألوهية عيسى — عليه السلام — ومعه (روح القدس) وذلك فيما زعموه من الأقانيم : الآب والإبن والروح القدس . باعتبارها كائنا واحدا هو الله — تعالى الله عما يصفون — ويرددون عن عيسى كلمات تؤيد ما يدعون ، فرد الله عليهم هــذا التحريف والتأويل ، بأنه لا ينبغى لنبى يخصه الله بالنبوة

---

(١) سورة سبأ ٤٠ — ٤٢ (٢) آل عمران ٧٨

ويصطفيه لهذا الأمر العظيم أن يأمر الناس أن يتخذوه إلها هو والملائكة، بل ذلك في عداد المستحيل في حقه.

« ما كان لنبي أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون »[1].

إن النبي يوقن أنه عبد وأن الله وحده هو الرب الذى يتجه إليه العباد بعبوديتهم وبعباداتهم، فما يمكن أن يدعى لنفسه صفة الألوهية التى تقتضى من الناس العبودية. فلن يقول نبي للناس (كونوا عباداً لى من دون الله) ولكن قوله لهم (كونوا ربانيين) أى منتسبين إلى الرب عباداً له وعبيداً، توجهوا إليه بالعبادة وحده وخذوا عنه منهج حياتكم حتى تخلصوا له وحده، فتكونوا (ربانيين) كونوا (ربانيين) بحكم علمكم للكتاب وتدارسكم له، فهذا مقتضى العلم بالكتاب ودراسته.

والنبي كذلك لا يأمر الناس أبداً أن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابا، فالنبى لا يأمر الناس بالكفر بعد أن يسلموا لله ويستسلموا لألوهيته، وقد جاء ليهديهم إلى الله لا ليضلهم، ويقودهم إلى الإسلام لا ليكفرهم، ومن ثم تتجلى استحالة هذا الذى ينسبه ذلك الفريق إلى عيسى — عليه السلام — كما يتجلى الكذب على الله فى ادعائهم أن هذا من عند الله وتسقط فى الوقت ذاته كل مقالة لهذا الفريق.

ولأجل تصفية الحقيقة، حقيقة التوحيد يؤكد القرآن كفر الذين يزعمون أن الله هو المسيح بن مريم، أو أن الله ثالث ثلاثة، مع ذكر شهادة عيسى عليهم بالكفر وتحذيره للنصارى من أن يصفوا أحداً

(١) آل عمران / ٧٩، ٨٠.

بالألوهية غير رب العالمين ، مع اعترافه بربوبية الله له ولهم على سواء، فقال سبحانه : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار)[٢]. وبعد هذا التحذير نسى النصارى قول المسيح لهم (يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم) حيث يدلهم على المساواة التامة بينه وبينهم فى العبودية والربوبية لله رب العالمين ثم يتابع القرآن تقرير الهلاك والكفر لمن يضل فيقول : (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة)[١] ثم يقرر التوحيد فى تعقيب سريع وهو الحقيقة التى جاء بها كل رسول من عند الله . (وما من إله إلا إله واحد)[٢] ثم يهدد الذين لا ينتهون من عاقبة الكفر الذى به ينطقون ويعتقدون . . (وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم[٢]) ثم أردف ذلك التعقيب بالترغيب فى رحمة الله وعفوه ومغفرته إذا تابوا ورجعوا .. (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم)[٣] وبذلك يشير إليهم بالتوجه إلى باب التوبة واستدراك أمرهم قبل فوات الأوان ، ثم يوجههم إلى التأمل فى عقيدتهم عن طريق الفطرة الواقعة ، والمنطق الواضح ، لعلهم يعقلون ، ثم يكون منه التعجب والاستنكار ، لأنهم لا يعقلون بل يستمرون يأفكون فيقول (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون)[٤] . فأكل الطعام داع من دواعى الاحتياج فمن يأكل الطعام يلبى حاجة جسدية، ولا يكون إلهاً من يحتاج إلى شىء يحفظ عليه بقاءه كالطعام ، وعيسى وأمه يأكلان ، وتلك حقيقة واقعة فى حياتهما . أما الله سبحانه فهو قائم بذاته ، صمد ، غير محتاج . باق بذاته ، لا يدخل فى ذاته سبحانه طعام ،

---

(١) المائدة/٧٣ .　　(٢) المائدة/٧٣ .

(٣) المائدة/٧٤ .　　(٤) المائدة/٧٥ .

أو تخرج منه مخلفات الطعام ، فهل بعد هذا التبسط فى التدليل على البشرية لعيسى وأمه بيان أو برهان ؟

ولذلك يقول الله : (أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون) . إنه لعجب حق العجب .

هذا ولا يلتفت هنا بعد كل ذلك إلى ماقيل من تمحلات فى شأن اختصاص الطعام بالناسوت دون اللاهوت أو غير ذلك من هراء القول . ثم يذكر القرآن هؤلاء العابدين لمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً وهو أولى ألا ينفع الآخرين أو يضرهم فيقول : (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم)[1] . والتعبير (بما) فى حق المسيح العاقل لأن القرآن يشير إلى كل معبود من دون الله بمافى ذلك غير العقلاء ، فالإشارة إلى المهايا المخلوقة الحادثة ومنهم عيسى والملائكة وفيهم الروح القدس ، وكذلك مريم وغيرهم ، ومجموعهم لا يملكون ضراً لعابديهم ولا نفعاً ، ولكن الذى ينفع ويضر هو السميع العليم ، فهو الذى يسمع ويعلم ، ومن ثم يضر وينفع ، كما أنه هو الذى يسمع دعاء عبيده وعبادتهم إياه ويعلم ما تكنه صدورهم ، وما يكن وراء الدعاء والعبادة ، فأما ماسواه فلا يسمع ولا يعلم ولا يستجيب الدعاء : (إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين)[2] ، ولهذن فما أبعد الذين يتجهون بالعبادة إلى البشر عن الحق ، وما أكثر استغراقهم فى الضلال إلى نهايته : (ومن أضل ممن يدعوا من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون)[3] ، وكل المهايا المخلوقة التى قصدها البشر بالعبادة يتحقق تمام عجزها وضعفها حين تقصد بأن تخلق شيئاً ، أو حتى تدفع عن نفسها ضراً ، وهذا تقرير القرآن بعدم حولها وقوتها : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو

---

(١) المائدة/٧٦ . (٢) الأعراف ١٩٤ .
(٣) الأحقاف : ٥ .

اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب)[١] . وإذن فما قدروا الله حق قدره والله قوى عزيز ، وإذا كان الواقع يحقق ذلك العجز التام عن الخلق ، أو دفع الضر عن أنفسهم ، فهم عن دفع الضر عن عابديهم أتم عجزاً كما قال عز وجل : (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون)[٢] ثم ينهى القرآن حديثه إلى أهل الكتاب بدعوة جامعة لجميع فرقهم وأحزابهم فى مختلف أعصرهم على نبيه الخاتم (محمد) -ﷺ- (قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل)[٣] فيبين أن منشأ الغلو هو ما داخل دين النصارى من أهواء قوم ضلوا من قبل ، أى وهم فى بيئتهم التى دخلوا بها فى دين المسيح ، وكذلك أهواء الحكام وأهواء المتحكمين فى أزمة المجامع المتدابرة .

وهذا النداء الجديد هو دعوة الإنقاذ الأخيرة للنصارى من أهل الكتاب ليخرجوا بها من خضم الانحرافات والاختلافات والأهواء والشهوات التى خاض فيها أولئك الذين ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل .

بعد هذا النداء الأخير تبرز فى هذه القضية بعض الحقائق الهامة :

(أولا) إن الإسلام يبذل جهداً كبيراً فى سبيل تصحيح المفهوم العقائدى والتصور الاعتقادى فى الله وتدعيم حقيقته على قاعدة التوحيد المطلق ، وتنقيته من شوائب الوثنية ، وسبل الشرك التى ضرت أهل الكتاب فأفسدتها ، وأن الإسلام فى الوقت ذاته يعرف الناس عن طريق هذا التصحيح للعقيدة حقيقة الألوهية ، وما لها من خصائص ينفرد بها الخالق ، ويتجرد منها سائر الخلائق ، وبناء على ذلك يكون الإسلام هو الرائد فى جعله العقيدة القائمة على التوحيد المطلق أساس بناء الحياة السليمة الصالحة لكل ارتباط إنسانى

---

(١) الحج ٧٣ . (٢) الأنبياء : ٤٣ . (٣) المائدة : ٧٧

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين)[١]

(ثانياً) إن الإسلام يصرح بكفر من يقول إن الله هو المسيح ابن مريم، أو أن الله ثالث ثلاثة ، وقول الله حق وصدق وليس بعد قول الله سبحانه قول — (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل[٢])— وقد بين الله عز وجل أنهم كفروا بهذه الأقوال ، وأن الإسلام وإن كان لا يكره أحداً على دين يعتنقه إلا أن مايعتنقه غير المسلمين من الدين لا يسمى عنده دينا يرضاه ، خاصة بعد ما صرح بأن ذلك كفر ، ولن يرضى الله عن الكفر دينا ، فهو (.. لا يرضى لعباده الكفر)[٣] .

(ثالثاً) يترتب على الحقيقتين السابقتين أن الإسلام هو الدين الحق، وهو الذى جاء به (محمد) — ﷺ — وهو خاتم النبيين ، وما دام أهل الكتاب ليسوا على شيء من الدين ، لأنهم لا يدينون بالوحدانية ، فلا ولاء بين المسلمين وبينهم، لأن صحة العقيدة أساس كل نظام للحياة، ومالم يكن أساسه تلك العقيدة السليمة الناصعة فهو باطل ، ولا مفهوم له فى اعتبار الإسلام . قال سبحانه : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين ... يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين .[٤]) ، وقال عز وجل : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق)[٥] .

---

(١) آل عمران : ٨٥ .
(٢) الأحزاب /٤
(٣) الزمر : ٧ .
(٤) المائدة /٥١ ، ٥٧
(٥) الممتحنة /١ .

القرآن ينهى عن عموم التعدد :

من المعلوم أن القول بالتثليث معناه نفى التوحيد على ما يقضى به النص والعقل ، والتوحيد هو قضية الإسلام الأولى منذ الوقت الأول من نزول القرآن على نبي القرآن (محمد) — ﷺ — ومكثت الدعوة فى مكة ثلاث عشرة سنة وحديث الوحى لا يفتأ يردد آيات التوحيد وتقرير قضية التوحيد على أنها أساس الدين وباب الإسلام ، ويعمل على تعميقها فى العقل والجنان بكافة الوسائل التى تتناسب مع كافة الفئات المتباينة فى العقل والفقه والبصر . فالذين يقف بهم التأمل والنظر عند مرحلة الإدراك بالحواس فقط ساق القرآن لهم شواهد مادية على وحدة الصانع ، يشاهدونها بأعينهم ويدركونها بحواسهم . أما الذين يستطيعون استكناه الحقائق من وراء المحسوسات بالدلائل العقلية فقد خاطبهم القرآن بالقضايا المنطقية ، والحجج الإقناعية ، لملاءمة ذلك لطباعهم ، داعياً لهم إلى إعمال العقل والفكر فيما وراء الحس والظاهر .

فإلى الفريق الأول يعرض القرآن عليهم من صحائف الوجود وجزئيات الكون من حولهم التى يستطيعون التماس عظمة الصانع من خلالها ، ثم يدعوهم إلى التأمل والنظر فى كل ما فى هذه الظواهر الكونية من إبداع ونظام وإحكام ، ثم يستنطق الفطر ، هل يصنع هذا ويخلقه إلا إله واحد متفرد فى وحدانيته عظيم فى قدرته ، بديع فى حكمته ؟ .

وذلك فى معرض بديع وتصوير مثير فيقول سبحانه : (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون ، أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أءله مع الله بل هم قوم يعدلون . أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين

حاجزاً أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ، أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أءله مع الله قليلا ما تذكرون أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته أءله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أءله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)[١].

وهكذا يستنطق القرآن فطر المشركين عموماً سواء الثنوية أو المثلثون أو الوثنيون على اختلافهم (آلله خـــير أما يشركون) ويتحدى الجميع بقوله : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) أى فى دعوى التعدد والشرك ، ولكن القوم الذين ران على قلوبهم يعدلون عن الحق ، لأن أكثرهم لا يعلمون ، فقليلا ما يتذكرون، فسبحانه وتعالى عما يشركون .

ويمعن السياق القرآنى فى تمحيص الفطر بأن تتحسس وحدانيـــة الخالق وربوبية الصانع فيما تناله من نعمه وفضائله الدائمة التى لا تحصى ، وفى نهاية التمحيص يقررها وحدانية مطلقة فيقول:(هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون)[٢] ، (ذلكم الله ربكم خالق كل شىء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ..)[٣] ولكنه الإفك وهو الكذب على الله (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون ..)[٤] وذلك لأن الذين يعبدونهم من دون الله لا يملكون لهم رزقاً ..(إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون)[٥] ثم يمضى الذكر

---

(١) النمل ٥٩ — ٦٥
(٢) فاطر : ٣
(٣) المؤمن : ٦٢
(٤) الأنعام / ٢١
(٥) العنكبوت : ١٧

الحكيم فى عرض ملموس لخلق الإنسان على أحسن صورة ، مشمولة هذه الصورة بمقوماتها من خلق الأرض لها وبناء السماء من أجلها ، وبث الرزق الطيب فى حناياها تقريراً وتوكيداً لحقيقة التوحيد الخالصة : (ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين ..)[١] ودفعا لكل زعم بالتثليث والتعدد سواء فى السماء أو فى الأرض كما زعم النصارى[٢] يقول سبحانه (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله وهو الحكيم العليم ..)[٣] فلأن الله سبحانه حكيم أبدع الخلق، وهذا دليل الوحدانية ، ولأنه عليم أبرز مكنون السرائر، وهذا دليل الكمال المطلق ، ومن أجل ذلك نهى الله عن القول بأدنى التعدد فضلا عن الزيادة فيه فقال عز وجل :(وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون..)[٤] هذا منطق القرآن مع ذوى الفكر البسيط الساذج غير العميق .

أما فريق الفكر والعقل والمنطق وهم الجمهور ـ حاشا السذج والبسطاء ـ فيأتى السياق القرآنى بمقـــدمات عقلية تقرر إبطال كل قول بوجود إله غير الواحد الأحد ، ويحق الحق فى إحقاق عقيدة التوحيد المطلق المنزه عن الند والشريك ، وذلك بثلاث آيات فى القرآن الكريم :

إحداها : قوله عز وجل (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)[٥] .

والثانية : قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن

---

(١) المؤمن : ٥٤ ، ٦٥

(٢) فقد زعموا أن الذين يشهدون فى السماء ثلاثة وفى الأرض ثلاثة متخذين من ذلك مبدأهم فى التثليث . انظر رسالة يوحنا الأولى ٥ : ٧ ، ٨ .

(٣) الزخرف : ٨٤

(٤) النحل : ٥١ (٥) الأنبياء ص ٢٢

لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)[١] .

والثالثة : قوله تعالى (لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا)[٢] .

فأما الآية الأولى فدلالتها مركوزة فى الطبع ، إذ من المعلوم بنفسه أنه إذا كان هناك صانعان صنع كل منهما هو عين صنع صاحبه، فإنه يستحيل أن يصدر عنهما مصنوع واحد ، لأنه لا يمكن أن يكون فعل واحد لفاعلين من نوع واحد ، فإنهما إن قصدا إلى تدبير بيت واحد مثلا فإن فعلاه معاً فبالضرورة يفسد البيت الواحد إلا أن يكون أحدهما هو الذى يفعل والآخر لا يفعل تعطيلا منه ، وهـــذا ليس من صفات الألوهية ، وعلى ذلك فإنه متى امتنع فعلان من نوع واحد صدرا من فاعلين على محل واحد يلزم فساد المحل ضرورة ، أو يحصل تمانع الفعل، إذ الفعل الواحد لا يصدر إلا عن واحد ، فهذا هو معنى قول الله سبحانه : (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا).

وأما قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ..) فهو إبطال لمن يقول بآلهة كثيرة مختلفة الأفعال كما يقول النصارى مثلا ، فإن فعل الآب عندهم يختلف عن فعل الإبن . وكذلك الروح القدس ، فلكل من أفراد الثالوث فعل لا يستطيع الآخر فعله ، ومعنى الآيه أنه يلزم فى الآلهـــة المختلفة الأفعال التى لا يطاوع بعضها بعضاً ألا يوجد عنها موجود واحد ، وحيث كان العالم واحدا وجب ألا يكون وجوده عن آلهة مختلفة الأفعال، ولزم بالضرورة وجود العالم الواحد عن واحد .

(١) المؤمنون : ٩١ (٢) الإسراء : ٤٢

وأما قوله تعالى (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذن لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) فهذه الآية برهان أقرب ما يكون فى المعنى بالآية الأولى ، أى أنها تقرر امتناع وجود إلهين أو آلهة فعلهم واحد ، ومعنى هذه الآية أنه لو كان هناك آلهة لها من صفات الخلق والقدرة على إيجاد العالم غير الإله الواحد الموجود بحيث تستوى نسبة هذا الإله أو الآلهة فى نسبتها إلى العالم مع نسبة الخالق له لوجب أن يكون معه على العرش، وإذن فيكون هناك موجودان متماثلان ينسبان إلى محل واحد نسبة واحدة ، ومعلوم أنه لا ينسب المثلان إلى محل واحد نسبة واحدة ، لأن فى اتحاد النسبة اتحاد المنسوب، ولا يجتمع اثنان فى النسبة إلى محل واحد ، كما أنهما لا يحلان فى محل واحد ، إذا كان شأنهما مما يقوما بالمحل . — وإن كان الله تعالى لا يقوم بالعرش ولا يحل فى محل — هذا بالنسبة لإلهين اثنين فما بالنا بثلاثة؟

هذه المعانى فى الآيات الثلاثة فى سياق القرآن الكريم يخاطب بها كل البشر ومنهم العلماء أولوا الألباب ، كما يلحظها الجمهور فوق طاقة السذاجة، وإن كان فى تعقيب الآية ما يشير إلى كونه خطابا للخاصة من طرف خفى فى قوله تعالى (سبحانه عما يقولون علوا كبيرا تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شىء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا)[1] .

هذا ويلاحظ أن وضع القرآن للآيات الثلاث فى صورة البراهين لا يجعلها أدلة عقلية صرفة تحدد بحدود منطقية وذلك لكى تناسب جمهور المخاطبين من غير تقعيد أو تعقيد .

---

(١) الإسراء / ٤٣ ، ٤٤

الفصل الثاني

موقف السنة النبوية من التثليث

لقد أبان القرآن الكريم أن منشأ الاعتقاد فى تثليث الإله هو غلو النصارى من أهل الكتاب فى تقدير عيسى ابن مريم عليهما السلام، كما أكد أن منشأ ذلك يرجع أيضاً إلى القرون الوثنية السابقة[1] إذ سرعان ما ينجذب البشر إلى تلك العقائد لكونها سهلة التصور من غير إعمال فكر أو وجدان، وهذا ما انحدر إليه النصارى تماما، وخوفاً من أن يؤول أمر المسلمين أتباع النبي العربي إلى مثل ذلك من الغلو فى شأن نبيهم، وتصورهم له على غير طبيعته، وحتى لا تزل الأفكار أو يتغشى العقل غواشى التقليد والاتباع، قال عليه الصلاة والسلام محذراً ناهيا (لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) أخرجه البخارى عن عمرو الزهرى، وأخرج الإمام أحمد عن ابن عباس عن عمر أن رسول الله — ﷺ — قال: (لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) ثم رواه هو وعلى بن المدينى عن سفيان بن عيينة عن الزهرى كذلك ولفظه . . (. . إنما أنا عبد الله فقولوا عبد الله ورسوله . .) وقال على ابن المدينى هو حديث صحيح مسند.

والإطراء هو المدح بالباطل، أو مجاوزة الحد فى المدح، تقول

---

(١) سورة التوبة : ٣٠

أطريت فلانا إذا مدحته فأفرطت فى مدحه ، وهذا حال النصارى ، فإنهم تجاوزوا الحد فى عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التى أعطاه الله إياها، فنقلوه من طبيعة النبوة والبشرية إلى أن جعلوه إلها مع الله يعبدونه كما يعبدون الله تعالى ، بل تجاوزوا الغلو فى المسيح إلى أتباعه وأشياعه فادعوا فيهم ما ليس فى حقيقتهم مما نوه القرآن عنه فى قوله تعالى : (إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم) كما مر ، والحديث الشريف وإن كان ينهى أتباع محمد ﷺ عن الغلو فى شأنه ، إلا أنه يدل بالأصالة على الضلال فى العقيدة الذى غرق فيه النصارى ، والفساد فى تصورهم وغلوهم فى نبيهم عيسى ابن مريم ، فهو يصفهم بالباطل ، وأنهم ليسوا على شىء فى عقيدتهم فى الله عز وجل ، وهو وإن لم يقل صراحة بأن عقيدة التثليث باطلة إلا أنه فى حقيقة قوله ومعناه يؤكد أن عيسى — وهو الركن الركين فى تلك العقيدة — عبد وليس إلها ولا ابن إله ، وفى ذلك إبطال ، لعقيدة التثليث والقول بها .

ثم بين الرسول الكريم بأنه لاشىء عنده فى خصوصية نفسه من الصفات إلا صفة العبودية وقوله ، (فإنما أنا عبد...) قصر إضافى موصوف على صفة، أى وليس عندى شىء من صفات الألوهية ، ولذلك قدمها فى قوله: (فقولوا عبد الله ورسوله) ولعل الرسول — ﷺ — أراد زيادة الحرص فى ذلك فأمرنا بتكرار الذكر فى كونه عبد الله ، وذلك فى الصلاة عليه ، وفى التشهد فى الصلاة ، خوفاً من أن يبلغ بنا تعظيمه إلى الحد الذى وقع فيه النصارى بالنسبة إلى عيسى عليه السلام ، لأن ذلك موطن دقيق زلت فيه الأقدام ، فالله سبحانه أمرنا بتعظيمه — ﷺ — والفرق بين نهاية التعظيم والوقوع فى عبادة من يعظم من أدق الفروق على الخاصة فضلا عن العامة ، قال ابن الجوزى : سبب نهيه — ﷺ — عن الإطراء فيما يظهر ما وقع فى حديث معاذ بن جبل

لما استأذنه فى السجود له فامتنع ونهاه — ﷺ — فكأنه خشى أن يحصل ذلك من غيره أو أكثر منه ، فبادر إلى النهى ثم أردف النهى بقوله: (وإنما أنا عبد الله) فوضع بذلك خير دعامة فى رد المفتونين إلى حقيقة الدين والمعرفة .

وأراد النبى — ﷺ — أن يعيب على النصارى مسلكهم فى اتخاذهم عيسى إلها بأنه عليه السلام أخص الناس به وأقربهم إليه ، فقد أخرج البخارى عن أبى هريرة — رضى الله عنه — أن رسول الله — ﷺ — قال : (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة) وفى رواية أخرى للبخارى بزيادة (ليس بينى وبينه نبى) والظاهر من ذلك أن النبى — ﷺ — أراد الرد على النصارى بقوله إنى أنا الذى أعرف قدر عيسى وما يليق به لا أنتم ، حيث آذيتموه بجعله ابناً لله ، وسيخزيكم يوم القيامة، ويرد فريتكم ، ويلصق جزاءها بكم، إذ قرب عهدى به يجعلنى أعرف الناس بحقيقته ، ولذلك صرح النبى — ﷺ — بحقيقة ابن مريم وبخالص عبوديته هو وإياه فقال (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء على ما كان من العمل) أخرجه البخارى عن عبادة بن الصامت كما أخرجه مسلم ، وتحذيراً من هذا المنزلق الخفى يخاطب النبى عموم البشر ألا يغلوا فى شأنه عليه السلام فيروى أنس ابن مالك — رضى الله عنه —: أن رجلا قال : يا محمد ياسيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا ، فقال — ﷺ — : (أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد بن عبدالله عبد الله ورسوله والله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عزوجل) رواه أحمد وتفرد به من هذا الوجه .

فانظر كيف جعل الغلو فى تقدير الأشخاص إنما هو من غواية الشيطان واستهوائه للأفئدة السقيمة، وكما أحكم العقول والقلوب من الغلو فيه عليه

السلام، نهى عنه بعد موته، لأن مكانته من الخلق مظنة ذلك، فقال فى مرض موته محذراً وناهيا: (لاتجعلوا قبرى وثنا) ونظر الآن ذلك صنيع أهل الكتاب حتى ضلوا وأضلوا، قال — ﷺ — (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) أخرجه البخارى عن عائشة وابن عباس، والحكمة فى ذلك تحذير المسلمين من مثل ما صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم، لأنه ربما يصير بالتدريج شبيها بعبادة الأشخاص والأصنام، فلم يشغله — ﷺ — خطورة مرض ولا سكرات موت عن التحذير من ذلك؛ وبيان أن ذلك سبب فى الوقوع فى أخطر الذنوب، وهو الشرك بالله تعالى، كما أشرك السابقون من أهل الكتاب، وكما زعم النصارى أن مشيئة الإبن هى مشيئة الآب غالى رجل من المسلمين فى تعظيم الرسول، فأراد هو الآخر أن يعطى نبيه مثل ماأعطوا، فكان الرسول — ﷺ — يدعوه إلى فعل أمر (طاعة) فقال الرجل: إذا شاء الله وشئت يارسول الله، قارنا بين الله والرسول فى معية المشيئة، ولكن رسول التوحيد والاعتدال نهره فى غضب يقطع شطط العقل وزيغ الشيطان فقال: (بل قل: إذا شاء الله ثم شئت يارسول الله) فجعل الرسول مشيئته بعد مشيئة رب العالمين، وفى هذا التصحيح ما فيه من رد جماح الفكر وشرود العاطفة.

هذا ويبدو أن الرسول — ﷺ — لم يتعرض لإبطال التثليث بالتصريح والتحقيق اعتماداً على أن القرآن قد أفاض فى إبطاله بما لا يدع مجالا لتفصيل بعد، وأيضاً لما أثبته القرآن من تقرير الوحدانية المطلقة لله عز وجل، وما أثبته النبى أيضاً، من تثبيت التوحيد فى مثل قوله لجبريل — عليه السلام — حين سأله عن الإسلام فكان مما قال (أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً..) رواه البخارى فى باب الإيمان.. وقوله: (بنى الإسلام على خمس) وذكر أولها (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) وقوله لأصحابه: (بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئاً ...) إلى آخر بنود المبايعة رواهما البخارى أيضاً فى باب الإيمان.

فلعل الرسول — ﷺ — اعتاض بكل ذلك عن إبطال التثليث بالتصريح لوضوح القضية وعدم خفاء بطلانها، مع بيانه لحقيقة ابن مريم الذى هو أس التثليث .

وإذا تجاوزنا سنة الرسول المطهرة وذهبنا إلى الآثار نستنطقها فى شأن ابن مريم فإننا نأخذ على سبيل المثال لا الحصر ما أخرجه عبد بن حميد والحاكم وصححه البيهقى فى الدلائل عن أبى موسى : أن النجاشى قال لجعفر ابن أبى طالب : ما يقول صاحبك فى ابن مريم ، قال : يقول فيه قول الله، روح الله وكلمته أخرجه من البتول العذراء لم يقربها بشر . فتناول عوداً من الأرض فرفعه قال : يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد هؤلاء على ما تقولون فى ابن مريم ، ما يزن هذه .

وأخرج البيهقى فى الدلائل عن أبى مسعود قال : بعثنا رسول الله — ﷺ — إلى النجاشى ،ونحن ثمانون رجلا ومعنا جعفر بن أبى طالب، وبعثت قريش عمارة وعمرو بن العاص ومعهما هدية إلى النجاشى ، فلما دخلا عليه سجداً له ، وبعثا إليه بالهدية وقالا : إن ناسا من قومنا رغبوا عن ديننا ، وقد نزلوا أرضك ، فبعث إليهم حتى دخلوا عليه فلم يسجدوا له فقالوا : ما بالكم لم تسجدوا للملك؟ . فقال جعفر : إن الله قد بعث إلينا نبيه فأمرنا ألا نسجد إلا لله ، فقال عمرو بن العاص: إنهم يخالفونك فى عيسى وأمه ، قال: فما تقولون فى عيسى وأمه ؟ قالوا : نقول كما قال الله ، روح الله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول التى لم يمسسها بشر فتناول النجاشى عوداً ، فقال : يامعشر القسيسين والرهبان ماتزيدن على ما يقول هؤلاء، مايزن هذه ؟، مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده فأنا :أشهد أنه نبى ولوددت أنى عنده فأحمل نعليه، فانزلوا حيث شئتم من أرضى) .

وهكذا كان مسلك نبى الإسلام وتشرب صحابته لعقيدته ، لم يعن بمطارحة الحجاج واللجاج فى مسألة عيسى وما ينوط به ،أو ما يتعلق بالإله

وما زعموه فيه مكتفيا بما قال له ربه : (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون الحق من ربك فلا تكن من الممترين فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقالوا اشهدوا بأنا مسلمون)[1] .



(١) آل عمران : ٥٨ — ٦٤

الفصل الثالث

« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى
أحسن إلا الذين ظلموا منهم ... »
(العنكبوت : ٤٦)

موقف العقل من الأقانيم[1]

بين الجوهر والأقانيم :

الإله فى العقيدة المسيحية عبارة عن الآب والإبن والروح القدس ، وهؤلاء الثلاثة هم أقانيم إلهية كما مر ، وقد ثبت من أقوالهم فى الباب الأول أن لكل أقنوم منها صفاته وخصائصه المشخصة، والتى يتميز بها عن الآخرين كما يعتبرون أن الثلاثة الأقانيم متساوية فى الجوهرية، لكن يجمعها كلها جوهر واحد قديم بقدمها ، حيث إنه أساسها . ولذلك قالوا بأن الثلاثة إله واحد ، والواحد فى ثلاثة وقد سبق فى الباب الأول تعريف الأقنوم الذى هو واحد الأقانيم فى اصطلاحهم .

وأيا ما قيل فلا سند لهم على ذلك كله من الإنجيل أو قول المسيح . وإنما هو وحى مجامعهم ، وتخطيط مؤتمراتهم ، وزعم الرؤساء والبطاركة

---

(١) أهم المراجع فى هذا الفصل : كتاب المواقف للإيجى والمقاصد للتفتازانى والفصل لابن حزم والتمهيد للباقلانى .

(٢) المراد بالجوهر عندهم فى باب الألوهية هو . المتحيز لذاته الذى لا يقبل القسمة ولا يفتقر فى وجوده إلى غيره .

وخلاصة ثقافاتهم . ولكون هذا خبط البشر فلا يكاد يتفق مع العقل ، إذ يستحيل فى البديهة أن يكون إله واحد ذا ثلاثة أقانيم ، أو ثلاثة هى واحد فى الوقت نفسه ، كما يستحيل أيضا أن يجتمع تعدد ووحدانية فى ذات واحدة هى فى نفس الوقت إله متصف بكل كمال يليق بالألوهية، وقد مر بيان ذلك .

ونحن إزاء كل ذلك أمام حقيقتين يجب العلم بهما قبل كل شىء

الأولى : حقيقة الجوهر من حيث كونه جوهرا .

والثانية : حقيقة الأقانيم من حيث كونها أقانيم .

فحقيقة الجوهر من حيث هو أنه : واحد غير متعدد وليس له خواص ذاتية متباينة فى معناها أو متمايزة فى اختصاصاتها .

أما الأقانيم من حيث كونها أقانيم بعد التعريف المار أيضا : فهى مختلفة فى معانيها ، متمايزة فى خواصها ، إذ لكل أقنوم معناه الخاص به، فمنها الآب ، ومنها الإبن ، ومنها الروح القدس ، وليس الآب هو نفس الإبن ولا نفس الروح القدس ، وليس الإبن هو ذات الآب أو ذات الروح القدس ، وكذلك الروح القدس ليس هو عين الآب ولا هو نفس ماهية الإبن . وكل واحد من هذا الثالوث له مشخصات تميزه عن الآخرين ، ومعلوم أن الأقانيم متعددة ، ومنها ما هو متحد بالجسد وهو أقنوم الإبن دون نظيريه . وبعد كل ذلك فإن الأقانيم متوحدة فى جوهر واحد لا يقبل الانفصال ، وهذا الجوهر متقوم بهذه الأقانيم ، ويعتبر بناء على ذلك جوهرا عاما جامعا للأقانيم .

وفى الوسع أن نقول فى هذه الحالة : إما أن يكون الجوهر العام الجامع عين الأقانيم أو غيرها ، فإن كان عينها، فالمتعارف عليه أن الأقانيم مختلفة فى معانيها متمايزة فى خواصها واختصاصاتها ثم هى متعددة ، ومنها المتحد ومنها غير المتحد ، ومعلوم كذلك أن الجوهر الجامع غير

متعدد ، وليس له خواص ذاتية متمايزة ولا هو متباين المعنى . والمفروض أنها هى نفسه، فيلزم على القول بأن الجوهر عين الأقانيم أن يكون نفس الجوهر الذى ليس بمتعدد ولا مختلف المعنى ولا متباين الاختصاصات ولا متحدا بالغير هو هو نفس المتعدد المعنى، المتباين الاختصاصات ، المتحد بالغير ، وهذا محال لأنه جمع بين النقيضين ولا قائل به .

وإن كان الجوهر الجامع هو غير الأقانيم ، فإما أن يكون إلها أو غير إله . فان كان إلها والحال أن الأقانيم الثلاثة آلهة ، وقد فرض أنه غيرها فقد أصبحت الآلهة أربعة وليست ثلاثة ، وهذا خلاف مايقولون ، وإن قيل به فهو ترك لما يعتقدون .

وإن كان الجوهر الجامع غير إله ، بل الثلاثة الأقانيم هى الآلهة فقط دونه والمفروض أنه غيرها أصبح بمغايرته لها رابعا فى جملة الموجودات المقدسة ، وقديم بقدمها لأنه أصلها . صح أن نقول : إن الأقانيم ثلاثة ولا جوهر هناك يجمعها وهى مفقودة له وأن نقول : إن هناك ثلاثة أقانيم يجمعها جوهر واحد ، فيصبح وجود الرابع كعدمه ، ويتساوى فى ذلك إثباته ونفيه مع اعتبار قدمه .

فان صح هذا القول بأن جاز أن تكون الأربعة ثلاثة — صح أن تكون كلمة الإبن والروح القدس مع الآب واحدا ، أى أقنوما واحدا ، ولا لزوم لإثبات ثان أو ثالث زيادة على الواحد ، كما جاز ألا يكون الرابع مع الثلاثة شيئا زائدا مع قدمه — ليتحقق إذن أن تكون الثلاثة واحدا جوهرا واحدا ، كما كانت الأربعة واحدا ، وتلك نتيجة ضرورية

ولا أقول بأن الثلاثة واحد على غرار قولهم ، فهم يعتبرون أن الثلاثة واحد مع بقاء الثلاثة بأشخاصها واختصاصاتها وألوهيتها ، فالآب إله

والإبن إله ، والروح القدس إله ، والثلاثة الآلهة إله . ولكني أقول : بأن الثلاثة واحد على معنى أنها غير آلهة كما أن الرابع غير إله فى الجدل الذى نحن بصدده ، فلا إله إلا واحد بسيط غير ملحوظ فيه معنى الأقنومية أو أى اعتبار آخر .

وإن جعل الآلهة إله واحد ، (لشيء عجاب ما سمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق [١]) .

هذا ، ومتابعة للمناقشة أقول : إذا كان الجوهر العام الجامع غير الأقانيم فمع هذه المغايرة ، إما أن يكون موافقا لها بمعنى أنه يسد مسدها ويتوافق معها فى جميع الصفات والخصائص وإما أن يكون مخالفا لها ، على معنى أنه لا يسد مسدها ولا يكون متفقا معها فى جميع الصفات والخصائص .

فإن كان موافقا فإن ذلك الجوهر يجب أن يكون أقانيم مثلها ، ويجب إذن أن يكون ابنا من حيث كونه موافقا للإبن ، وأن يكون روح قدس من حيث كونة موافقا للروح القدس ، وإتماما للموافقة لتلك الأقانيم يجب أن يكون أقنوما وخاصا لجوهر آخر خامسا كما أن الأقانيم خواص لجوهر ، ويجب أيضا أن تكون نفس ذلك الجوهر العام متباينة المعنى مختلفة الخصائص من حيث إنها أشبهت ووافقت أقانيم مختلفة المعانى ، متباينة الخصائص ، كما يجب أن يكون ابن نفسه ، وأن يكون روح نفسه ، لأنه مثل ابنه وموافق له ، ومثل روحه وموافق له ، وهو بمعناهما ، وكل ذلك هدم وضياع لعقيدة التثليث .

ربما قيل : إن موافقة الجوهر للأقانيم ليس من كل جهة ، وإنما الموافقة من جهة الجوهرية فقط ، فجوهره من جوهره ، ولكنه يخالفها فى الأقنومية فقط .

---

(١) سورة ص / ٥ ، ٧

ومن حقنا أن نقول : إما أن تكون جهة الوفاق التي هي الجوهرية هي هي نفس الجهة التي بها تكون المخالفة وهي الأقنومية أولا . ؟

فإن اتحدت جهة الوفاق مع جهة الخلاف بأن كان معنى الجوهرية هو نفس معنى الأقنومية . نقول : لم لايجوز أن يكون الجوهر أقنوما لجوهر آخر ولنفسه ؟ حيث جاز اتحاد معنى الجوهرية والأقنومية فيه ، ولكنهم ينكرون ذلك لأن الجوهر العام عندهم ليس أقنوما البتة ، ولا يصح أن يكون أقنوما لجوهر غيره ولنفسه .

وإن لم تتحد جهة الإختلاف بين الجوهر والأقانيم وهي الأقنومية مع جهة الاتفاق بينهما وهي الجوهرية ، فيجب والحالة هذه أن يكون ذلك الخلاف في الأقنومية لازم الثبوت البتة بين الجوهر والأقانيم لاينفك أبدا ، ولايخلو الذي به حصل الخلاف والتغاير من أن يكون جوهرا أو عرضا ، وعلى أي من الآمرين فالمغايرة متحققة ولا مناص ، وهذا صريح التعدد . وهو يؤول إلى تربيع لا محالة . ونعود إلى القول السابق بأن ذلك الجوهر المغاير إما أن يكون إلها أو غير إله ، ويلزم ماتقدم من مستلزمات وجوده وعدمه ، وإثباته ونفيه ، ثم إنه إذا لم يوجد مايحصل به الاختلاف والمغايرة بين الجوهر والأقانيم فقد وقع المحظور ، لأنه واجب حينئذ أن تكون نفس الجوهر يحصل بها الوفاق في الجوهرية وأن تكون نفسه هي هي التي يحصل بها الخلاف في الأقنومية ، فما به يكون الوفاق هو بعينه الذي يحصل به الخلاف وهذا ظاهر الفساد . إذ لايصح أن تكون جهة وفاق الشيئين هو جهة خلافهما ، لأنه إن جاز ذلك جاز أن يكون جهة قدم الشيء هي جهة حدوثه ، ويصح أن يكون قديما محدثا لنفسه وهو محال باطل ، وإذن لابد من وجود مايثبت المخالفة والمغايرة بين الجوهر والأقانيم ويلزم عليه التعدد الذي صرحوا به .

وإذا قيل بأن الأقانيم صفات الجوهر الجامع فهذا مسلم حيث يكون

التوحيد محققا فى هذه الحالة مع مالنا من المآخذ على جعلهم الله جوهرا ، ثم نقول : بأن هناك صفات تقتضيها كمالات الألوهية فوق الثلاثة ، فلم حصرت فيها ؟ ولم اختص أقنوم الكلمة بالاتحاد بجسد عيسى دون الحياة والوجود مثلا ؟ ولم اتحد أقنوم الكلمة بجسد عيسى دون غـــيره من الأنبياء فهذا تحكم وتخصيص من غير دليل يخصص .

مع المسيحيين فى حقيقة الأقانيم ومعانيها :

بالبحث والتقصى وراء معرفة المعنى الحقيقى للأقانيم نجد أن المسيحيين يتضاربون فى معناها ولايكادون يتفقون ، فمن قائل إنها صفات وخواص للجوهر الجامع لها ، ومن قائل إنها أشخاص مقومة له . ومن حقنا أن أن نناقش كلا القولين .

فإنها إن كانت صفات فلا يخلو أمرها من أن تكون صفات وخواص لأنفسها أو لغيرها ويستحيل بداهة أن تكون خواص وصفات لأنفسها ، لأن الصفة لاتوصف ، حيث يمتنع قيام العرض بالعرض ، وأيضا يلزم منه أن يكون الإبن ابن نفسه ، وأن يكون الروح روح نفسه ، وأن تكون الصفة صفة نفسها ، ويترتب على ذلك بطلان ونفى ماهى خواص له وهى ذواتها ، لأنها قد تلاشت بذلك ... فلا يكون هناك مايكون مخصوصا بهذه الخواص مادام أن الإبن ابن نفسه ، والروح روح نفسه وهكذا ، وبالتالى يكون فى هذا إبطال للجوهر ، فلا يتحقق له وجود ، لأن الخواص خـــواص نفسها ، والأقانيم أقانيم نفسها وهى صفات وخواص لاجوهرية فيها :

وإن كانت خواص وصفات لشىء آخر مغاير لها فقد ثبت أربعة معان أحدها جوهر والثلاثة الأقانيم صفات له وخواص ... وفى هذا القول بعد كل البعد عن التثليث لأنه ذات موصوفة بثلاث صفات ، فإن

قيل بذلك فقد يمموا شطر التوحيد ، وصاروا إلى القول بأن الله واحد وله صفات ، وهذا لامانع منه فى رأى الإسلام مع التحفظ بأن هذه الصفات ليست عين الذات ولا غيرها كما هو رأى مدرسة الأشعرى ، ولا أنها عين الذات كما هو رأى مدرسة الاعتزال .

وفى الحق أنه يلزمهم القول بالأشخاص لا بالصفات والخواص :

فأما أولا : فهم قد صرحوا بذلك كما هو الثابت عنهم فى الباب الأول بما لاخفاء فيه .

وأما ثانيا : فقد قالوا بالانتقال الحقيقى للكلمة الإلهية إلى المسيح حتى صار بذلك ابنا،وأيضا قالوا بالإنتقال الحقيقى للروح من الله الآب أو من الجوهر العام إلى الإبن ساعة كان يعتمد من يوحنا (يحيى) فى نهر الأردن : إذ رأى السماء قد انفتحت ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة وآتيا عليه ...) [1] .

ومعلوم أن المستقل بالانتقال لايكون إلا ذاتا ، وإثبات المتعدد من الذوات القديمة هو الكفر بإجماع أهل الملل دون إثبات صفات قديمة لذات واحدة ، وذلك لأن الانتقال من خواص الذوات لا من خواص الصفات ، وأيضا فان الصفات أعراض والعرض لايتأتى منه فعل ، وهم قالوا بأن المسيح الكلمة والإبن قد أتى بأفعال المعجزات والعجائب وجرت على يديه مختلف الخوارق، فإذن يمتنع أن يكون الإبن والروح صفات وأعراضا ، بل يلزم أن تكون ذوات ، هذا هو عين ما صرحوا به ... ولذلك فان منهم من يزعم أن الأقانيم عبارة عن أشخاص لها

---

(١) لوقا ٣ : ٢١ ، ٢٢

مشخصاتها ومميزاتها ، وحينئذ فإما أن تكون هذه الأشخاص أشخاصا لأنفسها أو أشخاصا لجوهر عام يجمعها كما هو المقرر عندهم .

فإن كانت أشخاصا لأنفسها فقد انتقضت عقيدة التثليث . لأنهم يقولون بأنهم أشخاص لجوهر عام جامع لها هى أقانيمه وأشخاصه ، وبتشخصاتها لأنفسها أصبحت غـــير مجتمعة فى جوهر عام كما هو المدعى .

وإن كانت أشخاصا لجوهر عام جامع لها وهو معتقدهم فقد بطل مذهب التثليث، لأنا قد أثبتنا بالعقل أن الجوهر مغاير لأقانيمه فهو رابع وإلا لزم المحال كما تقدم ، إذ كونه مغايرا فإما أن يكون مع الثلاثة رابعا ، أو غير إله فيستوى إثباته ونفيه ، وفى جواز ذلك يصح إثبات الأقانيم للجوهر ويصح نفيها فيكون واحدا ، وأقنوما واحدا ، وبذلك نعود إلى حقيقة التوحيد من غير تثليث ولا مفر من تلك النتيجة .

والخلاصة :

أنهم إن قالوا بأن الأقانيم صفات لجوهر جامع فقد تركوا القول بالتثليث لأنه جوهر واحد وله صفات ، وهذا الشق مع شيء من الدقة فى تغيير كلمة جوهر فى حق الذات يكون مقاربا لرأى الإسلام .

وإن قالوا بأن الأقانيم ذات متشخصة ومستقلة وهذا ما صرحوا به وليس إلزاما لهم فهو القول بالتعدد المحض ، فلم يعد إلها واحدا أحدا فردا صمدا بل آلهة متعددة ، وذوات متمايزة ،لأنه إذا وجد ثلاث حقائق قائمه بنفسها مجردة عن المادة أزلا وكل واحد منهم وجوده من مقتضى ذاته فلا معنى لهذا إلا وجود ثلاثة آلهة كاملة ، لأن الذى ذاته تقتضى الوجود يكون إلها كاملا من جميع الوجوه ، ومتى وجد آلهة ثلاثة كان من طبيعة

كل منهم التفرد بالسلطان المطلق ، لأن ضعف السلطان نقص ، وذلك يفضى إلى التنازع حتما فيختل نظام العالم وتتنازع الآلهة ، ويلزم عليه عقلا إن اتفقت الآلهة مفاسد التوارد ، وإن اختلفت لزم مفاسد التمانع. وتقديما لبرهانى التوارد والتمانع أقول : بأنه إذا وجد إله ذو ثلاثة أقانيم إلهية فإما أن تكون هذه الأقانيم ذواتا أو صفات،أولاذوات ولاصفات، والتالى بجميع أقسامه باطل ، فبطل القول بالأقانيم وثبتت الوحدة البسيطة غير المركبة .

أما الملازمة فظاهرة — وأما بطلان التالى ، فلأن الأقانيم إذا كانت ذواتا لزم تعدد الإله كما تقدم ، لأن كل ذات تغاير الأخرى من حيث التشخصات والمميزات الخاصة كما تبين من كلامهم.. وحينئذ فإما أن يوجدوا العالم جميعا ، أى مجتمعين ، فيلزم المحال ببرهان التوارد، وإما أن يتنازعوا جميعا فيلزم المحال ببرهان التمانع،وإذا كانت الأقانيم صفات والمفروض أنها ثلاثة كانت غير وافية بجميع صفات الكمال فيلزم النقص ، وهو محال فى حق البارى تعالى — وإذا كانت الأقانيم لا ذوات ولا صفات كانت أسماء بغير مسميات وهذا من العبث بمكان ، وإليك دليلى التوارد والتمانع :

برهان التوارد :

لو وجد آلهة ثلاثة وأراد الجميع إيجاد شىء — هو العالم — ، فإما أن يوجده الجميع بالاستقلال (أى بحيث يستقل كل واحد منهم بإيجاده بتمامه) فى وقت واحد لزم اجتماع مؤثرين مختلفين على أثر واحد ، ووقوع أثرهم عليه جميعا ، وهذا محال لما يلزم عليه من كون الأثر الواحد آثارا . وإما أن لا يوجده الجميع بالاستقلال بل أوجدوه متعاونين كما يتعاون ثلاثة صناع على صناعة ثوب واحد مثلا ، وهذا محال أيضا لما يلزم عليه من

كون كل إله منهم عاجزا، لأنه فى حاجة إلى من يعاونه من الآخرين ، وهذا الاحتياج ينافى وجوب الوجود للواجب لذاته ، فإن واجب الوجود هو غير المحتاج ، وأيضا فإن قدرة أحدهم وسلطانه ينقصان قدر ما أثرت فيه القدرة الأخرى وذلك نقص لا يليق بالإله أيضا .

وإما أن يوجده أحدهم فقط دون الآخرين وهو محال أيضا لما يلزمه من عجز الإلهين الآخرين ، حيث إن الأول بإيجاده لهذا الشىء قد سد على الآخرين إمكان تعلق قدرتهما بهذا الشىء ، فلا يكون العاجز منهم إلها ، وبالتالى فما جاز على الإلهين العاجزين يجوز على القادر منهم ، لأن الجميع متحد فى كل الصفات والخصائص الإلهية .

ويمكن تلخيص هذا الدليل بأن يقال : لو تعدد الإله لزم واحد من محالات ثلاثة هى : وقوع أثر واحد بين مؤثرين،أو عجز الجميع ، أو قدرة أحدهم وعجز الآخرين . وعجزهما عجز للقادر منهم لأن ما للمثل يجوز على مثله وبذلك تثبت الواحدانية ويبطل التعدد والشركاء

برهان التمانع :

حاصل هذا الدليل أنه لو وجد ثلاثة آلهة مساوون فى جميع كمالات القدرة والإرادة وسائر صفات الكمالات الإلهية وتعلقت إرادة أحدهم بشىء كحركة جسم ما مثلا ، فإما أن يتمكن الآخران من إرادة ضده وينفذ مرادهما فى نفس الوقت الذى أراده الأول أو لا يتمكنا ، والتالى بقسيمه باطل فبطل التعدد وثبتت الوحدة لله تعالى .

أما الملازمة فظاهرة ، وأما بطلان التالى فإنه إن لم يتمكن كل من الآخرين من إرادة ضد ما أراده الأول كانا عاجزين ، فلا يصلحان أن يكونا إلهين ، وإن تمكنا من إرادة الضد ، فان نفذ مراد الجميع لزم

إجتماع الضدين ، وهما حركة الجسم وسكونه فى آن واحد ، وذلك محال وإن لم ينفذ مراد الجميع بأن نفذ مراد الأول مثلا دون الآخرين كان الذى نفذ مراده هو الإله دون الآخرين ، وثبتت بذلك الوحدانية ، أو نقول : إن المفروض أن الجميع آلهة متساوون فى جميع كمالات القدرة والصفات الالهية ، فاذا عجز أحدهم لزم عجز الآخر والعجز على الله تعالى محال .

هذا مع ملاحظة ألا يقال إن تعلق قدرة أحد الآلهة بإيجاد الشىء جعلت وجوده واجبا وعدم وجوده مستحيلا فأصبح غير ممكن لغيره ، وأنت قد سقت الدليل على تعلق القدرة بالممكن فلا يكون عجز للآخرين، لأن العجز لا يتحقق إلا فى التعلق بالممكن والعجز عن وجوده ، لأنى أقول : إن الممكن وإن تعلقت به قدرة الإله لإيجاده فأصبح وجوده واجبا لغيره ، وعدم وجوده مستحيلا لغيره ، إلا أن ذلك لا يخرجه عن كونه ممكنا لذاته ، ضرورة عدم جواز الانقلاب ، وأما عدم نفاذ مراد أحد الآلهة فسببه أن نفاذ مراد الآخر قد سد عليه إمكان إرادة الضد مع كونه ممكنا فى ذاته ، فيكون من لم ينفذ مراده عاجزا ولا يصلح أن يكون إلها فاندفع ما قد يتوهم .

هذا ، وتبسيطا لعرض هذا الدليل نذكر نظمة هكذا[1] : لو وجد إلهان لما وجد العالم لكن العالم موجود بالمشاهدة . . إذن ليس هناك إلهان . وإذا بطل وجود إلهين يثبت نقيضه وهو وجود إله واحد ، وهذا الدليل يحتاج إلى بيان الملازمة فى المقدمة الكبرى بين وجود الإلهين وعدم وجود العالم، فنقول فى بيانها :

لو وجد إلهان متساويان فى القدرة وفى الإرادة لحصيل الخلاف

(١) انظر العقيدة الإسلامية والأخلاق . د/ محى الصافى بالاشتراك

بينهما ، بأن يريد أحدهما وجود العالم ويريد الآخر إعدامه ، أو يريد أحدهما حركة زيد مثلا ويريد الآخر سكونه ، وحينئذ يتحقق أحد فروض ثلاثة لارابع لها ، الأول : إما أن ينفذ مرادهما معا ، الثاني : وإما أن لا ينفذ مرادهما معا ، الثالث : وإما أن ينفذ مراد أحدهما دون الثاني . وعلى تقدير حصول أى من هذه الفروض يحصل محال ،

لأنه إذا نفذ مرادهما معا كان العالم موجودا معدوما ، أو يكون زيد متحركا ساكنا فى وقت واحد وهذا محال ، لأنه جمع للنقيضين .

وإذا لم ينفذ مرادهما معا كان العالم ليس موجودا وليس معدوما ، أن يكون زيد ليس متحركا وليس ساكنا ، وهو محال ، لأنه رفع للنقيضين ، هذا فضلا عن عجزهما الذى سيؤدى إلى عدم خلق العالم .

وإذا نفذ مراد أحدهما دون الآخر كان الذى لم ينفذ مراده عاجزا وعجزه يسرى إلى الأول ، لأن المفروض أنهما متساويان فى القدرة والإرادة ، وعجزهما يؤدى إلى عدم خلق العالم ، وهو باطل بالمشاهدة .

وكل هذه المحالات ترتبت على فرض وجود إلهين . وبالأولى تترتب هذه المحالات على فرض وجود ثلاثة آلهة ، وإذا بطل وجود إلهين أو ثلاثة ، فإنه يثبت وجود إله واحد ، لأن كل مايؤدى إلى المحال يكون محالا . وهى قضية بديهية .

والدليل العقلى اليقينى على إثبات صفة الوحدانية ذكره الله تعالى بقوله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » ، وهذه هى المقدمة الكبرى الشرطية فى القياس الاستثنائى ، وهناك مقدمة صغرى استثنائية محذوفة للعلم بها عن طريق النظر فى هذا العالم ، وهى : لكنهما لم تفسدا . إذن ليس هناك إله غير الله . وذلك لأن « إلا » فى الآية اسم بمعنى « غير » وليست أداة استثناء ، لفساد المعنى لو كانت إلا حرف استثناء ، لأن

المعنى سيكون هكذا . لو كان فيهما آلهة ليس فيهم الله لفسدتا ، فيقتضى بمفهومه أنه لو كان فيهما آلهة فيهم الله لم تفسدا ، وهو باطل . ومعنى لم تفسدا ، أى لم توجدا . ولم تكونا ، وضمير الإثنين راجع إلى السموات والأرض ، والدليل على عدم فسادهما أننا نشاهدهما موجودتين وفى غاية النظام والترتيب .

وهذا البرهان المأخوذ من الآية الكريمة يسمى برهان التمانع .

والآية حجة قطعية على إثبات الوحدانية ، ونفى الشريك لله تعالى بأى تصور كان .

التحكم فى خصوصيات الأقانيم ووظائفها وتسميتها من غير دليل :

إذا كانت الأقانيم جوهرا واحدا ، وكان الآب جوهره جوهر الإبن ، وجوهر الروح من جوهر الآب والإبن، فجعل الإبن إبنا والروح روحا ثم كون الإثنين خاصين للآب ليس بأولى من أن يكون الآب خاصا لأحدهما إذا جعل أبا ، لأن الإبن ابن الآب عند جميع المذاهب المسيحية ، والروح روح الآب والإبن منبثق من الآب وحده على رأى كنيسة الأسكندرية ومن وافقها ، وعلى ذلك فإن التحكم فى جعل الإبن إبنا وخاصا للآب وجعل الروح روحا وخاصا للآب أوله وللإبن تحكم لا مبرر له ، ولا دليل عليه ، ولا مرجح ، لأن المفروض أن الجميع متساوون فى الجوهرية وهو ما انتهوا إليه .

اللهم إلا إذا أرادوا امتيازا بين الثالوث فى الجوهرية ، به سار الآب آبا والإبن إبنا والروح روحا ، وبذلك الامتياز تحصل بنوة الإبن للآب وخاصا له ، ويحصل به أيضا كون الروح روحا للآب وخاصا له . ولكن تمايز الثالوث ينفى كونه واحدا ، لكنهم لم يروا امتيازا بين الجميع فى الجوهرية ، مع أن هذا الامتياز — أى التمايز بين الآب والإبن — هو

الذى نطق الإنجيل به على لسان المسيح فى قوله (أبى أعظم منى)[١] ، وعلى قول المسيح هذا يكون الأعظم هو الأكمل وهو الإله وليس سواه ، وتنحل بذلك قضية النزاع ، لأن الظاهر من قولة المسيح هذه أن مرتبة الآب أعلى من مرتبة الإبن ، ولا يصح أن يقال : إنه يريد أنه أعظم منه من حيث ناسوته ، لأن المراد بالناسوت هو الجسم البشرى المجرد ، وبقطع النظر عن كل ما يتعلق به من المعانى الروحية ، وكون الإله مفضلا على الجسم البشرى أمر مفروغ منه ومقرر لدى أدنى العقول . فلا يصح أن ذلك التفضيل يقصد إليه عاقل فضلا عن نبى فضلا من إله ، لأنه لا يخفى أن الإله أفضل من الأجساد عادة ؟ فلابد إذن أن يكون غرض المسيح تفضيل أقنوم الآب على أقنوم الإبن المزعوم .

أما تحكمهم فى التسمية ، فإنه إذا كان الإبن والروح القدس كل منهما جوهر نفسه وكان جوهرهما من جوهر الآب وكان الآب جوهراً لنفسه ثم هو قديم لذاته والإبن والروح أيضا قديمان لذاتيهما ، ولم يكن وجود الآب قبل الإبن والروح والخواص ، ولا هو أسبق فى الوجود منهما وليس الإبن والروح وخواص الجميع أسبق منه ، فما الذى جعله بأن يكون أبا ؟؟ . . إذ جعله أبا ليس بأولى من أن يكون كل منهما أبا لما جعل أبا له ، وأن يكون الآب خاصا ، وما الذى جعل الإبن ابنا ؟ إذ جعله ابنا ليس بأولى من أن يكون كل واحد من الآخرين ابنا لآب منهما ، وكذلك الشأن فى الروح القدس ، وفى هذا من التحكم المتبجح ما لا سبيل إلى تصحيحه ، أو التماس المبرر له ، ولجوء أيضا إلى القول بالتفاضل فى المرتبة بين أفراد الثالوث ، خاصة وأن الظاهر المتبادر أن الآب أعلى مرتبة من الإبن ، فالأقنوم الثانى أثر للأقنوم الأول لأنه كلمته أو تفكيره ، والأثر أثر لمؤثر فيكون ممكنا ، ومن يتحرى أقوال شراحهم ومفكريهم

---

(١) يوحنا : ١٤ : ٢٨

ترى أن الجميع يجمعون على أن الآب ينبوع الإبن وأن الإبن صادر عن تفكير الآب فى ذاته ، فيكون بذلك أثراً له حتما ، فكيف يكون الإبن ممكنا ويكون مع ذلك أحد الثالوث الإلهى ؟؟ مع ما هو مركوز فى العقول أن ما كان أحد أجزائه ممكنا فهو ممكن ، وتعالى سبحانه عن الإمكان والحدوث .

لايطلق على الله تعالى لفظ جوهر :

يطلق المسيحيون على الله تعالى أنه جوهر ، وهذا الإطلاق عندهم شائع مألوف ، وقالوا فى تصوير دعواهم : بأن الموجود إما غير مفتقر وجوده إلى غيره وهو الجوهر ، وإما مفتقر فى وجوده إلى غيره وهو العرض ، ولاواسطة بين مفتقر فى وجوده وغير مفتقر ، فانحصر الموجود بذلك فى الجوهر والعرض ، ثم زادوا فى التعريف قيودا فقالوا : بأن الجوهر المراد هو المتحيز لذاته الذى لا يقبل القسمة ، فاحترزوا بلفظ المتحيز لذاته من العرض ، فإنه متحيز لأجل قيامه بالجوهر لا لذاته ، وبلفظ لا يقبل القسمة ، احترازا من الجسم فإنه يقبل القسمة .. وتوضيحا لذلك قالوا : بأن الجوهر قسمان :

الأول : هو ما يقبل العرض وهو الجوهر الكثيف .

والثانى : لا يقبل العرض ولا يشغل الحيز وهو الجوهر اللطيف كالضوء والنفس والعقل ، ويستحيل أن يطلق على الله تعالى أنه عرض أو جوهر كثيف ، فيتعين أن يكون جوهراً لطيفاً .

ويؤول تعريف الجوهر الذي يطلقونه على الله إلى أنه :

المتحيز لذاته الذى لا يقبل القسمة ولا يفتقر فى وجوده إلى غيره وليس كثيفاً .

والعرض هو : المعنى المفتقر إلى متحيز يقوم به لا أنه يفتقر إليه فى وجوده بل وجود العرض وغيره من الله تعالى .

هذا ومن حقنا أن نناقش هذه الدعوى بتعاريفها لنبين فسادها بالعقل على قواعد علم الكلام والمنطق .

فأما أن الله جوهر فغير مسلم ، لأن الجوهر كالعرض مفتقر فى وجوده إلى غيره ولو إلى حيزه على الأقل ، وأما قصرهم تعريف الجوهر على ماعرفوه به فهذا قول من لا يعرف منطقا ولا فلسفة ، ولا يحيط بالعلوم والمعارف ، لأن الذى لا يفتقر فى وجوده إلى غيره هو الواجب لذاته وليس الجوهر ، والذى يفتقر فى وجوده إلى غيره هو الممكن الذى هو العرض والجوهر مطلقا وليس العرض فقط .

أما الجوهر فهو المتحيز كما صرحوا به فى التقييد الثانى ، وهو بناء على ذلك محتاج إلى غيره ، والعرض هو المحتاج إلى محل يقوم به . . فكلا الإثنين مما يفتقر فى وجوده إلى غيره ، ومن الخطأ إذن أن يطلق على الله جوهر .

وخطأ آخر فاحش هو تعريفهم للجوهر والعرض بما قد عرفوا . وكذلك قولهم بأن الجوهر اللطيف لا يشغل حيزا ، ولا يقبل عرضا ، وتمثيلهم لذلك بالعقل والنفس والضوء باطل كذلك .

فإن النفس متحيز وتقوم بها الأعراض ، فهى جوهر يقوم بها العلوم والظنون والإعتقادات ، واللذات ، والآلام ، وغير ذلك ، وكلها أعراض نفسانية . وكذلك العقل يقوم به الفكر ، والإحكام ، والمعارف ، وغيرها ، وهى أعراض . وأما الضوء فعرض يقوم بجواهر الهواء ، وليس من الجواهر فى شىء وهذا خطأ كبير .

الفصل الرابع

موقف العقل من قضية التثليث

لقد أعطى الإسلام للعقل ميزان العدل فى قضايا الألوهية ، وأناط به تكليف الإنسان وحسابه ، ولذلك فإن الإنسان قد أعفى من كل قضايا الدين وأركانه تقريباً ما لم يأته رسول من عند الله إلا قضية المعرفة — معرفة الإله — فإنه لا يعفى منها إنسان مهما كان مادام قد أعطى آلة العقل بالقدر الذى به يفكر ويتدبر حتى يصل إلى تلك المعرفة ، ولذلك فإن أهل الفترة لا يعفون من تلك المعرفة وهم يحاسبون على فواتها وإهمالها ما داموا يعقلون قال تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ...)[1] ، كما نجد القرآن يدفع إلى تحكيم العقل فى شئون المعرفة ورضى حكمه ، بل جعل حكمه هو الأول والأخير كمصدق على ما يأتى به الشرع الحكيم ويدل عليه ، وكم أشار القرآن إلى ضرورة الانتهاء إلى تأمل العقل فى ذلك وحكمه . قال تعالى : (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ...)[2] ، (قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون ...)[3] ، ولذلك ندد بالذين يهملون عقولهم ، وسلبهم شرف الكرامة الإنسانية ، وجعلهم من الدواب بل شر الدواب ، قال تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون)[4] .

ولقد أرجع أهل النار سبب تعذيبهم فيها إلى إهمالهم إعمال عقولهم ،

---

(١) النساء : ٤٧

(٢) البقرة : ٢٤٢

(٣) الحديد : ١٧

(٤) الأنفال : ٢٢

فقال إنه يحكى تلاومهم ، (وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ...)[١] .

وهكذا عنى القرآن بالعقل حتى جعله ميزان الكشف عن كل حق وعدل .

ويروى فى الأثر عن النبي — ﷺ — قوله : إن أول ما خلق الله العقل ثم قال له أقبل فأقبل ... فقال وعزتى وجلالى ما خلقت خلقاً أعز على منك فبك أعطى وبك أمنع وبك أثيب وبك أعاقب) ، فإن صح هذا الأثر فقد ارتبط إذن بالعقل كل السعادة فى الدنيا وفى الآخرة إذا استعمل فى وظيفته الحقة ، أما إذا أهمل الإنسان عقله وسار وراء التقليد فإنه الشقاء للانسان كل الشقاء فى الدنيا وفى الآخرة كما عز وجل : (ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون)[٢] .

وإذا كان رب العالمين قد ارتضاه حكما فى قضية الألوهية وموجباتها فإنه من الحق أن نعرض عليه عقيدة التثليث المسيحية لتعرف حكمه عليها.

يستحيل فى العقل تحقق الثلاثة فى واحد والواحد فى ثلاثة :

من المعلوم لدى علماء الكلام والفلسفة أن العدد عرض مندرج تحت مقولة الكم ، وكل كم سواء كان متصلا أو منفصلا لا يقوم بنفسه ، لأنه يعرض للمعدودات ويقوم بها ، فكل موجود إن كان ذاتا واحدة متشخصة، وممتازة امتيازا حقيقياً، تكون الوحدة الحقيقة عارضة له بالضرورة، وإن كان ذوات حقيقية التمايز عرضت لها الكثرة الحقيقية أيضاً بالضرورة ، وكل ما تعرض له الوحدة بالحقيقة لا تعرض له الكثرة كما لا تعرض الوحدة لما هو متكثر بالحقيقة ، وإلا لزم اجتماع الضدين الحقيقيين

---

(١) الملك : ١٠ — (٢) يونس : ١٠٠

فى شيء واحد حقيقى فى زمان واحد من جهة واحدة ، كأن يكون الواحد الحقيق فردا وزوجا فى آن واحد ، أو يكون الشيء واحداً وثلاثة فى آن واحد من جهة واحدة . وهذا محال .

وكذلك الأمر فى الصفات وأضدادها ، فلا يجوز اجتماع الصفة وضدها فى مكان أو محل واحد فى زمان واحد من جهة واحدة ، فلا يجوز أن تجتمع صفة السواد مع صفة البياض فى محل واحد على هذا الاعتبار ، وكذلك النور والظلمة ، والعمى والبصر ، والرطوبة واليبوسة ، والحرارة والبرودة ، والأبوة والبنوة ، وما إلى ذلك ... لأن فى كل ذلك اجتماع الضدين وهو محال بداهة .

إذا علمت هذا عرفت أن قول المسيحيين بوجود ثلاثة أقانيم إلهية فى كونها واحداً باطل ، فإنهم قالوا بوجود ثلاثة أقانيم قديمة واجبة الوجود لذواتها ، وأنها أشخاص متميزة ومتشخصة كما هو مبسوط فى باب تصوير عقائدهم حسبما صرحوا بها .

وعلى هذا يكون التثليث حقيقياً ، وبذلك يستحيل تحقيق الوحدة الحقيقة حال كونها ثلاثة ، لأنه يلزم أن يكون الشيء واحداً ثلاثة فى آن واحد ، فى زمان واحد ، من جهة واحدة ، وهذا محال لما تقدم ، فيلزم تعدد الواجب يقينا ، وهو باطل بداهة ، إذ يترتب عليه اشتراكهم فى وجوب الوجود وهو باطل ، فإن وجوب الوجود نفس ماهية الواجب ، والمشتركون فى الماهية لابد أن يتمايزوا بتعين يتميز به أحد الواجبين عن الآخر ، فإذن كل منهم مركب من الماهية والتعين ، والتركيب احتياج ، والاحتياج عين الإمكان فلا يكون الواجب لذاته واجباً لذاته .

كما يلزم أيضا على تعدد الواجب المماثلة للواجب ، وهى باطلة لما سيعلم من أنه تعالى ليس كمثله شيء .. ويلزم أيضا أنه ليس أحد الواجبين فى الخلق والإيجاد وإبداع العالم بأولى من الآخرين فى الثالوث ، لما يترتب عليه من الفساد العقلى .

كما لا يصح للقول بأن الثلاثة واحد بالإطلاق العام ، فمعلوم أن الواحد الحقيقي ليس له ثلث صحيح بخلاف الثلاثة فلها واحد صحيح . وأن الثلاثة مجموع آحاد ثلاثة ، أما الواحد الحقيقي فليس بمجموع آحاد أصلا ، ثم إن الواحد الحقيقى جزء الثلاثة ، فلو اتحد وجودهم فى محل واحد بحيث تكون هى هو وهو إياها ، للزم أن يكون الجزء كلا والكل جزءاً ، ويؤدى ذلك إلى لا نهائية المركب لاتحاد حقيقة الكل والجزء على هذا التقدير ، لأن الكل مركب ، وكل جزء من أجزائه مركب مثله تماما فى كمية مركباته التى منها عين هـــذا الجزء حيث صار الجزء عين الكل وهلم جرا .

فإذا أخذنا فى الاعتبار أن الجزء عين الكل ، والكل عين الجزء ، كان التركيب من أجزاء غير متناهية بالفعل وهو باطل ببرهان التسلسل .

على أن فى إطلاق الثلاثة على الواحد والحل واحد بالفعل يلزم عليه كون الواحد ثلث نفسه والثلاثة ثلث الواحد ... ويلزم كون الثلاثة أمثال نفسها ، والواحد ثلاثة أمثال الثلاثة ، وهـــذا باطل لا يقول به عاقل .

الدليل الثـانى :

لو كانت العلة الأولى فى وجود العالم ثلاثة أقانيم متميزة بالحقيقة ، فإما أن يكون وجودها اعتباريا أو حقيقيا ، فإن كان اعتباريا لزم ألا تكون العلة الأولى حقيقة محصلة فلا تصلح أن تكون مصدر لإيجاد ، وإن كان وجودها حقيقياً — بصرف النظر عن كون الأقانيم وجباء متعددين وما ترتب عليه — فإنه يكون احتياج وافتقار ، فإن كانت ذواتا كان احتياجها إلى بعضها فى الإيجاد يخرجها عن حقيقة الألوهية وكمالها .

وإن كانت أجزاء تألفت منها الذات فقــد صارت مركبة ، وكل مركب مفتقر إلى أجزائه بالضرورة فيكون ممكنا وهو باطل كما تقدم .

الدليل الثالث :

الامتياز بين الأقانيم إما أن يكون بصفات تحقق الكمال أولا ، فعلى الأول لا يحصل الكمال التام لكل أقنوم حيث أن مابهذا امتيازه من صفات الكمال ليس حاصلا للآخر ، وهذا نقص ، وهم لا يقولون بذلك . لأن كل أقنوم عندهم متصف بجميع صفات الكمال .

وعلى الثانى يكون كل أقنوم موصوفا بصفات ليست من صفات الكمال وهو باطل أيضاً .

القول بالحلول باطل بالعقل :

لو حل أقنوم الإبن فى الجسم فإما أن يكون الحلول على سبيل الوجوب أو على سبيل الجواز ، والأول لا سبيل إليه ، لأنه إما أن تكون ذاته كافية فى اقتضاء هذا الحلول أو لا تكون كافية فى ذلك ، فإن كانت ذاته كافية لم يتوقف هذا الاقتضاء على حصول شرط وهو وجود المحل المعد والقابل . وعلى ذلك يلزم ، إما قدم المحل أو حدوث الأقنوم وكلاهما باطل .

وإن كانت ذاته غير كافية فى اقتضاء الحلول كان كونه مقتضيا لذلك أمراً زائداً على ذاته حادثا فيه ، فيلزم من حدوث الحلول حدوث شيء فيه ، فيكون قابلا للحوادث وهذا باطل . لأنه لو كان كذلك لكانت تلك القابلية من لوازم ذاته وكانت حاصلة له أزلا ، وقبوله للحوادث وحصولها فيه أزلا محال .

وإن كان الحلول على سبيل الجواز فإن ذلك الحلول يكون زائداً على ذات الأقنوم القديم، فإذا حـــل فى الجسم وجب أن يحل فيه صفة محدثه، وحلول صفة محدثة فى القـديم يستلزم كونه قابلا للحوادث أيضاً وهو محال كما تقدم، ولما هومعلوم أن قيام الحادث بالقديم يلزمه إماحدوث القديم أو قدم الحادث .

الدليل الثـانى :

لو حلت الـكلمة فى جســــد المسيح أو خالطته فهى فى حال الحلول إماصفة أو ذاتا . فإن كانت صفة فإن فارقت الآب فقد بقى الله بدون كلمة وهو نقص لا يليق بذاته تعالى ، وأيضا يلزم عليه انتقال الصفات وهو محال، لأن الانتقال من خصائص الذوات لا الصفات والأعراض . وإن لم تفارقه لزم قيام الصفة الواحدة بمـكانين مختلفين فى وقت واحد وهو محال ، لأنه يستحيل قيام البياض فى محل مع قيامه عينه فى محل آخر ...

وإن كانت الـكلمة حال الحلول ذاتا فإن فارقت الآب لزم التعـدد حيث إن الانتقال يستلزم الاستقلال فى الذات والصفات ، وتعـدد الآلهة محال ببرهانى التوارد والتمانع ، كما يلزم أيضاً انتفاء الذات بانتفاء جزئها المنتقل : وإن لم تفارق الآب لزم وجود ذات واحدة فى مكانين مختلفين وشغلها حيزين متباينين فى زمان واحد وهو محال .

الدليل الثالث :

قالوا بأن الإبن الحال بالناسوت إله غير محدود ولا متناه ، وقد حل فى جسد ابن مريم الإنسان وهو محدود ومتناه . ونقول لإبطال ذلك :

لو حل اللا محدود بالمحدود للزم إما محدودية اللامحدود أولا محدودية المحدود والتالى باطل .

بيان الملازمة : أنه لو حل الإبن بفرض أنه لا يحده مكان أو جهة أو زمان بمقتضى ألوهيته فى جسد إنسان وهو محدود ذو أبعاد محصورة متناهية لأصبح اللا محدود محدوداً متناهياً حيث إن الوعاء الذى حل فيه محدود ، وكذلك فالإنسان المحدود المتناهى يصبح لا محدوداً وذلك لأنه أصبح حاويا للا محدود .

أما بطلان التالى : فلأن صيرورة اللا محدود محدوداً والمحدود لا محدود محال ، لما فيه من انقلاب الطبائع والنقص للإله ، حيث قد حل في جزئي محدود ، وصيرورة المحدود الجزئي لا محدوداً ، لكي يصبح احتواؤه اللا محدود وجعل الصغير يحتوي أعظم منه ظاهر البطلان . على أن قبول اللامتناهى للزيادة والنقصان يجعله ممكنا ، وقد فرض واجباً وهو باطل ، لما يلزم عليه من تكون الإبن محدثا وهو قديم فى زعمهم .

القول بالاتحاد باطل عقلا :

الدليل الأول :

حقيقة القديم ما ليس لوجوده بداية وكان وجوده من ذاته ، وحقيقة الحادث ما وجد بعد عدم وكان وجوده من غيره ، فلو اتحد اللاهوت القديم بالناسوت الحادث ، فإما أن ينقلب القديم بالاتحاد حادثا أو ينقلب الحادث بالاتحاد قديماً ، أو يبقى كل واحد على طبيعته ، ومحال أن ينقلب القديم حادثا أو الحادث قديماً لاستحالة انقلاب الطبائع والحقائق ، ولما يلزمه من كون الشيء الواحد قديماً حادثا في آن واحد وهو محال ، ولم يبق بعد ذلك إلا بقاء كل واحد على حقيقته ، وإذن فلا اتحاد أصلا ولا يكون المسيح بالاتحاد إلها حيث عدم تحققه ... ويمكن صياغة الدليل بتشقيق آخر فيقال : في حالة اتحاد اللاهوت بالناسوت . إما أن تتلاشى طبيعة أحدهما في طبيعة الآخر فلم يبق إلا واحد ، والمعدوم لا يبنى عليه حكم فلا اتحاد ، لأن المعدوم لا يتحد بالموجود ، وإما أن يبقى الإثنان بطبيعتهما فلا اتحاد أصلا لأنهما اثنان لا واحد ، وإما أن يتحول الإثنان إلى طبيعة جديدة تغايرهما فلا هي هذا ولا هي ذاك ، فلا معنى للاتحاد ، وأيضاً حيث قد تولدت حقيقة ثالثة .

الدليل الثاني :

اتحاد اللاهوت بالناسوت لا يخلو من أربعة :

(الأول) أن يكون اتحاد بمعنى امتزاج واختلاط كامتزاج اللبن والخمر بالماء ، وهذا باطل ، فإن امتزاج القديم بالحادث محال لما تقدم .

(الثانى) أن يكون الاتحاد معناه صيرورتها شيئاً واحداً كالحديدة المحماة بالنار على حد زعمهم ، وهذا المعنى ظاهر البطلان ، لأن الحرارة الداخلة على الحديد عرض لا يستمر . دخل عليها بواسطة مجاورة النار لها ، والنار جسم بخلاف الحرارة ، وفرق بين الجسم والعرض ، فسقط زعمهم فى تشبيه اتحاد اللاهوت بالناسوت بالحديدة وحرارة النار ، حيث تبين أن الاتحاد هنا إنما هو بين عرض وجسم .

(الثالث) أن يكون الاتحاد بمعنى المجاورة كمجاورة الثوب للبدن ، والشمس على الجدار ، وليس فى هذا معنى الاتحاد ، إذ الاتحاد هو جعل المتحدين شيئاً واحداً بلا تمايز بينهما ، وإذن فالاتحاد بين المتجاورين محال ، إذ من المعلوم أن ضوء الشمس أجزاء منتشرة ومنبسطة على ما وقعت عليه كالجدار مثلا ، بسبب أن الله يخلق الأضواء والأنوار فى أجرام الهواء الكائن بين السماء والأرض ، فلا اتحاد إذن بين ضـــوء الشمس والجدار ، وكذلك الثوب والبدن يتجاوران ولا يتحدان فمحال أن يتجاور القديم والحادث .

(الرابع) أن يكون الاتحاد بمعنى الاتصاف . فيصير اللاهوت صفة للناسوت كالعلم والقدرة والإرادة . وهذا محال لما تبين من استحالة انتقال الصفة من موصوف إلى آخر .. ولما تبين أيضاً من أن الكلمة فى حال انتقالها من الجوهر العام لتتحد بالناسوت يلزم خلوه منها فيكون ناقصاً . ولأنه إذا صح إرسال الكلمة لتتصل بالغير المباين ليتصف بها وهى صفة بالاتفاق فيصح إذن إرسال الألوان ، والطعوم ، والروائح ، والعلوم والظنون بمفردها من غير انتقال محالها ، وهذا محال ببديهة العقل . . ثم إنه إن صح إرسال الكلمة على هذا الوجه فإنه يصح أن يرسل الله سائر صفاته كما أرسل نطقه أى كلمته ، وهذا باطل ، كما تقدم . . . وكيف يتصور أن المعانى تنقلب أجساماً ؟ مع أن المعانى مفتقرة للمحال لذاتها والأجسام مستغنية

عن المحال لذاتها ، فكيف ينتقل المفتقر لذاته مستغنيا لذاته ، وذلك كانقلاب الممكن واجباً لذاته والزوج فرداً والسواد بياضاً .

الدليل الثالث :

القول باتحاد اللاهوت بالناسوت إما أن يكون كمالا أو نقصا ، فإن كان للكمال لزم أن يكون هذا الاتحاد حاصلا فى الأزل، وأن اللاهوت لم يزل متحداً بالناسوت غير متخلف عنه أبداً ، وهذا قبل وجود الناسوت محال . . . وإن كان الاتحاد نقصاً فقد أوجبوا النقص على الإله وهو محال .

الدليل الرابع :

الاتحاد فعل من الأفعال صار به المتحد متحداً وصار به المسيح مسيحا . فهذا الفعل إما أن يكون له فاعل أو لا . . فإن لم يكن له فاعل فعله جاز أن يقع كل فعل من غير فاعل ، وينسحب ذلك على جميع الأفعال ، ويؤدى ذلك إلى نفى الصانع ، وهذا باطل ، لما هو معلوم أن العالم متغير ، وكل متغير حادث وكل حادث لابد له من محدث ، ولما فى الكون من آيات الإعجاز فى الصنع والإبداع وشهادة الوجدان على ذلك، إلى غير ذلك من أدلة توجب صانعاً للعالم .

وإذ كان بالضرورة لكل فعل فاعل فهناك للاتحاد فاعل فعله ، وكان به المتحد متحداً ، وهذا الفاعل إما أن يكون هو الجوهر العام الجامع للأقانيم أولا؟ . فإن كان هو الجوهر الجامع لزم أن يكون المتحد بالناسوت هو الجوهر لاغير ، فإن الأصل فى الالتزام أن المتحد هو الذى فعل الاتحاد فصار به متحداً . ويجب أن يكون هو الإله دون سواه ، وإن كان الفاعل هو الجوهر والأقانيم فإن الاتحاد لا يختص بأقنوم من الأقانيم ،

فلم اختص الإبن بالاتحاد دون سائر الأقانيم والجوهر الجامع؟ وإذن فاختصاص أقنوم الإبن بذلك دون بقية الأقانيم تحكم وترجيح بدون مرجح . وإن كان فاعل الاتحاد الأقانيم دون الجوهر الجامع فكذلك. أى لا يترجح اختصاص الإبن بالاتحاد دون الآب والروح القدس .

وربما قيل : لعل الأقنوم الإبن اختص منفرداً بهذا الفعل الذى هو الاتحاد كما اختص كل أقنوم بأفعال أخرى منفرداً بها ، ولكن ذلك غير مسموع حيث لا دليل عليه ، وكل احتمال عار عن الدليل باطل ولا يلتفت إليه ، كما أن ذلك من باب التخصيص من غير مخصص.

على أنه إذا كان أحد الأقانيم انفرد بفعل الاتحاد دون الجوهر الجامع فأية مزية للجوهر عليه؟ وما المانع من كونه أصلا والجوهر أقنوم له !!! وعلى فرض أن الإبن هو المتحد بناسوت عيسى وحده دون الآب وروح القدس والفرض أنه غير منفصل عنهما ولا مباين للجوهر العام ، فكيف يكون متفرداً بالاتحاد دونهما ودون الجوهر؟ مع كون الجميع واحداً كما هو المتفق عليه عندهم ، ومعلوم بالضرورة كذلك أن مريم ولدت الإبن دون الآب ودون الروح القدس ، فكيف يكون هو المولود دونهما مع كون الثالوث واحدا ، غير منفصل ولا مباين ولا متجزىء؟

الدليل الخامس :

زعموا أن الإبن اتحد بجسد عيسى فصار إلهاً تاماً بلاهوته وإنساناً تاما بناسوته ، ثم قيل إنه صلب وقتل فداء وكفارة.

ونقول : إما أن يكون الاتحاد باقيا فى حال الصلب أم لا ؟ فإن كان باقياً ، فالذى مات هو المسيح ذو الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية ، وإذن فيجب أن يكون الإبن الإله قد مات حالة الصلب والقتل ، وإذا مات

الإبن في هذه الحالة لم يكن إلهاً ، لأن موت الإله نقص لا يليق به ، ولو جاز ذلك لجاز موت الآب والروح القدس ، لأن ماجاز على أحد الثلاثة المتماثلة يجوز على باقى الثالوث من حيث إن الثالوث يتساوى فى جميع الخصائص .

وإن كان الاتحاد حال الصلب غير باق بل زال وبطل لزم أن يكون المقتول صلبا هو الإنسان لاغير دون اللاهوت المتحد به لزوال الاتحاد ، فبطل إذن أن يكون المصلوب إلهاً بل إنسانا تاما لا لاهوت فيه فينتفى القول بموت الإبن كفارة وفداء .

موقف علماء الإسلام من القول بالحلول والاتحاد :

أعرض هنا طائفة من آراء علماء المسلمين وأحكامهم على القائلين بالحلول أو الاتحاد عامة :

قال الإمام الغزالى فى باب المحبة من كتابه الإحياء : (وضل النصارى فى عيسى — عليه السلام — فقالوا : هو الإله . وقال آخرون : تدرع الناسوت باللاهوت . وقال آخرون اتحد به ، وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الاتحاد والحلول ، واتضح لهم وجه الصواب فهم الأقلون) .

وقال إمام الحرمين فى الإرشاد : (أصل مذهب النصارى أن الاتحاد لم يقع إلا بالمسيح — عليه السلام — دون غيره من الأنبياء واختلفت مذاهبهم فيه ، فذهب بعضهم أن المعنى به حلول الكلمة جسد المسيح ومخالطته مخالطة الخمر باللبن وهذا كله خبط) .

وقال الأستاذ أبو بكر بن فورك فى كتابه المسمى بالنظام فى أصول

الدين (قالت النصارى إن عيسى — عليه السلام — لاهوتى ناسوتى، وتكلموا فى حلول الكلمة لمريم — عليها السلام — فمنهم من قال : إن الكلمة حلت فى مريم حلول الممازجة كما يحل الماء فى اللبن حلول الممازجة والمخالطة. ومنهم من قال : إنها حلت فيها من غير ممازجة كما أن شخص الإنسان يتبين فى المرآة الصقيلة من غير ممازجة بينهما. ومنهم من قال: إن مثل اللاهوت مع الناسوت مثل الخاتم مع الشمع فى أنه يؤثر فيه حتى يبين فيه النقش ثم لا يبقى فيه شىء من الأثر، والأول طريقة اليعقوبية والثانى طريقة الملكية، والثالث طريق النسطورية) ثم قال : (واعلم أنهم قالوا بالاتحاد، فقالت طائفة منهم فى معنى الاتحاد، الكلمة التى هى كفر حلت جسد المسيح وقالت اليعقوبية : إن الاتحاد اختلاط وامتزاج، وزعمت أن الكلمة الله انقلبت لحما ودما بالاتحاد. وقالت طائفة منهم : إن الاتحاد هو أنه ادرعها باظهار روح القدس عليه. وقد حكينا عمن قال يجرى هذا الاتحاد مجرى وقوع الهيئة فى المرآة والنقش فى الخاتم والشمع وما جرى مجراه .

ويقال لهذه الطائفة منهم : إن ظهور هذه الصورة فى المرآة والشىء الصقيل ليس اختلاط شىء بشىء ولا انتقال شىء إلى شىء، بل أجرى الله العادة بأن الواحد إذا قابل الشىء الصقيل خلق الله له رؤية يرى بها نفسه، وأما أن يكون فى الصقيل شىء فلا، أما ترى أنه إن لمس وجهه فوجه نفسه لمس، لا وجه ظهر فيه، نعلم أنه ليس فى المرآة شىء، وهذا القول يوجب عليهم الإقرار بأنه ليس من القديم سبحانه وتعالى فى مريم، ولا فى عيسى — عليهما السلام — شىء ويبطل عليهم القول بأنه لاهوتى وناسوتى، وكذلك القول فى الخاتم ونقشه مع الشمع، فليس يحصل من الخاتم فى الشمع شىء، وإنما يتركب الشمع تركيبا من بعضه فى بعض. ثم

إن هذا الذى ذكروه كله إنما يجوز بين المتماسين المتجاورين المتلاصقين الجسمين المحدودين اللذين يجوز فيهما حلول الحوادث وتغير الأوصاف، والله تعالى منزه عن ذلك كله . وأما قولهم : إن الكلمة انقلبت لحما ودما فلا يجوز ، لأنه لو جاز ذلك لجاز أن ينقلب القديم محدثا ، ولو جاز ذلك لجاز انقلاب المحدث قديما فيبطل الفصل بينهما وهذا محال فبطل ما قالوه . . . » .

وقال الإمام فخر الدين الرازى فى كتاب المحصل فى أصول الدين .
مسألة : ألبارى تعالى لا يتحد بغيره ، لأنه حال الاتحاد إن بقيا موجودين فهما اثنان لا واحد ، وإن صارا معدومين فلم يتحدا بل صارا ثالثا ، وإن عدم أحدهما وبقى الآخر فلم يتحد الآن لأن المعدوم لا يتحد بالموجود .

وقال الإمام أقضى القضاة أبو الحسن الماوردى صاحب الحاوى الكبير فى مناظرة ناظرها لبعض النصارى فى ذلك : (القائل بالحلول أو الاتحاد ليس من المسلمين بالشريعة بل فى الظاهر والتسمية ، ولا ينفع التنزيه مع القول بالاتحاد والحلول ، فإن دعوى التنزيه مع ذلك إلحاد ، وكيف يصح توحيد مع اعتقاد أنه سبحانه حل فى البشر المأخوذ من مريم، وهنا لك حلوله : إما حلول عرض فى جوهر فيقولون بأنه عرض، أو حلول تداخل الأجسام فهو جسم ، وهنا لك : إن حــــل ، كله فقد انحصر فى القالب البشرى وصار ذا نهاية وبداية ، أو بعضه فقد انقسم وتبعض ، كل هذه الأمور أباطيل وتضاليل . .) .

وقال القاضى عياض فى الشفاء مامعناه: أجمع المسلمون على كفر أصحاب الحلول ، ومن ادعى — أى وعلى كفر من ادعى — حلول البارى سبحانه فى أحد الأشخاص كقول بعض المتصوفة والباطنية والنصارى والقرامطة

وقال فى موضع آخر . . وجاز عليه الحلول والانتقال والامتزاج من النصارى ، ونقله عنه النووى فى شرح مسلم .

وقال القاضى ناصر الدين البيضاوى فى تفسير قوله تعالى :(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) هذا قول اليعقوبية القائلون بالاتحاد .. وقال فى قوله تعالى:(أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه)[١]، أى ألا يتوبون بالانتهاء عن تلك العقائد والأقوال الزائفة، ويستغفرونه بالتوحيد والتنزيه عن الاتحاد والحلول بعد هذا التقرير والتهديد .

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام فى قواعده الكبرى : ومن زعم أن الإله يحل في شيء من أجساد الناس أو غيرهم فهو كافر ، لأن الشرع إنما عفى عن المجسمة لغلبة التجسيم على الناس ، فإنهم لا يفهمون موجوداً فى غير جهة بخلاف الحلول فانه لا يعم الابتلاء به، ولا يخطر على قلب عاقل فلا يعفى عنه .

أقول : إنه لا يجرى فى تكفيرهم الخلاف الذى جرى فى المجسمة بل يقطع بتكفير القائلين بالحلول إجماعاً وإن جرى فى المجسمة خلاف .

وقال سهل بن عبد الله التسترى ... والدليل على بطلان اتحاد العبد مع الله تعالى أن الاتحاد بين مربوبين محال، فان رجلين مثلا لا يصير أحدهما عين الآخر لتباينهما فى ذاتيهما كما هو معلوم . فالتباين بين العبد والرب سبحانه وتعالى أعظم .

فإذن أصل الاتحاد باطل محال مردود شرعا وعقلا وعرفا بإجماع الأنبياء والأولياء ومشايخ الصوفية وسائر العلماء والمسلمين ، ومن قال

---

(١) المائدة / ٧٤

بذلك الاتحاد فتقد تشابه بالنصارى القائلين فى عيسى بأنه اتحد ناسوته بلاهوته.

شهادة مسيحى بأن الثالوث أكذوبة :

هذا ويحسن أن أردف أحكام علماء الاسلام هذه بتعقيب لأحد علماء المسيحية الذى لم يستسغ القول بالثالوث ليتم اللقاء بين النظر الإسلامى والنظر المسيحى المتحرر — وأود التنبيه بأن هذا العالم يؤمن بمقالة بولس وهى أن الله آب وابن ولا يؤمن بالروح القدس كما يفهم من كلامه، يقول ذلك العالم المتبحر فى كتابه (الغنى) تحت عنوان (الثالوث) ما نصه[1] :

(والأكذوبة الأخرى التى صنعها الشيطان وقال بها يقصد إهانة اسم الله وإبعاد الناس عنه هى (الثالوث) هو التعليم الذى يعلم به دعاة الدين (الممالك المسيحية) وملخصه هكذا : يوجد ثلاثة آلهة فى إله واحد، الله الآب والله الإبن والله الروح القدس، وكلهم متساوون فى القدرة والجوهر والأزلية، ولكن لا أحد يستطيع تفسير هذا التعليم لأنه كذب. وهو التعليم الذى كان بارزاً فى ديانتى بابل ومصر القديمتين، وبين أصحاب الأوهام والخرافات وكلها ديانات إبليسية.

وإذا سألت معلما بالثالوث لكى يفسره لك لأجاب حسب العادة المستحكمة (هذا سر لا تستطيع فهمه. وكان أول من أدخله إلى (المسيحية المنظمة) إكليريكى يونانى فى القرن الرابع. فكانوا يأتون بتمثال، أو شكل مثلث الزوايا، أو دائرة، أو ورقة من النبات المثلث الشكل، أو شيئاً مثلث الرؤس كمثال للدرس، ليساعدوا البسطاء من الناس على الاحتفاظ به

---

(١) كتاب (الغنى) تأليف : ج. ف. رذرفورد. طبع فى الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٢٦، ص ١٩٣ فصل (الكذب) فقرة (الثالوث) والمؤلف متبحر فى تأليف الكتب الخلاصية وقد عزا إلى نفسه أنه مؤلف كتب المصالحة والحكومة والخلاص والخليقة والقيامة

أو عا مافى الذهن . فالذين كانوا مغرمين بالتظاهر كفهماء سقطوا غنيمة باردة لمكر إبليس الرجيم واستميلوا للابتعاد عن حق كلمة الله ، ولاصطناع تماثيل للاستعمال فى عبادتهم ، واستمالة آخرين للاعتقاد بوجود ليس إله واحد فقط قادر على كل شىء بل ثلاثة آلهة . ويقول الكتاب المقدس بشأن هؤلاء الحمق : بل حمقوا فى أفكارهم وأظلم قلبهم الغبي وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء وأبدلوا مجد الله الذى لا يفنى بشبه صورة الإنسان الذى يفنى (رومية ١ : ٢١ — ٢٣) ويدل الكتاب المقدس دلالة قطعية على أنه لا يوجد غير إله واحد قادر على كل شىء ومانح الحياة للمخلوقات ... ولقد قال يهوه [1] عند ما أعطى شريعته للإنسان : (أنا يهوه إلهك ... لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ، لاتصنع لك تمثالا منحوتاً ولا صورة ما ، مما فى السماء من فوق ، وما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض (خروج ٢٠ : ٢ — ٤) . (أنا الرب «يهوه» هذا إسمى) (وليس آخر) «إشعياء ٤٢ ، ٨ ، ٤٥ : ٥» (وآب واحد للكل) «أف ٤ : ٦» . هو الملك السرمدى لا بداية ولا نهاية له (أما الرب الإله فحق هو إله حى وملك أبدى ، من سخطه ترتعد الأرض ولا تطيق الأمم غضبه) «أرمياء ١٠ : ١٠» ، «تثنية ٣٣ : ٢٧» ... ولما فرغ يسوع من عمله صلى إلى يهوه الله ابيه وقال : (أيها الآب مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً) فهو فى تلك الحادثة قد تلفظ بالصلاة المكتوبة فى الإصحاح السابع عشر من يوحنا وقد وجهها بجملتها إلى يهوه أبيه . فلو كان الآب والإبن واحداً فى الجوهر والأزلية فلماذا يصلى الواحد لنفسه — وقد قال يسوع غير مرة (أنا والآب واحد) «يوحنا ١٠ : ٣٠» ولكنه لم يعن أنهما كانا شخصا أو جوهراً واحداً ، بل إنهما كانا معا فى وحدة واحدة ، وعاملين دائما على تمام الاتفاق . وقد أوضح يسوع بصلاته للآب معنى كلمة (واحد)

---

(١) يهوه : اسم الإله فى التوراة ، وهو إله اليهود ، هكذا يسمونه وهكذا يعتقدون اختصاصهم بالإله .

بقوله : (ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط بل أيضا من أجل الذين يؤمنون بي بكلامهم ليكون الجميع واحدا كما أنك أنت أيها الآب في وأنا فيك ليكونوا هم أيضا واحد فينا ليؤمن العالم أنك أرسلتني) « يوحنا ١٧ : ٢٠ و ٢١ » فيسوع الإبن قد أرسل من السماء إلى الأرض ليبذل حياته عن جنس البشر (السارق لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويهلك وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل أما أنا فإني الراعي الصالح وأعرف خاصتي وخاصتي تعرفني ، كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب وأنا أضع نفسي عن الخراف) « يوحنا ١٠ : ١٠ و ١٤ و ١٥ » . فلو كان الآب والإبن واحداً في الجوهر لاستحال على الإبن بذل حياته ثمنا فدائيا عن الإنسان ... ثم يستطرد الكاتب في حديثه فيتكلم عن الروح القدس فيقول : (ترجمت كلمة (روح) عن اليونانية كما يجب ولكنها لا تعني شخصا أو مخلوقا أو كائنا ، بل كل ما تعنيه هو قوة يهوه الله الخفية عن لحاظ البشر ، فالروح إذن معناها قوة يهوه الخفية الموقوفة بجملتها للبر والقداسة) . ثم يعود إلى التنديد بالثالوث وعدم استناده على حجة أو برهان فيقول : (إن تعليم الثالوث لا سند له في الكتاب المقدس مطلقا بل على العكس من ذلك فان الكتاب يبرهن بما لا يقبل الرد على أنه تعليم إبليس دسه بمكر في الناس لإفساد إيمانهم بيهوه الله .... ولهذا يظهر بوضوح قطعي أن تعليم (الثالوث الأقدس) كما يسمونه هو أكذوبة أخرى من أكاذيب الشيطان الرجيم)[1] .

ونحن إزاء هذا النص المضيء بنور الحقيقة الذي ينطق به مسيحي يدين بدين المسيح على مذهب بولس، لا نملك إلا أن نؤكده ونقول به كمنكرين لثالوثية الإله من غير أن نقره على نعت المسيح بالبنوة المختصة بالفدائية أو اختصاصه بأي من نعوت الألوهية . كما أننا نقول : إن للحق أنصاراً ورجالا وإن أحاطت به غياهب الوهم والضلال .

---

(١) الغنى / ج . ف . رذرفورد / ١٩٣ — ١٩٧

خاتمـــة فى :

مناظرة بين الفخر الرازى وأحد القساوسة

حدث أن التقى الإمام الهمام فخر الدين الرازى — رحمه الله رحمة واسعة — بأحد القساوسة بـ(خوارزم) وتناظرا فى ألوهية المسيح وما يجب أن يكون للبارى من أحكام . وقد سجل هذه المناظرة — رحمه الله — عند تفسيره قول الله تعالى : (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)[1] قال رحمه الله .

إتفق أنى كنت (بخوارزم) فأخبرت أنه جاء نصرانى يدعى التحقيق والتعمق فى مذهبهم ، فذهبت إليه وشرعنا فى الحديث، فقال لى : ما الدليل على نبوة (محمد) ﷺ — فقلت له : كما نقل إلينا ظهور الخوارق على يد موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء عليهم السلام نقل ظهور الخوارق على يد (محمد) — ﷺ — فإن رددنا التواتر وقلنا إن المعجزة لا تدل على الصدق بطلت نبوة سائر الأنبياء — عليهم السلام — وإن قبلنا واعترفنا بصحة التواتر ، اعترفنا بدلالة المعجزة على الصدق ، ثم إنهما حاصلان فى حق (محمد) ﷺ — فوجب الاعتراف قطعا بنبوة (محمد) — ﷺ — ضرورة ، إذ عند الاستواء فى الدليل لا بد من الاستواء فى حصول المدلول، فقال النصرانى : لا أقول فى عيسى — عليه السلام — أنه كان نبياً بل أقول إنه كان إلهاً ، فقلت : الكلام فى النبوة لا بد أن يكون مسبوقا بمعرفة الإله ، وهذا الذى تقوله باطل ، ويدل أن الإله عبارة عن موجود واجب الوجود لذاته ، يجب ألا يكون جسما ، ولا متميزاً ولا عرضاً ، وعيسى عبارة عن هذا الشخص البشرى الجسمانى الذى وجد بعد أن كان معدوما وقتل بعد أن كان حيا على قولكم ، وكان طفلا أولا ثم صار مترعرعا ،

---

(١) آل عمران : ٦١ .

ثم صار شابا ، وكان يأكل ويشرب ، ويحدث ، وينام ويستيقظ ، وقد تقرر في بداهة العقول أن المحدث لا يكون قديما ، والمحتاج لا يكون غنيا ، والممكن لا يكون واجبا ، والمتغير لا يكون دائما .

الوجه الثاني في إبطال هذه المقالة : أنكم تعترفون أن اليهود أخذوه وصلبوه وتركوه حيا على الخشبة وقد مزقوا ضلعه ، وأنه كان يحتال في الهرب منهم وفي الاختفاء عنهم ، وحين عاملوه بتلك المعاملات أظهر الجزع الشديد . فإن كان إلها أو كان الإله حالا فيه أو كان جزء من الإله حالا فيه فلم لم يدفعهم عن نفسه ولم لم يهلكهم بالكلية ؟ وأي حاجة به إلى إظهار الجزع منهم والاحتيال في الفرار منهم ؟ ، وبالله إنني لأتعجب جداً أن العاقل كيف يليق أن يقول هذا القول ويعتقد صحته فتكاد أن تكون بداهة العقل شاهدة بفساده .

الوجه الثالث : وهو أنه إما أن يقال بأن الإله هو هذا الشخص الجسماني المشاهد أو يقال حل الإله بكليته أو حل بعض الإله وجزء منه فيه ، والأقسام الثلاثة باطلة .

أما الأول : فلأن إله العالم لو كان هو ذلك الجسم فحين قتله اليهود كان ذلك قولا بأن اليهود قتلوا إله العالم فكيف بقي العالم بعد ذلك من غير إله ؟ ثم إن أشد الناس ذلا ودناءة اليهود ، فالإله الذي تقتله اليهود إله في غاية العجز ،

وأما الثاني : وهو أن الإله بكليته حل في هذا الجسم فهو أيضا فاسد لأن الإله إن لم يكن جسما ولا عرضا امتنع حلوله في الجسم ، وإن كان جسما فحينئذ يكون حلوله في جسم آخر عبارة عن اختلاط أجزائه بأجزاء ذلك الجسم وذلك يوجب وقوع التفرق في أجزاء ذلك الإله ، وإن كان عرضاً كان محتاجا إلى المحل وكان الإله محتاجا إلى غيره وكل ذلك سخيف .

وأما الثالث : وهو أنه حل فيه بعض من أبعاض الإله وجزء من أجزائه ، فذلك أيضا محال . لأن ذلك الجزء إن كان معتبراً في الإلهية فعند

انفصاله عن الإله وجب أن لا يبقى الإله إلها وإن لم يكن معتبرا فى تحقق الإلهية لم يكن جزءاً من الإله فثبت فساد هـــذه الأقسام فكان قول النصارى باطلا .

الوجه الرابع : فى بطلان قول النصارى ماثبت بالتواتر من أن عيسى — عليه السلام — كان عظيم الرغبة فى العبادة والطاعة لله تعالى ، ولو كان إلها لاستحال ذلك لأن الإله لا يعبد نفسه . فهذه وجوه فى غاية الجلاء والظهور دالة على فساد قولهم ، ثم قلت للنصرانى : وما الذى دلك على كونه إلها ؟ فقال : الذى دل عليه ظهور العجائب عليه من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص ، وذلك لا يكون حصوله إلا بقدرة الإله تعالى فقلت له : هل تسلم أنه لايلزم من عدم الدليل عدم المدلول . أم لا ؟ فإن لم تسلم لزمك من نفى العالم فى الأزل نفى الصانع ، وإن سلمت أنه لايلزم من عدم الدليل عدم المدلول فأقول : لما جوزت حلول الإله فى بدن عيسى - عليه السلام - فكيف عرفت أن الإله ماحل بدنى وبدنك وفى بدن كل حيوان ونبات وجماد . فقال : الفرق ظاهر . وذلك لأنى إنما حكمت بذلك الحلول لأنه ظهرت تلك الأفعال العجيبة عليه ، والأفعال العجيبة ماظهرت على يدى ولا على يديك . فعلمنا أن ذلك الحلول مفقود ، وههنا ، فقلت له : تبين الآن أنك ماعرفت معنى قولى أنه لايلزم من عدم الدليل عدم المدلول، وذلك لأن عدم ظهور تلك الخوارق منى ومنك ليس فيه إلا أنه لم يوجد ذلك الدليل ، فإن ثبت أنه لايلزم من عدم الدليل عدم المدلول لايلزم من عدم ظهور تلك الخوارق منى ومنك ليس فيه إلا أنه لم يوجد ذلك الدليل . فإذا ثبت أنه لايلزم من عدم الدليل عدم المدلول لايلزم من عدم ظهور تلك الخوارق منى ومنك عدم المدلول فى حقى وحقك ، بل وفى حق الكلب والسنور والفأر . ثم قلت : إن مذهبا يؤدى القول به إلى تجويز حلول ذات الله فى بدن الكلب والذباب لفى غاية الخسة والركاكة .

الوجه الخامس : إن قلب العصا حية أبعد فى العقل من إعادة الميت حيا، لأن المشاكلة بين بدن الحى وبين الميت أكثر من المشاكلة بين الخشبة

وبين بطن الثعبان ، فاذا لم يوجب قلب العصا حية كون موسى — عليه السلام — إلها وابنا للإله فبأن لايدل إحياء الموتى على الإلهية أولى .

وعند هذا انقطع النصرانى ولم يبق له كلام . والله أعلم .

هذا، وأنقل هنا أيضا حكاية طريفة تناقلتها كتب التفسير وعلم الكلام والفلسفة على السواء . وهى إن دلت على شىء فهى إنما تصور أن عقيدة التثليث لايمكن هضم فكرتها ومعناها لا بالعقل ولا بالوجدان ... أما القصة فيحكى أنه :

تنصر ثلاثة أشخاص وعلمهم بعض القسيسين العقائد الضرورية وخاصة عقيدة التثليث أس العقائد ، وقد كانوا فى خدمة ذلك القسيس، فجاءه أحد أحبائه يوما وسأله عمن تنصر عنده ، فقال تنصر ثلاثة أشخاص ، فسأله هل تعلموا شيئا من العقائد الضرورية ؟ فقال القسيس : نعم . وطلب واحدا منهم ، ولما حضر أمامه سأله القسيس عن عقيدة التثليث ، فقال :

لقد علمتنى أن الآلهة ثلاثة أحدهم الذى هو فى السماء ، والثانى تولد من بطن مريم العذراء ، والثالث الذى نزل فى صورة الحمام على الإله الثانى بعد ماصار الإبن ثلاثين عاما . فغضب القسيس وطرده .

وقال هذا جاهل لا يصلح ، ثم طلب الثانى منهم ، وسأله نفس السؤال فقال له : إنك علمتنى أن الآلهة كانوا ثلاثة ، وصلب واحد منهم فالباقى إلهان ، فغضب عليه القسيس أيضا وطرده .

ثم طلب الثالث ، وكان ذكيا بالنسبة للأولين وحريصا فى حفظ العقائد فسأله السؤال : فقال : يامولاى ، لقد حفظت ماعلمتنى حفظا جيدا وفهمت فهما كاملا بفضل الرب المسيح أن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد وصلب واحد منهم ومات فمات الكل لأجل الاتحاد ولا إله الآن وإلا يلزم نفى الاتحاد .

وسواء صح وقوع هذه الحادثة أم لم يصح فإنها تبين فى مضمونها ومعناها أن عقيدة التثليث غير مفهومة مهما قلبناها على كافة وجوهها .

هذا، والله الهادى إلى سواء السبيل .

الباب الثالث

الينابيع والراوفد التي تكونت منها المسيحية

(.. وقالت النصارى المسيح ابن الله
ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول
الذين كفروا من قبل ...)
(التوبة : ٣٠)

لم يأت المسيح – عليه السلام – بالعقائد والتعاليم التي احتوتها المسيحية الحالية ، إذ قد تبين بالبحث والتحقيق أن الإنجيل وهو المصدر الأول والأصيل لهذه الديانة لم ينطق بالتثليث قط بل قال بالتوحيد الخالص لله عزوجل [1] . وإذا تحدث عن موضوع الصلب كان فى ثنايا حديثه مايؤكد نجاة المسيح منه ووقوعه على غيره [2] كما مر ذلك فى بابه .

وما هذه العقائد إلا آثار استجمعت من شتات العقائد من الديانات السابقة والفلسفات السالفة . وإلى هذه المصادر أشار القرآن الكريم فى قوله تعالى .. (وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون) وقد رتبوا على بنوة المسيح لله ألوهيته ، ثم مازعموه من أنه صلب فداء عن البشر ، وفى إسناد القرآن لما قيل فى المسيح إلى عقائد وأفكار الكافرين من الأمم

---

(١) متى ١٩ : ١٧ ومرقس ١ : ٢٩

(٢) إقرأ كتابنا / قصة موت المسيح وقيامه فى ميزان النقد العلمى والكتب المقدسة .

السابقة لفتة منه للعقل ، وحث له على أن يدأب فى تتبع هذه الروافد ليصل إلى الينابيع الأولى للمسيحية وأصولها فى أعماق الماضى من العقائد ، وكانت هذه اللفتة من القرآن بعد بيانه حقيقة المسيح ورسالته، ثم أكدته السنة المحمدية وبينته كما سبق .

وأم الآثار التى ساهمت فى تكوين المسيحية هى اليهودية المستهلنة ، والعقائد الوثنية السالفة ، والفكر الفلسفى اليونانى منه والإسكندرى ممثلا فى الأفلاطونية الحديثة .



الفصل الأول

أثر اليهودية المستهلنة على المسيحية

فيلون اليهودي والمسيحية الوضعية[1] :

لقد استقى بولس ويوحنا إلهامهما من فيض خواطر فيلون وأفكاره وآرائه الدينية والفلسفية[2] وكان فيلون معاصرا للمسيح، وربما لم يسمع

---

(١) المسيحية الوضعية هي التي وضع لاهوتها بولس الرسول بعد فصلها عن اليهودية، مستلهما رسالته من وحي الفكر الفيلوني واليوناني الفلسفي منه والديني، ثم شاد ذلك اللاهوت يوحنا الإنجيلي، ثم أكمل البناء فعل المجامع متخذا لبناته من الأفلاطونية الجديدة، وعقيدة الثالوث الوثني ... وتلك هي المسيحية الحالية.

(٢) ولد فيلون في الأسكندرية نحو عام ٢٠ أو ٣٠ قبل الميلاد، ومات بعد عام ٥٤ من القرن الأول الميلادي، أي في زمن الحواريين، وكان كبير المنزلة بين أبناء جنسه وطائفته اليهود، حتى أرسل على رأس وفد إلى رومة ممثلا لها لدى الإمبراطور (كاليجولا) التماسا للعدالة بالنسبة لليهود، وتظلما من الحاكم (فلاكوس) وكان ذلك بعد أن تجاوز الستين من عمره. وهو فيلسوف إسكندري في آرائه الفلسفية والدينية، وقد درس الفلسفة اليونانية وسائر الفلسفات التي كانت الأسكندرية تموج بها في عصره، وقد بلغ من علو مرتبته في الفلسفة الإغريقية أنه كان يلقب (بالأفلاطوني) أو (بأفلاطون اليهود)؛ ذلك بأن فلسفته كانت تقوم بعد=

عنه ، ولكنه قد أسهم على غير علم منه فى تكوين اللاهوت المسيحى ... ويتبين ذلك من عرض لبعض آرائه ونظرياته الفلسفية والدينية، لنرى أنها مكررة بهيئتها فى العقائد والتعاليم المسيحية . فنظرية الخلق عنده مثلا أن الله لكى يخلق العالم استخدم لذلك كائنات وسطى وقال : إن فى وسعنا أن نتصور هذه الكائنات فى صورة أشخاص . وهى تكون مايسميه الرواقيون الكلمة أو العقل الإلهى ، خالق العالم ، وكان فيلون يتأرجح بين الفلسفة واللاهوت وبين التجسيد ، ولهذا كان يفكر فى العقل الإلهى مرة كأنه شخص وأخرى يسميه أول ماولد الله ... وابن الله من الحكمة العذراء ويقول : إنه عن طريق الكلمة كشف الله عن نفسه للإنسان.

فإذا مارأينا ذلك عند فيلون وقرأنا مطلع رسالة بولس إلى العبرانيين رأينا وحدة الينبوع بين القولين والمذهبين .

ولقد عالج فيلون فكرا ... دينية بالفكر الفلسفية ، إذ أنه كان

= التوراة والتفكير اليهودى على فلسفة أفلاطون والمذاهب الأفلاطونية عامة ، وقد جعل هدفه التوفيق بين الكتاب المقدس وعادات اليهود من جهة والآراء اليونانية وبخاصة آراء أفلاطون من جهة أخرى. ومع هذا وذاك فلم تخل فلسفة فيلون وآراؤه من التـــأثر ببعض التفكير الشرقى ومذاهبه، ومن ثم كان لفلسفته — وهذه مصادرها — الأثر الذى لاينكر فى الأفلاطونية المحدثة ، والمسيحية الحاليـــة ، وكان ذلك بفضل دعاة النصرانية الذين أفادوا منها . وهذا هو السر فى أن فيلون قد شغل أول الأمر اللاهوتيين والمؤرخين الذين يبحثون عن أصول المسيحية ، ومن المعروف أن نشاط فيلون العقلى قد ازدهر وأثر مفعوله فى الأربعين سنة الأولى من القرن الأول المسيحى فقد كتب آخر مؤلفاته فى عام ٤١ م.

لا يفصل بين الفلسفة والدين، ولكنه يتخذ الدين أصلا ويشرحه بالفلسفة، ومن هذا المنزع أخذ يوحنا وبولس لاهوتهما ، فمثلا كان هناك فى الفكر الهليني عقيدة أن (أفكار الله) هى النموذج الذى شكلت الأشياء كلها بمقتضاه وهى عقيدة بطليموس ، ومنه تسلم الواقيون هذه الفكرة، وبدل أن تكون أفكارا جمعوها فى واحدة ، وقالوا : إنها (فكرة الله المخصبة) ثم مرت هذه الفكرة بطور جديد عند الفيثاغوريين الجدد ، جسدوا هذه الأفكار وجعلوها شخصا قدسيا .

ثم استوت الفكرة عند فيلون وانصهرت ، فاستحالت فى فلسفته إلى عقل الله ، أى أنها عنصر وكائن ثان يخلق الله به الخلق وعن طريقه يتصل بالعالم

إذا عرفنا كل هذا وتذكرناه فى أذهاننا ونحن نطالع بداية إنجيل يوحنا مع ملاحظة أن لفظه Logos الإغريقية الأصل قد ترجمت فى العربية إلى (كلمة) وهى (الله) عند أفلاطون باعتباره أصل فكرة المثل عنده ، فإذا لاحظنا كل ذلك أدركنا لأول وهلة أن يوحنا قد سار على درب الفلاسفة ، وأصبح كأحدهم وخاصة فيلون .

وذلك فى قوله فى بدء إنجيله (فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله ... كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس ... والكلمة صار جسداً وحل بيننا) .

فقد أريد بالكلمة (اللوغوس) ابن الله — أى الشخص الثانى من الثالوث — فى اللاهوت المسيحى ، وحين يقول فيلون كما قال أفلاطون : بأن الله آب وخالق العالم ، ويسميه مخلصا أو منجيا ، فإن هذا هو مكانة الله عند القديس بولس منشىء المسيحية ، إذ ينعت الله بأنه (آب وخالق)

كما يعطى المسيح وظيفة النجاة والخلاص[١] ، وإذا نسب أفلوطين إلى الرواقين تعريفا يقول (بأن الله جسد بلا كيف)[٢] فان بولس يقول (بأن الله ظهر فى الجسد)[٣] ويقول (منهم المسيح حسب الجسد الكائن على الكل إلها مباركا إلى الأبد)[٤] .

ولشد ما يندهش المرء حين يقرأ ما عند اليونان وفى الدين المصرى القديم عن آلهة لمعان مجردة، وأنها ذوات غير مشخصة يتوجه إليها بالعبادة مثل (مايا) إلهة الحقيقة ، وقد قبل ذلك فيلون فقال : بأن اللوغوس والأقانيم كائنات مجردة ، ثم نجد عند بولس أن يسوع المسيح أقنوم الإبن ذات غير مشخصة، إلا أنه تشخص بالتأنس فى جسد الإنسان رحمة بالإنسان، قال بولس عن يسوع : (الذى إذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله لكنه أخلى نفسه آخذا صورة عبد صائرا فى شبه الناس)[٥] .

والذى نلمحه من قول بولس هذا أن أقنوم الإبن كان قبل التأنس إلها مجردا ، وذاتا غــير مشخصة ، إذ هو صورة الله ، ثم تشخص بالجسد ليفدى بجسده أصحاب الجسد من بنى آدم على غرار ما فى الديانات السرية أو الخفية التى ملىء بها عصره .

---

(١) الرسالة الأولى إلى كورنثوس ٨ : ٦ والأولى إلى تيموثاوس ١ : ١٥ والثانية إلى تيموثاس ١ : ٩ والرسالة إلى رومية ١١ : ٣٦ .

(٢) أنظر برهيية الآراء .. لفيلون ص ١٠٧ .

(٣) تيموثاوس الأولى ٣ : ١٦

(٤) رومية ٩ : ٥ (٥) فيلبى ٢ : ٦ — ٨ .

أصل فكرة اللاهوت فى المسيحية وولادة الإله من عذراء :

لقد وجدت المسيحية فى بيئة مليئة بالأساطير ، سواء منها ما يتعلق بالدين الشعبي العام ، أو ما هو منوط بالأفكار والآراء الفلسفية الهيلينة .. فإذا قدر لنا أن نجوب عالم هذه الأساطير فمن غير شك سوف نجد بين كائناتها جذوراً أصيلة لعقيدة الثالوث الإلهى وما لآلهتها من لاهوتية تبدوا لأول وهلة أنها هى لاهوت المسيحية ، فهناك فى عصر التأويل المجازى تصوراً للأساطير مثل أسطورة الكائنات النصف محسوسة والنصف مجردة ، وهذا ما يعبر عنه تماما باللاهوت والناسوت المتحدين فى شخص الإبن عند المسيحيين . هذه الكائنات مثل (زوس) لدى الرواقيين ، فان الإله (زوس) باتحاده (بمايا) كان منهما (هرمس) وهو ينطبق تمام المطابقة على لوغوس فيلون فى كل صفاته وسماته ، فكما أن هرمس هو اللوغوس الذى أرسلته الآلهة من السماء نحونا ، نجد لدى فيلون أن الله حين لم يتنزل للمجىء نحو المحسوسات (أرسل لوغوساته لمساعدة أصدقاء الفضيلة) فاللوغوس عنده يقوم بدور الوسيط تماما كما هو شأن هرمس الذى تصوره منجيا أو مخلصا ، وكما أن هرمس لاهوت نتاج إلهين كذلك لوغوس فيلوم هو ابن الله .

فإذا ما ذكرنا ذلك وقرأنا بداية رسالة بولس إلى العبرانيين التى تقول : (الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديما بأنواع وطرق مختلفة كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى ابنه الذى جعله وارثا لكل شيء ، الذى به أيضا عمل العالمين ... وأيضا أكون له أبا وهو يكون لى إبنا وأيضا متى أدخل البكر إلى العالم يقول ولتسجد له كل ملائكة الله ...) .

أدركنا مدى ما تأثر به بولس واضع اللاهوت المسيحى من فيلون

المعلم الأول لذلك اللاهوت ، فقد جعل بولس الله منزلا من السماء ليكلم البشر المحسوسين بلسان ابنه المسيح كما هى وظيفة لوغوس فيلون الذى هو الإبن اللاهوتى الوسيط المرسل من أبيه الإله كما لهرمس تماما .

ولعل هذا التطور لفكرة اللاهوت المجسد قد أعطى الناس منه بولس وبرنابا نصيبا كبيراً حيث كانا يبشران فى مدينة ليكأونية ، فأطلق السكان على بولس اسم هرمس لأنه كما ظنوا يحمل (كلمة الله) بينما سمى برنابا (زفس أى زوس)[1] فقد أعطاهما الناس لاهوتا كما أعطى المسيح بفضل الكلمة . لما رأوا على أيديهما من كرامات ربما كان بولس وقتها صادق الإيمان لم يبدأ دعوته الجديدة .

وأخيراً فإن تشخص الكلمة الإلهية لدى فيلون قد كان له ما يوازيه فى أسطورتى زوس فى اليونانية ، وأزريس فى المصرية المستهلنة ، وإذن ففى الوسع أن نقول بأن بولس الذى عاش فى هذه البيئة ونشأ فيها ، قد عرف كل هذا النتاج الفكرى والعقدى ، وطعم به صرح كنيسته فجعل اللاهوت سداها ولحمتها .

فكرة ولادة الإله من عذراء :

أما فكرة ولادة الإله من عذراء فإنه كما تحدثت الفلسفات القديمة عن الإله كآب ، تحدثوا عن الأم ، وكثيرا ما أطلقوا عليها اسم (الحكمة) لتكون أم الأشياء الطاهرة . وهذه الحكمة دون دنس أو تدنيس ، إنها العذراء الحقة ، وليست العذراء التى يمكن أن ينالها دنس بل العذرة نفسها ، وهى التى اتحد بها الإله ، فكان النتاج من ذلك الإتحاد هو (هرمس) فى الهللينية . (وهورس) الذى هو نتاج الاتحاد بين إزيس وأوزريس فى المصرية القديمة . فلعل هذا هو مرجع الأمر فى المسيحية

---

(١) أعمال ١٤ : ١١ ، ١٢ .

فى أن مريم أم الإله التي حل فيها متخذاً لنفسه هيكل الإنسان . وربما كان صدى هذه المعانى ما نقرأه ونسمعه من أقوال بولس التى يهتف بها فى رحاب المسيحية من اتحاد الله بالعذراء وحلوله فيها دون مساس بعذرتها ، أو تدنيس لطهارتها ، ولا يبعد أن تكون هذه الأم قد اتخذت إلهة أيضا بل هذا ماقرره القرآن فى قوله تعالى : (وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله[١] . .) وهذا القول أحد الصراعات التى اكتنفت مرحلة تثبيت لاهوت المسيح كما مر فى الباب الأول .

وعلى هذا النمط كان ثالوث المسيحية فى نزعته الفلسفية الإغريقية الفيلونية ، وكما انحدرت هذه العقيدة إلى فيلون من اليونانية والمصرية انتهى انحدارها إلى المسيحية من فيلون عن طريق بولس .

ومعانى اللوغوس الفيلونى والكلمة عند بولس تكاد تتفق تمام الاتفاق ، فإن الثابت لدى فيلون أن اللوغوس وسيط بين الإله الأعلى والإنسان وفى ذلك قال بولس (يوجد إله واحد ووسيط واحد بين الإله والناس الإنسان يسوع المسيح . .)[٢] .

واللوغوس عند فيلون : [أول مولود لله رئيس الملائكة ، ذو الأسماء العديدة يسمى أيضا ، مبدأ ، اسم الله ، لوغوس ، إنسان حسب الصورة ، المطلع ، إسرائيل] إذن نحن نضع فى منزلة واحدة اللوغوس رئيس الملائكة ، الحكمة ، اسم الله ، الإنسان المثالى ، النبى ، أو وحى الله ، صورة الله[٣] ، وهكذا يكون المسيح أيضا إنسانا حسب

(١) المائدة/١١٦

(٢) تيموثاس الأولى ٢ : ٥ .

(٣) بريهيه (الآراء .. لفيلون ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

الصورة[١] وهو الله[٢] وأنه فوق الملائكة[٣] وأنه صورة أبيه الخالق بلاهوته[٤] وهو النبي[٥] وهو أول ما ولد الله أو بكر الخلائق[٦] .

وكذلك نجد كل تصور عن الله أو الوسطاء فى فلسفة أفلاطون الممتزجة بالرواقية قد انتقل إلى المسيحية عن طريق بولس أو يوحنا فى الأعم الأغلب بواسطة فيلون اليهودى الذى صاغ هذه الفلسفة فى صورة جديدة مبنية فى أغلب الأحيان على الرمز والتأويل بما يتلائم والكتاب المقدس ، وكل دراسة حول الكتاب المقدس سواء من فيلون أو من غيره ليست غريبة عن رسل المسيحية الذين يرتبطون بذلك الكتاب ارتباط الروح بالجسد .

الثالوث فى الكتاب المقدس عند فيلون :

لقد تصور فيلون الإله مثلثا ، فهو يرى أن الله له قوتان .. القوة الخالقة أو الرحمة ، والقوة الملكية أى المشرعة المحاسبة ، صاحبة السلطان والقانون ، وقد عرف فيلون الكائن الأعلى فى تجلياته للإنسان بحالة جسمية ،وذلك خلال ما ملىء به الكتاب المقدس فى أحاديثه عن ظهور الله واتخاذه أشكالا محسوسة — وإن كان هذا فيما أورى مستحيلا فى جانب الله جائزاً فى حق الملك — بفتح اللام ، أى من الملائكة — بل هو المطابق للحق والمنطق — ولما كانت هذه التجليات تمس وحدة البارى وبساطته فقد التمس لها فيلون المجاز والتأويل كعادته ، وفى تصوره لقصة ضيوف

---

(١) الرسالة إلى فيلبى ٢ : ٦ (٢) يوحنا ١ : ١

(٣) عبرانيين ١ : ٤ (٤) فيلبي ٢ : ٦

(٥) لوقا ٢٤ : ١٩ (٦) عبرانيين ١ : ٦

إبراهيم الثلاثة الواردة فى سفر التكوين[١] مايوثق الصلة بين نظرة فيلون فى تأويله وثالوث المسيحية ، فقد صور الثالوث الذى ظهر لإبراهيم بأن الكائن الأعلى فى الوسط وتحف به قوتان ، فعن يمينه القوة الموجدة وتسمى الإله ، وعن يساره القوة الملكية التى تسمى السيد الرب ، وهذا الثالوث عنده غير قابل للتجزئة (فقد أبيح فى هذه الرؤية) — رؤية إبراهيم الضيوف — أن يكون الثلاثة واحداً ، وأن يكون الواحد ثلاثة، وتتآمر القوتان فى سبيل فائدتنا . فإذا ماانفصلتا لسبب وظيفتيهما المختلفة اتصلتا واتفقتا لتكونا تابعتين كليهما لرأفة الله ، إنهما تتحدان لا لتحد كل منهما الأخرى . ولكن لتصبحا واحدة ، ولا لتضعف كل منهما فعل الأخرى على العالم أو على النفس ، بل لتتقويا فى الوحدة الإلهية ، فبالحب يلهمهما الله بأنهما متحدان معا وهذه النظرية من المساتير الخاصة بالكائن الأعلى وبقواه .

فنى قصة الظهور الإلهى هذه المقتبسة من الكتاب المقدس والتى أولت كما نظر فيلون إلى معانيها نضع أيدينا على جذور عقيدة التثليث المسيحية وتعرفنا ببذورها الأولى ، فقد جعل القوة الموجدة التى تسمى الإله مكانها عن يمين كما هو وضع المسيح حاليا فى المسيحية عن يمين أبيه من غير فرق ، والقوة الأخرى سميت ربا كما أطلقوا ذلك على الروح القدس بأنه رب محي وإن أعطوها للمسيح أيضا ، وكما قال المسيحيون بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، ولكن من غير تعليل لكيفية ذلك ، بل أعلنوا العجز عن تعليلها ، ترى أيضا أن الواحد ثلاثة عند فيلون ، ولكنه علل لذلك بأن هذه حالة النفس فى رقيها فى المعرفة وبعد تسلمها سنن الارتياض الموصل إلى المعرفة الحقيقية لا المعرفة الظنية أما هذه المعرفة

---

(١) اقرأ الإصحاح الثامن عشر .

الثانية فهى للنفس التى لم يمكن تفكيرها نقيا نقاء تاما ، لأنها لاتكون قد ارتاضت بعد على الأمراض الكبيرة ولذلك فهى ترى الواحد ثلاثة

فهذه نظرية فيلون فى الثالوث وتحليلها ومنه أخذتها المسيحية الجديدة، وإن كان بريهييه[1] يرى أنها مأخوذة عن فلسفة أفلاطون ، ولكن هذا لايغير نزوع المسيحية إليها . فالمهم أنها أمسكت بتلابيب هذه العقيدة ، ومما يدهش له ما يقوله فيلون من أن الثالوث غير قابل للتجزئة ، فالثلاثة واحد والواحد ثلاثة ، وأن قوتا الإله متفقتان من أجل فائدة البشر كما نطق بذلك المسيحيون تماما. وأن الاتفاق فى الثالوث مرتبط بوثاق المحبة، وهذا ماهتفوا به بلسان بولس (الله محبة) وأنه لم تنفصل قوتا الإله عندهم إلا حين تتحق رأفة الله ورحمته بالبشر . لأنه هكذا رأوا أن أقنوم الإبن هبط إلى الأرض متجاوزا أباه ولو من بعض الوجوه من أجل تحقيق عدل الله ورحمته بالإنسانية بعد ما انفصل أيضا الروح القدس إلى الإبن ليحققا معا ذلك الهدف الأسمى كما يزعمون ، ولولا ذلك لما لمس البشر شيئا من رحمة الله وحنانه .

وقبل أن يغادر الحديث بولس أود أن ألفت النظر إلى أن بولس هذا كان يعلم عبادة العناصر والقوى ، وربما كان أحد عبادها كما قد يتبادر من قوله : (عندما كنا صغارا كنا مستعبدين لعناصر العالم) « غلاطية ٤ : ٣ » وأيا ما كان فبولس الرسول كان يحيط بكل معارف عصره ودياناتهم إحاطة تامة وكاملة عن اختيار وتجربة ، وهذا هو مفتاح اللغز .

---

(١) بريهييه هو مؤلف كتاب : الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الأسكندرى ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى .

من فيلون إلى يوحنا الإنجيلي :

نستطيع أن نقدم لهذه الفقرة بأن نعيد إلى الأذهان ما مر من أن يوحنا كتب إنجيله فى عهد شيخوخته وقد تم نضجه ونزع نزعة ميتافيزيقية، وكان ذلك فى عام (٩٠ م) وقد عاش بين أصداء الفكر اليونانى الدينى والفلسفى وخاصة منه الجانب التصوفى، مما ألقى طبقة سميكة على ذكريات يوحنا عن المسيح وعهده به ، وغاب عنه حرارة الانفعال بالصورة الحقيقية للمسيح الإنسان ، وذلك لما كان يحوطه من جو فكرى يفيض بالنزوع الدائب إلى (استكناه) الإله ، والدولة آنذاك وإن كانت رومانية الهيكل إلا أنها كانت يونانية الروح فلسفة ودينا ولغة ، فإن اليونانية كانت لغة الدولة ، وهى لغة العلم والأدب ، كما كان فى الوسط اليهودى آنذاك عقيدة تقول بأن حكمة الله كانت شيئاً حياً . . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان يوحنا قد عمر ما يستوعب حياة جيلين فى هذه البيئة الهيلينية المتأججة بالفلسفة ، وعلى قرب منها هذه النزعة اليهودية وأمثالها من نزعات التجسد الإلهى .. لم يكن عجيباً أن يصبغ يوحنا بالصبغة اليونانية ما فى اليهودية من عقيدة كون الحكمة كانت شيئاً حياً ، وعقيدة المسيح المنتظر ، فصاغ الكلمة من جديد فجعلها الله الذى خلق الخلق وصار جسداً للجمع بين الدين والفلسفة فى الحكمة التى صيروها حية ثم مثلتها فى المسيح (الكلمة) ، لتوائم صياغته ما فى العقل اليونانى من عقيدة عقل الله الذى يخلق به الخلق ويتصل بالعالم عن طريقه ، وأنه عنصر ثان كما هو عند فيلون ، وربما عزز ذلك ما عرفنا من أن ملأ القساوسة المسيحيين من آسيا اجتمعوا وأوحوا إلى يوحنا بأن يكتب لهم عن لاهوت المسيح[1] ، ولعل

---

(١) قال ذلك أحد الرهبان المسيحيين نقلا عن كتاب الفارق بين المخلوق والخالق ص ٣٤٢

ذلك لما رأوه من تفوقه دون إخوانه الإنجيليين فى المعرفة بالفلسفة التى تجمع فى إطارها ما فى اليهودية والفلسفة من تجسد فكر الله والحكمة ، وإلمامه كذلك بما بذره بولس من قبل ، وإلا فكيف غاب عن متى وصاحبيه ما فى الكلمة من تجسد وخلق للعالم ؟؟

ولقد مر من قبل أنه فى هذا الوقت ومن قبله كان القول بالوسطاء شائعاً ، وكان البعض يسميهم (مثلا) أخذا من الأفلاطونية اليونانية ، والبعض يسميهم (كلمات) تمشيا مع الرواقيين الذين كانوا يعنون بها القوى الطبيعية ، والبعض يدمج الكلمات فى الكلمة . وفيلون اليهودى الأسكندرى يدعوهم بالقوات أو الملائكة ، وعلى ذلك نستطيع أن نقول كما قال (ول ديورانت) إن يوحنا واصل عرف مابدأه بولس من فصل المسيحية عن اليهودية ، فلم يعرض المسيح على العالم كما كان يعرضه عليه من قبل بوصفه يهوديا ملتزما للشريعة .. بل أبعده عن اليهود .. ولم يكن (مسيحا منتظراً) أرسل لينجى خراف إسرائيل الضالة ، بل كان ابن الله الخالد معه وهو الخالق للكون[1] .. فإذا نظرنا إلى المسيح هذه النظرة كان فى وسعنا أن نغفل إلى حد ماحياة الرجل يسوع اليهودية ، إذ نراها تذوى ويذهب سناها . . أما فكرة المسيح الإله فقد هضمتها وامتصتها تقاليد العقل المستهلن الدينية والفلسفية ، ومن ثم كان فى وسع العالم الوثنى أن يحتضنها ويرضى بها . . وما على المرء إلا أن يضم العلاقة التى لا يمكن إنكارها بين نظرية فيلون فى (اللوغوس) ونظرية الإنجيل الرابع ليرى الدلالة التاريخية المذهب الفيلونى وأثره على التصور الأساسى المسيحية حسب فهم يوحنا . وأعنى بذلك تصور : المسيح — الكلمة — فإن اللوغوس عند فيلون ظل الله نفسه ، وأن الله أنشأ بواسطته كلكلمة وحدات لا تنقسم ، وهى إله ثان يناسب غير الكاملين ، وقد صنع الله به

---

(١) إقرأ ول ديورانت / قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ ض ٢١٠

العالم ، وأنه فكر الله باعتباره موجد)[1] . فهذه الأصداء كلها صدر بها يوحنا الإنجيل الرابع .

هذا ، ونستطيع أن نقول كخلاصة لهذه الفقرة : إن المسيحية يهودية الأصل والهدف والغاية ، لأن الخلاص هو من اليهود (يوحنا ٤ : ٢٢) ثم خرجت عن أصولها وقواعدها متخطية حدودها بفعل تطورها فى جو يهودى هيلينى ، ولقد كان يهود الشتات يغلب عليهم طابعين متضامنين ، أحد الطابعين وسم به فريق يعود باليهودية إلى وجهتها الأولى الترمتية تنادى بالانفصال التام عن غير اليهود (الشعوب) مع فرض طقس الختان وسائر السنن الشرعية فرضا مع قطع الصلات الودية مع الوثنيين أو غير المختونين .

وفى الجانب الآخر من يهود الشتات فريق آخر أشرب الثقافة الهيلنستية وخلط فى عقيدته ما تصوره من أساطير إلهية يونانية ، وهذا الفريق كان ، يرى التساهل فى تطبيق الشريعة إلى الحد الذى يتلاءم مع طبيعة البشر ، ونشأت كذلك خصومة من الطائفتين كان لظور الفريق الثانى على الأول أثر كبير فى تحول المجتمع المسيحى ، فقد كان فى المسيحية أتباع من كلتا الطائفتين ، وكان المسيحيون الميالون لليهودية يطالبون كل معتنق الدين المسيحى بأن يختتنوا وأن يلتزموا الشريعة الموسوية فى كل تعاليمها وتقاليدها ، والمسيحيون المتأثرون بالثقافة الهيلنستية لم يطلبوا معتنق الدين المسيحى بأكثر من قبول العقيدة المسيحية دون الأعمال ، واحتدم نزاع هذه الخصومة ، وقد سجلها سفر الأعمال فى عمرمه . ولأمر ما اختفت طائفة المسيحيين الذين يميلون لليهودية ولم يسمع لهم حديث أو ذكر .

---

(١) راجع بريهييه / الآراء لفيلون ص ١٣١ ، ١٤١ ، ١٤٧

ومن ذلك يمكن القول بأن المسيحية هى وريثة اليهودية المستهلنة التى ورثت هذه الديانة .. وسايرت إلى حد كبير تيار الفكر الهيلينى فى الشرق، ولما كان معتنقوا الدين الجديد من اليونانيين يفوقون فى عددهم معتنقيه من اليهود بكثرة كاثرة، فلا عجب فى أنه سرعان ما أخذ التعليم اليونانى الذى كان يتضمن الفلسفة اليونانية يسرى فى التعاليم المسيحية ، والذى لامرية فيه أن الفكر اليونانى كان قد أثر من قبل فى الفكر اليهودى ، ومن هذه الناحية وغيرها من النواحى عملت المسيحية على اطراد التطور الطبيعى لليهودية المتأثرة بالثقافة الهيلينية ، وقد كان القديس بولس وهو اليهودى المستهلن رائد التوفيق بين المسيحية وبين التراث الفكرى عند الشعوب الداخلة فى المسيحية من غير اليهود ، فقد كان لرسائله أثر عظيم على تكوين العقيدة المسيحية ، وعلى التقريب بينها وبين الفلسفة اليونانية المعاصرة له ، فقد كان المسيحيون مثل اليهود المتأثرين بالثقافة الهيلينية يقرؤن العهد القديم فى ترجمته اليونانية، كما أن القوانين الأولى لعقيدتها قد صيغت فى عبارات مستقاة من الفلسفة اليونانية ، وهكذا أتيح منذ البدء للكنيسة المسيحية أن تكون مبشرة بالثقافة الهيلينية اليونانية ، وحدث فيما بعد عندما دبت الخلافات ونشبت الخصومات داخل الكنيسة أن صيغت هذه الخصومات هى الأخرى فى مصطلحات فلسفية يونانية ، ودارت معاركها وفقاً للأصول الفلسفية[١] وقطعت بذلك المسيحية صلتها باليهودية بفعل بولس بعـــدما أمعنت اليهودية فى انحرافها نحو اليمين أما المسيحية فأمعنت نحو اليسار فى انحرافها .

وعلى هذا الضوء نستطيع أن نؤكد تعاون بولس مع فيلون فى إنشاء المسيحية الجديدة ومنها تسلم يوحنا خيط نسيجها .

وهكذا نرى أن منبع التعليم البولسى وأصل تصوير المسيح اللاهوتى

---

(١) انظر كتاب علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، ترجمة وهيب وهيب كامل ص ٥١، ٥٢ ط

عنده وعند يوحنا هو مصدر بشرى وليس من وحى إلهى كما هو المدعى، فليس هو إلهام الروح القدس، وإنما هو وحى أفلاطون ثم فيلون وكثير غيرهما من رواقيين وفيثاغورسيين وفلاسفة مدينة الأسكندرية . . فهم الذين أوحوا بمعنى الكلمة فى إنجيل يوحنا بعدما أخذت أطوارها المختلفة السابقة ، فليس هناك فكرة أو تعبير واحد مما افتتح به يوحنا إنجيله لم لم تكن موجودة بين أقوال فيلون فى شأن الكلمة ووظائفها ،فالوحى من فيلون ، وفلسفة الفكر من الأسكندرية ، ولا مساس لذلك بوحى السماء .

وكل ما ابتدعه يوحنا وبولس من نزوع فلسفى ولا هوتى لم يعرفه الحواريون السابقون، ولم يعلم المسيح حقائق ذلك النزوع، حيث لم يقل به، مما زعموا أنه ترك للروح القدس يلقى به إلى القديس بولس وحده دون غيره ، فأعلنها للعالم لاهوتية فلسفية واعتنقها المؤمنون به من المتهودين والوثنيين الداخلين فى حـــوزة دعوته ، وسرى تأثيرها عليهم مدى قرابة الألفى سنة وهى تتمتع بجدة وتأثير أكثر مما كان لعيسى رب المسيحية السماوية ونبيها ، وما هى فى الحقيقة إلا أثر للعلوم اليونانية والعقائد الخفية السائدة فى عصره ليس غير .



الفصل الثانى

أثر الوثنية والعقائد الخفية على الديانة المسيحية

كانت عقيدة التثليث سائدة فى العصور السابقة على موسى عليه السلام بقرون عديدة، وكانت ديانات الوثنيين على اختلاف ألوانها متخذة فى عباداتها إلها مثلثا، وتعتقد فى ذلك الإله أنه ثلاثة أقانيم، وترمز إلى كل أقنوم منها بلفظ خاص، وقد بين ذلك كله علماء أوربا ومحققوهم الذين أثبتوا كل ذلك من الآثار القديمة والتاريخ العتيق، وكم كان فى الود أن أشير إلى بعض تحقيقاتهم ولكن الإيجاز يأبى ذلك التفصيل.

وإننا لو تتبعنا عقيدة التثليث فى مواطنها والأمم التى تدين بها لوجدنا أنها عقيدة قديمة وضاربة فى القدم إلى ما قبل التوراة بمئات السنين كما علم ذلك مما حققه الكتاب الغربيون والمحققون منهم، فكانت العقيدة السائدة لدى جميع الأمم الوثنية — كما تبين من التحقيق الحر — أن أول ديانة نشأت بها عقيدة اللاهوت الثلاثى هى ديانة الهنود القديمة، والتى كانت تعرف بديانة البراهمة. فإن أسفار الفيدا يرجع تاريخها إلى عصر سحيق يرجع به بعضهم إلى نحو القرن الخامس عشر قبل الميلاد كما قال الدكتور على وافى[1].

---

(١) إقرأ كتابه: الأسفار المقدسة للأديان السابقة على الإسلام.

وأن هذه الديانة من أقدم الديانات فى الأمم الآرية، وبعضهم يضرب بها فى أعماق القدم إلى آلاف السنين قبل المسيح ، وهم يعتقدون فى إلههم التثليث ويعبرون عنه فى لغتهم (ترى مورتى) ومعناها ثلاثة أصول ، أو هيئات ، أو أقانيم يسمون أحدها (برهما) والثانى (فشنوا) والثالث (سيفا) ويزعمون أن هذه الثلاثة إله واحد . وزعموا أن فشنوا هو الإبن الذى ظهر بالناسوت على الأرض ليخلص الناس بعد الانبثاق والتحول عن اللاهوتية كما قال العلامة (دوان) فى كتابه خرافات التوراة والإنجيل. ثم قال: وأنهم يرمزون إلى الأقنوم الثالث وهو (سيفا) بصورة حمامة . وأن اسمه (الروح القدس) ويدعونه (كرشنا) وبعض الكاتبين عقد مقارنة بين ماجاء بشأن كرشنا ككلمة وابن، وعيسى، من أمور الموت والصلب والقيام من الموت . ثم انتهى بالتطابق التام بين ما قيل فى كل منهما .

ولما كان البرهميون من أقدم الأمم فى اعتناقها ، سرت العدوى منهم إلى البوذيين ، ثم إلى سائر الديانات الوثنية، فتلقفها منهم وثنيوا الصين ، واليابان ، والفرس ، والرومان . واليونان . والمصريون القدماء ،وغيرهم من أمم الشرق أولا ثم أمم الغرب ثانياً بحيث لم تبق أمــــة تدين بدين الأوثان يخلو منها القول بالثالوث وتقديسه كما قال (برنشرد) فى كتابه ــ خرافات المصريين الوثنيين ــ (لا يخلو شىء من الأبحاث الدينية المأخوذة من مصادر شرقية من ذكر التثليث أو التولد الثلاثى)[1] :

وقد أطلقوا على الثالوث اسم الآب والإبن والروح القدس ، وكثير منهم من يعبر عن الإبن بالكلمة ، وهذا هو عين ما نراه اليوم فى التثليث المسيحى الذى هو عبارة عن الاعتقاد بثلاثة أقانيم فى إله واحد هى (الآب والإبن والروح القدس) فعقيدة التثليث المسيحية قد امتدت جذورها إلى

---

(١) مجلة الاسلام عدد ١٦ السنة السادسة محى الدين البغدادى

تثليث الأمم الغابرة ، ولا تكاد تختلف قيـد أنملة عن هاتيك العقائد القديمة التي كتب عنها علماء الغرب المحققون[١] وكثير ما هم ، وهؤلاء بحثوا واستقوا معلوماتهم من تواريخ الوثنيين وآثارهم وكتبهم الدينية ، ودرسوا طقوس عباداتهم ، بل دخلوا معابدهم وهياكلهم ورأوا بأنفسهم الأصنام ذات الوجوه الثلاثة التي تمثل الثالوث كما هو في دار العاديات بالهند[٢] .

وقد نقل إلينا بعضهم بأن (بوذا) ولد من العذراء (مايا) وأنه ظهر بالناسوت لينقذ العالم من خطاياه ، وقد عقد العلامة دوان مقارنة بين بوذا وعيسى واستوعبت كل أحداث حياته كما روتها الأناجيل ، ووجد لها نفس النظير والشبيه في حياة بوذا بما يؤكد أن دين المحبة اليسوعي قد حكى على نظام آلهة الوثنيين ...)[٣] كما قال ذلك الكاتب أيضاً عند حديثه عن عقائد قدماء المصريين[٤] بأن (كهنة هيكل منفيس بمصر كانوا يعبرون عن الثالوث المقدس لتعليم المبتدئين في الدين بقولهم — إن الأول خلق الثاني وهما خلقا الثالث وبذلك تم الثالوث المقدس — وكان الثالوث عند المصريين يشير إلى ثلاثة آلهة — أزريس ، وإزيس ، وتفطيس ، أو هورس ، وأن هؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات ، وعنهم صدرت القوة الأبدية) .

---

(١) مثل العلامة (دوان) والعلامة (موريس) وكتابه (الآثار الهندية القديمة) و(برتشرد) وغيرهم

(٢) كتاب الآثار الهندية القديمة لموريس

(٣) أنظـر (ينابيع المسيحية) الفصل الثالث ، خواجه أفندى كمال الدين

(٤) أنظر كتابه (خرافات التوراة والإنجيل)

ثم قال المؤلف : (لاريب أن تسمية الأقنوم الثانى من الثالوث المقدس (كلمة) هو من أصل وثنى مصرى دخل فى غيره من الديانات كالمسيحية و(أبوللو) المدفون فى مدينة دلهى بالهند يدعى (الكلمة) وفى علم اللاهوت الأسكندرى الذى كان يعلمه (بلاتو) قبل المسيح بسنين عديدة (الكلمة هى الإله الثانى) ويدعى أيضاً ابن الله البكر) اهـ.

وقال العلامة (بونويك) فى كتابه — عقائد قدماء المصريين — وأغرب عقيدة تم انتشارها فى ديانة المصريين هى قولهم بلاهوت الكلمة. وأن كل شئ صار بواسطتها، وأنها منبثقة من الله وأنها هى الله) اهـ.

ومن المؤرخين والمحققين المعاصرين من المسيحيين أسوق ما قاله الأستاذ زكى شنودة[1] :(وكان فى معتقدات المصريين مايجعل فكرة التثليث المسيحية قريبة إلى فهمهم فقد كان لكل مدينة هامة من مدنهم ثالوث من الآلهة تختص بعبادته والولاء له، ومن أمثلة ذلك ثالوث طيبة ويتألف من آمون (الآب) وموت (الأم) وخنسو (الإبن) وثالوث أبيدوس، أو العرابة المدفونة، ويتألف من أوزريس (الآب)، وإيزيس (الأم) وحوريس (الإبن) وكانوا يعتقدون أنهم وإن كانوا ثلاثة إلا أنهم يعملون معاً. كما كان فى معتقداتهم مايجعل فكرة ابن الله من عذراء قريبة إلى فهمهم كذلك، فقد كانوا يعتقدون أن (حورمحب) آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة هو الإبن للإله آمون من عذراء، وأن (أبيس) كان يتجسد فى مولود (عجلة) بكر بعد حلول روح الإله بتاح فيها... وكانوا يصورون فى يد آلهتهم علامة ترمز إلى الحياة وكانوا يسمونها (عنخ) وهى قريبة فى تكوينها من علامة الصليب التى اتخذها المسيحيون شعاراً ورمزاً لهم بعد ذلك، كما كانوا يستعملون الغسل أو الرش بالماء المقدس، وهو

---

(١) أنظر تاريخ الأقباط جـ ١ ص ٣٦، ٣٧ ط أولى

طقس يشبه العماد — أى التعميد — عند المسيحيين ، وأخيراً : نجد فى قصـــة الإله أوزيريس واستشهاده ، ثم انتصاره ، فى النهاية على الشر ، وجلوسه بعد ذلك فى محكمة السماء ليحاسب الناس كل على حسب أعمالهم ، ما يجعل قصـــة حياة المسيح وموته وقيامته وصعوده قريبة إلى عقول المصريين وقلوبهم) . إنتهى زكى شنوده .

فهذا قول شاهد منهم وعليهم بسابقية التثليث المصرى ، وقيام الإله من الموت ، وحياته بعد ذلك البعث والقيام ، ومحاسبته للناس على أعمالهم وعقائدهم كل ذلك سابق على التثليث المسيحى ، ولعله يتبادر إلى الفهم أن المصريين نشروا هذه العقيدة فى أمم أخرى ، ثم عادت إليهم فى ثوب جديد يتمثل فى الديانة المسيحية ، خاصة إذا ما رجعنا إلى الباب الأول من هذا الكتاب وعرفنا أن الإسكندرية بزعامة أساقفتها دون غيرها هى التى تولت كبر هذه العقيدة ، وصمدت أمام الموحدين وغيرهم انتصاراً لعقيدة التثليث ، وتأليه المسيح ، وظلت تنافح وتكافح حتى أتاها قسطنطين فتقررت بالقوة والإرهاب ونفى مخالفوهم ، وشردوا ، وقد ثبت أنه كان بين مدرسة الإسكندرية اللاهوتية وعلماء المدرسة الوثنية الأولى علاقات اتحاد متينة العرى حتى قال الأمبراطور (أدريانوس) (إن عباد) (سيرابيس) بالإسكندرية مسيحيون ، كما أن أساقفة النصرانية يعبدون (سيرابيس)[1] كل هذا يؤكد تأكيداً لا شبهة فيه أن هذه العقائد مستوردة لهم من الأمم المعاصرة لهم ، والسابقة عليهم ، — والسابق عادة يؤثر فى اللاحق — وأنها بقايا هذه الوثنيات ، حملها إلى المسيحية أناس تنصروا بعد وثنية ، كما أثبتنا ذلك وحققناه فيما سبق ، ودليلنا على ذلك

---

(١) أنظر تاريخ المسيحية فى مصر الحلقة الثانية ص ٢١ لجنة التاريخ القبطى .

أن عقيدة التثليث لا يوجد لها أثر صريح فى الأناجيل ، ولا تتفق مع تعاليم المسيح الطاهرة النقية ، وأيضاً كان اليهود الذين أرسل فيهم عيسى عليه السلام أكثر ميلا إلى عبادة الأصنام ، وتفضيل الوثنية على عبادة الله الواحد ، فمثلا إذا رجعنا إلى عهد نبى الله موسى — عليه السلام — وبعد ظهور آية النجاة من الغرق فى البحر وهم هاربون من فرعون وقومه ، وذلك بفضل الله ورعايته ، وظهور تكريمه لهم ظهوراً ملموساً ، فإننا نجدهم ارتدوا سريعاً إلى الوثنية فعبدوا الأصنام وقربوا لها القرابين ، وهذا ما ذكره سفر الخروج فى الإصحاح الثانى والثلاثين وأشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله تعالى فى سورة الأعراف (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة[1]) أى إنهم يريدون إلها وثنيا كما أن الذين يسكنون أرض سيناء التى خرجوا من البحر إليها لهم آلهة وثنية ، وكان ما كان من غضب الله وموسى عليهم ثم قصة عبادتهم العجل قبل رجوعه من الميقات أو الميعاد والذى صنعه لهم موسى السامرى[2] ، ثم تتابعت أنبياؤهم وغلظت النهى عليهم بتركهم الشريعة وعبادة غير الله ، ولكنهم مع ذلك يصرون على ذلك الضلال كما أشار سفر الملوك الأول (١١ : ٣٣) حيث يشير إلى أنهم عبدوا (عشتورت) إلهة الصيدونيين و(كموش) إله المؤابيين و(ملكوم) إله العمونيين وكانوا يسجدون لهذه الآلهة ، وأمثال ذلك كثير وكثير .

ولعل منشأ حب الوثنية إلى قلوب اليهود الذين كانوا فيما بعد نواة وبطانة دين المسيح عيسى يرجع إلى اختلاطهم وتعايشهم أحقاباً طويلة بين الأمم الوثنية الذين كانوا دائماً ساداتهم فى مصر وبابل وفلسطين ، والذين

---

(١) الأعراف / ١٣٨

(٢) إقرأ ذلك من سورة الأعراف الآيات ١٤٨ — ١٥٢ ومن سورة طه ٨٣ — ٩٨

قد تغلبوا عليهم فى أرض الكنعانيين ، ومن عادة المغلوب أن يميل إلى تقليد من تغلب عليه ، وأخضعه لسلطانه ، ويعجب بما عنده من وسائل العظمة والتقديس ، ومن يطالع الآداب البابلية يرى أنهم يصورون إلههم (بال) فى رواية آلامه وموته بما لا يتزحزح قيد أنملة عما روته الأناجيل من آلام المسيح وموته وقيامته[1] .

فلا يبعد على مثل هؤلاء اليهود سواء منهم من كانوا فى القديم قبل الشتات أو أثناء الشتات أن يقولوا فى مسيحهم المنتظر أوهاما وخيالات من وحى الوثنية التى أشربتها قلوبهم وتغلغلت فى أرواحهم ، لا يبعد أن يقولوا عن هذا المسيح أنه أعظم المخلوقات ، وأن الله خلقه قبل كل شىء ، وبه عمل كل شىء ، وأن الله صيره إلها وأنه سيدين الخلائق يوم القيامة ، إلى غير ذلك مما كانوا يجدونه فى الديانات والعقائد السائدة فى أنحاء الأرض التى عمروها . ولا عجب فى ذلك ، فكان المسيح المنتظر يرقبونه ارتقاب الظمآن للماء . فقد كانو يرون فيه ملكا عظيما ينصرهم ويخلصهم من الأمم التى طالما استذلتهم واستعبدتهم ، ويرد إليهم ملكهم الغابر ، ويجدد دينهم ليكون أبديا كملكهم المنتظر .

فقالوا فى هذا المسيح كل ما وجدوه فى معبوداتهم من دون الله التى أقاموا عليها أزمانا وأجيالا بعدما تهيأت أذهانهم إلى قبول التجسد الإلهى والنزول إلى البشر كما مر . فلما جاء المسيح — عليه السلام — نمت هذه العقيدة فى قلوبهم وحاول كثير من الذين آمنوا به عبادته ، واعتقاد ألوهيته خاصة من رأوا منه إجراء المعجزات ، فقد كادوا يفتنون به لذلك ، ولما أحس بتلك المغالاة سألهم فيما عساهم يعتقدون فيه ثم اطمأن من جواب بطرس

---

(١) انظر كتاب (ينابيع المسيحية لخواجه افندى كمال الدين) الفصل الثالث

بأنه المسيح[١]، أى ليس إلها، وكان — عليه السلام — يحارب تلك الأفكار بمثل قوله فى إنجيل متى (كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم يارب يارب، أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة، فحينئذ أصرح لهم أنى لم أعرفكم قط، إذهبوا عنى يافاعلى الإثم)[٢].

كما كان كثيرا ما يسمى نفسه (بابن الإنسان) تحرزا من المغالاة فيه، وتنبيها على أنه مثلهم إنسان لئلا يغتروا ويرفعوه إلى درجة الألوهية، وكم نطق بأنه عبد الله، ومربوب له، وأن الله واحد صمد لا شريك له[٣].

وأن الله إلهه وإلههم، وهم جميعا سواء أمام الله فى العبودية، إلى غير ذلك مما ورد فى الأناجيل مما يؤكد وحدانية الله وعبودية المسيح الخالصة لله عز وجل، ومع كل ذلك أصروا على المغالاة، وحين تنصر اليهود — حاشا الذين صاروا الحواريين منهم والصادقين فى إيمانهم — حملوا معهم إلى المسيحية وثنيتهم القديمة وعمدوا إلى أقواله فى عبوديته لله وإلى تعاليمه فأولوها بما يخرج بها عن مدلولاتها الأصلية ومعانيها الحقيقية مع ظهورها وعدم خفائها، وكانت البيئة التى نشأوا فيها خير مساعد لهم على ذلك الانحراف، ولما لم تكن عقيدة تأليه المسيح وأزليته وكونه ثالث الثالوث ناضجة فى أذهان يهوديى زمانه لم تحظ ببيان واف عنها فى العهد الجديد أو تفصيل فيه، مع أن هذه العقيدة وتلك المعانى السابقة كانت خلاصة أحلامهم قبل المسيح على أنه المنقذ لهم والخلاص، فلما دخل بولس المسيحية ثبت هذه العقيدة وترعرعت بفضل ما أضاف إليها من الأديان والعقائد

---

(١) مرقس ٨ : ٢٩

(٢) متى ٧ : ٢٢، ٢٣

(٣) اقرأ مرقس ١٢ : ٢٩ ويوحنا ٢٠ : ١٧ ولوقا ١٨ : ١٩

الخفية (الأسطورية) ، ثم اكتملت بعد ذلك بفضل يوحنا وما قررته المجامع المسكونية مما هو مذكور ومبين فى بابه ، حتى انتهى بهم الحال إلى أن جعلوه مساويا لله فى الجوهر والمقام ، بل وأنه هــو هو .. بل جعلوه حجر الزاوية فى عموم الديانة ، فأمسكت المسيحية البولسية بأهداب التثليث ، وقررت موت المسيح ابن الله نيابة عن البشر ، ثم بعثه بعد الموت ، وكان لهم الغلب بفضل الرومانيين المتنصرين حديثا وما أكثرهم على عهد (قسطنطين) كما أوضحنا ، ولا يخفى أن الرومانيين ضاربون فى تلك العقائد بسهم وافر ، ولا يعنى ذلك عدم وجود من يدين بالتوحيد من طوائف المسيحيين، بل كان هناك الأكثرية الكاثرة الموحدة والتى تنكر عقيدة التثليث لأنها تضاهى عقيدة الأوثان ،وتتنافى والتوحيد الحقيقى ، ولكن قوة السلطان الرومانى كان لها دخلها فى نصرة المثلثين على الموحدين، ولميل النفوس إلى المغالاة والمبالغة وتهيئة العالم الوثنى لقبول هذه العقيدة وغيرها من طقوس مختلفة أثر كذلك ، وفى الوسع أن نقول: إن المسيحية لم تقض على الوثنية بل ثبتتها .

وخلاصة المقال : إن التثليث لا يتفق وما جاء به المسيح من عقائد وأحكام، ولكنها حيل المبطلين من رومانيين ، ويونانيين ، ومصريين وثنيين ، ويهود ثم سلطان متسلط لنصرة الوثنية وثالوثها ، فباعدوا بين الدين وصاحبه أبعد ما بين المشرقين ، والراجح لدى المؤرخين والمحققين أن فكرة الإله المنقذ قد انحدرت إلى غرب آسيا من بلاد فارس أو بابل، فالتاريخ كله والحياة كلها قد صورا الديانة الزراداشتية صورة صراع بين قوى النور وقوى الظلمة، ثم يأتى فى آخر الأمر منقذ هو (مثراس) ليحكم بين الناس ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين ، و(مثراس) هــو أحد ثالوث الفرس المكون من (أوزدمرد) الخلاق و (مثراس) بن الله المخلص والوسيط و (أهرمن) الملك ، وذلك باستثناء مجوس الفرس المشهور عنهم التثنية دون التثليث ، وبعد حكم(مثراس) يأخذ (أهرمان)

جميع الأرواح الدنسة الشريرة لتعذب على يديه عذابا أبديا، أما الأرواح الطاهرة فترتفع إلى سبع طباق حتى تصل إلى السماء، وهناك يستقبلها (أهورا — مزدا) نفسه. وقد اتسع موطن هذه الأساطير من غرب آسيا بعد عبورها بلاد اليونان، فقد كان يقوم بالتبشير بالوثنية مبشرون منهم كثيرون، ويطوفون أنحاء أوربا يدعون إلى هذه الديانات[1].

وقد روع الآباء المسيحيين ما وجدوه من أوجه الشبه بين دينهم وبين المثراسية، وقالوا إن الثانية قد سرقت هذه العبادات عن المسيحية، أو أنها في المثراسية حيل مضللة احتال بها عليهم الشيطان في صورة (لأشرمن).

والقول بأن تلك حيل من الشيطان زعم متهافت، فقد عرفنا مما مر أن إقليم البحر الأبيض كـــله كانت تسوده عقائد المسيحية الوضعية وعباداتها قبل أن توجد المسيحية الحقة بزمن كثير، وقد ساد الدينين طقوس خفية تتخذ عادة صورة احتفالات تطهير وتضحية وتثبيت روحي، كله تدور حول موت الإله وبعثه، والذي لا شك فيه أن المسيحية أخذت خلاصة الأديان الشرقية، ثم امتصتها وقضت عليها وظهرت بشكلها الجديد، فالمسيحية آخر تشكيل عظيم ابتدعه العالم الوثني القديم.

بعث الإله من الأموات في الوثنية :

كانت عقيدة موت الإله عن البشر ليحمل عنهم الخطايا من العقائد المقررة في الوثنية، فقد كانت مدن سوريا تقول ببعث الإله (تموز) من الموت وتحتفل بارتفاعه إلى السما. وجميع الشعوب كانت تعرف ببعث (أوزريس) وقيامه من بين الموتى، فهو الذين قتله أخوه (ست) إله

(١) انظر (ينابيع المسيحية) خواجة افندي الفصل الثالث

الشر بالحيلة والمكيدة ، إذ ادعى أنه صنع له تابوتا من ذهب يكون فيه مقره الأخير ، وأراد منه أن يرقد فيه ليقاس عليه ، وحين رقد بادر بغلق التابوت عليه ثم قتله ، وقطعه إربا إلى حوالى اثنين وسبعين شلوا فرقها على ولايات مصر البالغة نفس عدد أشلائه آنذاك ، ولكن زوجه (إزيس) جمعت هذه الأشلاء ورشت عليها ماء قرىء عليه بعض التعاويذ ، فكان ماء للحياة ، وقام بذلك (أوزيريس) من الموت وأنجب من إزيس ابنهما (حورس) ثم كان بعد ذلك هو الحاكم الأعلى فى مملكة الموتى ، وكان يحتفل بهذا البعث السعيد فى كل المدن فى أمم البحر الأبيض احتفالا رائعا ، وكان عباده ينادون مبتهجين لقد وجدنا أوزيريس وقام من جديد [1] .

وكذلك الأمر كان بعث (أتيس) و (أدونيس) فى آسيا الصغرى وإيطاليا وغيرهما ، وهكذا يكون منزع بعث الإله المسيح من بعث (أزيريس) و (أتيس) و (أدونيس) ، وكذلك فكرة الصعود إلى السماء بعد البعث من الأموات ، فقد كانت تحتشد بها العبادات الوثنية ، وتبعا لذلك جاء فى سفر الأعمال أن المسيح صعد بجسمه إلى السماء بعد أربعين يوما من ظهوره [2] لمريم المجدلية ، وكانت هذه الفكرة شائعة ومألوفة لدى اليهود الذين كانوا يرون انتقال القديس بجسمه وحياته إلى السماء ، ويحسن مراعاة الفرق بين قول القرآن بالرفع وفكرة الرفع فى الوثنية واليهودية بأن الأولى — التى جاء بها القرآن — لم يسبقها موت بخلاف الثانية ، وقد ادعيت هذه الفكرة أيضا (لأبوللون التياماثى) فادعى أتباعه أنه ظهر لهم بعد موته ، وأنه رفع إلى السماء بعد الموت ، وكان يدعى أنه ابن إله ، كما كان يعزى إليه كثير من المعجزات وقد قيل عنه كما قيل عن المسيح [3]

---

(١) أنظر الفلسفة الشرقية د. محمد غلاب

(٢) إقرأ السفر الأول ١ — ١٠

(٣) انظر لوقا آخر الأصحاح الرابع والعشرين

بأنه كان يمر من خلال الأبواب المغلقة ، ويفهم جميع اللغات ، ويطرد الشياطين ، وأنه رفع بنتا من الأموات ، مع أن حقيقة أمره أنه كان فيلسوفا عمر طويلا ومات عام ٩٨ م .

وهكذا بدل المسيحيون اسمى (إزيس وحورس) باسمى مريم والمسيح ، وبدل بعث (أتيس) و(أزيريس) ببعث المسيح ، وقد أخذ المسيح بفعل المغالين ما ادعاه أتباع الوثنية لآلهتهم ، فقد دعى (بالذبيح) و (حامل الخطيئة) والفادى وغير ذلك .

وأخيراً : إن المسيحية الموضوعة أو المفلسفة قد ظهرت بتشكيل وفى بجميع متطلبات الإنسانية من الوجهة العقائدية ، فكانت أجمة من العقائد احتوت شعائر وعبادات ، وعقائد الأمم الوثنية ، والأفكار الفلسفية والدينية .

وليت شعرى إذا كانت عقائد المسيحية قد كانت مقررة فى الديانات القديمة قبل عيسى فما الحاجة إلى نزول ابن الله إلى الأرض ليفدينا ، ويخلصنا ويصالحنا مع أبيه ، وقد فدى عنا (أوزريس) وصالحنا (مثراس) وخلصنا من الخطيئة أتيس ؟ ؟ .



الفصل الثالث

مزج المسيحية بالفكر الفلسفي اليوناني

كانت الدولة الرماونية التي نشأت فيها المسيحية كما يقول (يوسف كرم) رومانية الهيكل يونانية الروح ، وإذا استطعنا أن نجر منه خيط هذا الطابع كان في وسعنا أن نتصور أن الروح اليونانية بعقائدها الدينية ، وطقوسها الخفية ، وفلسفاتها المختلفة ، كانت بمثابة الطابع العام المسيطر على الفكر والدين ، والحديث في هذه الفقرة يختلف تماما عن الحديث في الفقرة الأولى، فالحديث هناك في أثر اليهودية التي أشربت الثقافة اليونانية وأخرجت منها مزيجا من الثقافتين وإعمال الفكرين ذا طابع خاص. أما الحديث هنا فعن اليونانية كفكر فلسفي دون النظر إلى مزجه بأي ثقافة أخرى . . فكل من دخل في دين المسيح ممن لم يلقه ويتلقى عنه مباشرة في ميدان تعاليمه طعمه بكل ما ورثه وتنسمه من هواء هذه البيئة الفلسفية والوثنية . فهذا القديس بولس المتضلع في معارف بيئته وبني جنسه ، قد التقى بالأثينيين وخاطب جميع اليونانيين من الفلاسفة الأبيقوريين والرواقيين [1] . وهو المؤسس الحقيقي للادوت الكنيسة كما أسلفنا ، وبذلك تكون المسيحية قد التقت كامل اللقاء بالفلسفة اليونانية وامتزجت بها ، وكان كثير من كبار قساوسة المسيحية تنصروا بعد فلسفة ، فكان من الطبيعي أن يصدروا عن معارفهم السابقة وثقافتهم في مجال تبيان عقيدتهم ، وأثبت التاريخ أنه كانت تقوم من أجل ذلك مناقشات كلامية، وكتابات جدلية لتحديد معالم الدين في فوضى المذاهب والملل التي ملئت

---

(١) اقرأ سفر الأعمال : ١٧ -

بها رؤوس الفلاسفة المتنصرين ، وكان الدافع لكل هذه المهاترات هو ما أدخله هؤلاء فى الدين . وحملوه معهم من ثقافاتهم السابقة ، وما زالوا يتنقلون بعقائد هذا الدين من نحلة إلى نحلة ، ومن مذهب إلى مذهب حتى ووري دين عيسى السهل السلس المثير الذى كان قد قضى حواريوه وأنصاره نحبهم ، وخلا الجو لهؤلاء المتشبعين بعقائدهم القديمة المتوارثة ، ولم يبق أمام الجماهير إلا ما ينمقه هؤلاء الدخلاء بما يتفق وعقائدهم ، وكانت الأفلاطونية هى المذهب المفضل ذو الحظـــوة عند المسيحيين فى العصر الأول ، عرفوها وقرأوها عن مختلف الكتاب ، خاصة فيلون كما أسلفنا ، وكانت محاورات أفلاطون متداولة آنذاك ، ولقد نظروا إلى الأفلاطونية على أنها أسمى المذاهب الفلسفية الرومانية ، بل هى أقربها إلى المسيحية ، حتى إذا ما تجددت فى مهدها الثانى فى الإسكندرية فى القرن الثالث الميلادى متأثرة باليهودية وخيوط المسيحية غير المتشابكة استغلوا الأفلاطونية الجديدة مستعيضين بها عن خلاصة أفكار أفلاطون اليونانى .

وكانت الرواقية هى المذهب الذائع فى أنحاء روما أوائل المسيحية ، وكان الرواقيون يدعون إلى عبادة الله ومحبته ويدعونه أبا ، ولم ينهل المسيحيون من مدرستى (أرسطو وأبيقور) كما نهلوا من مبادىء الرواقية والأفلاطونية ، فقد اقتبس المفكرون المسيحيون من الرواقية ، وكان معظمهم تنصروا بعد رواقية أو رواقية أفلاطونية ، على أن هؤلاء المفكرين المتمسحين أى المتنصرين يعتبرون هاتين المدرستين بمثابة المدخل إلى المسيحية ، لنزعتها الروحية ، وهذا لم يمنع البعض أن يعتبر أفلاطون خير ممهد للمسيحية [1] .

---

(١) يوسف كرم (تاريخ الفلسفة اليونانية) ص ٢٥٤ ، ٢٥٨ والمؤلف مسيحى .

بل كان هناك فريق من الذين شبوا على الوثنية الفلسفية وانتهوا إلى المسيحية مما أعجب بالنتاج الفلسفى اليونانى، وما أعلنه المسيحيون من مبادىء من خالص أفكارهم، فرأوا فى ذلك توافقاً تاما بين الفلسفة والدين، بل رأوا أن الفلسفة تمهد السبيل للدين، فالاتفاق ممكن بينهما فى نظرهم، ولقد كان هناك حماة للدين دافعوا عنه بالأسلوب الذى أفادوه من ثقافتهم، فجاء على أقلامهم ألفاظ وعبارات فلسفية وبخاصة أفلاطونية ورواقية رأوها صالحة لأداء مرادهم فى الدين ليمكن تأديته إلى الوثنيين من قرائهم، فأدخلوا لذلك الفلسفة على الدين، وكانوا يوفقون أحياناً فى تحويل اللفظ الفلسفى إلى الوجه الذى يتفق مع العقيدة، ويقصرون أحياناً فيلتبس المعنى [1] ومن هذا الالتباس كان الانحراف عن الدين اليسوعى فى حقيقته، ومن هؤلاء الذين شرحوا المسيحية بالمصطلحات والمبادىء الفلسفية القديس (جوستين ١٠٣ — ١٦٧ م) فقد اصطنع هذه المصطلحات اليونانية على معان جديدة فى الفلسفة، فلفظ (لوغوس) وارد عن (هيراقليطس) والفيثاغوريين والرواقيين (وفيلون) وقد اصطنعه يوحنا الإنجيلى، ولكن اليونان عنوا به مبدأ معنويا، أو قانونا عقليا، وأراد به يوحنا شخصا تاريخيا عرفه هو وأحبه وآمن بأنه كلمة الله، وكذلك كان (جوستين) يقول باللوغوس، ويعرض رأيه فيه بألفاظ رواقية، وهو الموجود الروحى المفارق للعالم، المسيطر عليه، الذى تجسد لتحرير البشرية من نير الخطيئة [2] ومعلوم أن فكرة التجسد هذه فيثاغورية الأصل، ولكنها بدأت تحيا فى المسيحية حياة جديدة، والقول بالاتحاد المبارك مع الله بعد التجسد، أو الإيمان بنبذ كل ملاذ الجسد وغير ذلك من مبادىء فيثاغورية معلومة كذلك فى المسيحية وتؤمن بها إيمانا كاملا.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٢. (٢) المرجع السابق ٢٦٥.

وهكذا كان يقتبس الحامون عن الدين عبارات ونظريات رواقية قد تعدل أحيانا لتتوافق أو تتطور إليها المسيحية ، ولا يمنع هذا بعض الحامين أن يتخذ أفلاطون إمامه فى تطور المسيحية وصبغتها بالصبغة اليونانية ، كما كان من (أثناغوراس) الذى كان (أفلاطون) عنده أقرب الفلاسفة إلى الحق ، ويرجع إليه الفضل الأكبر فى رسم خطط المسيحية[1]. بل إن الفلسفة التى صنعتها الكنيسة المسيحية واستغلتها هى التعاليم الفلسفية التى كانت شائعة فى العالم اليونانى خلال القرون الأولى من المسيحية ، وهى فلسفة التوفيق التى تزعم لنفسها أنها مستاقة من أفلاطون وأرسطو ، ومثل تلك الفلسفة هى التى وجهت الخصومات التى أثارها فى الكنيسة (آريوس) و (نسطور) و (أوطاخى) وغيرهم ،وكانت المسائل المختلف عليها من وحى الفلسفة ،كما كانت النتائج التى وصلوا إليها من أثر المعالجة الفلسفية. ذلك أن ميراث الدين المسيحى من اليونان كان من تراث الفكر اليونانى المتأخر الذى كانت الفلسفة فيه قد تغلغلت فى الدين وتشربت به ، ولذلك أعلنت المسيحية عقائدها اللاهوتية فى مكان الصدارة ، وقد صبغت كل هذه العقائد بصبغة قوية من الفلسفة ، وكان التفكير فيها فلسفة صرفة صيغت فى عبارات ومصطلحات لاهوتية ..[2] .

وعلى هذا غدت المسيحية اليونانية فيما بعد فلسفة لاهوتية صوفية ، فلما اعتنق (ترتليان)[3] دينه الجديد (المسيحية) جعل المسيحية اللاتينية دينا أخلاقيا وقانونا عمليا .. وكان (إيرنيوس) كتب باللغة اليونانية ، فلما جاء (منوسيوس) و (ترتليان) أصبحت الآداب المسيحية فى الغرب

---

(١) المرجع السابق ص ٢٦٧ .

(٢) علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ص ٦٠ د . لاسى أوليرى ترجمة د . وهيب كامل .

(٣) ولد عام ١٦٠ م .

لاتينية وأصبح الأدب اللاتينى مسيحيا)[١] وبذلك استحكم المزج بين المسيحية فى تشكيلها الجديد بفيوضات العقل اليونانى ، فقد قدر للمسيحية اليونانية بنوع خاص أن يطغى عليها سيل من البدع الدينية بتأثير عادات العقل اليونانى الميتافيزيقية المولعة بالنقاش والجدل . وليس فى المستطاع فهم المسيحية إلا إذا عرفنا ما دخل فيها من هذه البـــدع لأنها لم تسلم من ألوانها[٢] .

الأفلاطونية الجديدة تشكيل جديد للمسيحية :

كانت المادية هى طابع القرن الأول والثانى من الميلاد ، ولعل هذا كان سببا فى أن توجهت إرادة الله إلى خلق عيسى من غير أب إيقاظا للعقول إلى التعرف الروحى وإيذانا ببدء التعمق فى بحث الروح ، وتغلبت الروحية على المادية التى كانت قد ملأت كيان المجتمع كله ، فبالروح الحياة ومن غيرها لا حياة للمادة ، وإن كان هذا لا يمنع من وجود نزعة خفيفة تشير إلى عالم متصوف قد تولدت من شعور بالقوى الإلهية التى لا تنهض النفس بإدراكها من كل ما يقوم عليه الدين ، والذى كان يهدف إلى إماتة الخواص الجسمية الحسية فى الإنسان ، وإحياء نظام الزهد وتهذيب النفس الإنسانية ، كان (أفلوطين)[٣] أعظم الممثلين لهذه النزعة الدينية

---

(١) قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ صـ ٣٠٧ .

(٢) المرجع السابق صـ ٢٩٠ .

(٣) ولد أفلوطين فى ليقوبولس عام ٢٠٣ م وهو قبطى مصرى ، وقد تسمى باسم رومانى ، وكانت تربيته يونانية وتنقل طالبا لعلم الفلسفة وانتهى به المطاف إلى معلم فى الأسكندرية وجد عنده بقية من العلم والمعرفة وهو (أمونيوس سكاس) الذى كان مسيحيا ثم ارتد إلى الوثنية وكان =

الصوفية . ونرجىء الحديث عنه برهة لنعرض الحديث عن (كليمان) الأسكندرى زعيم المدرسة المسيحية قبل أفلوطين والذى له قصب السبق فى التوفيق بين الأفلاطونية والمسيحية .

كليمان الأسكندرى (١٥٠ — ٢١٧) .

كان كليمان وثنيا يعرف الأسرار الوثنية والمذاهب الفلسفية ، وانتهى بتفضيل الأفلاطونية ، وإشباعا لرغبته الروحية اعتنق المسيحية وانتهى به الأمر إلى أن أصبح زعيم المدرسة المسيحية وأستاذها عام ١٩٠ تقريبا، والمدرسة المسيحية هذه كانت تدرس علوم اللغة، والرياضة ، والطبيعة ، والأخلاق ، وتشرح الكتاب المقدس شأنها فى منهج الدراسة شأن المدرسة الوثنية واليهودية حذوك القفاز بالقفاز ، وكان كليمان يقول : مؤدبنا هو ابن الله فى صورة بشرية ، وهو مثالنا الأعلى الذى يجب الاقتداء به ،وقال فى شأن ضرورة الفلسفة للمسيحية وأنهما من منهل واحد : إن من الراجح أن الله نفسه أعطى اليونان الفلسفة ريثما يدعوهم إلى الإنجيل ... إن الفلسفة هى (العهد) الخاص باليونان وأساس الدين المسيحى ..)[1] .

فهـــذا منطق كليمان وهو رئيس المدرسة المسيحية فى الأسكندرية وأستاذها ، جعل بين الفلسفة اليونانية وآرائها والمسيحية تلازما غير قابل للإنفكاك بل جعل الفلسفة تمهيداً وإعداداً لأذهان من يدخلون المسيحية) وهى والمسيحية حقيقتان متعاونتان على تحقيق الإيمان .

= هذا الرجل يحاول التوفيق جهد المستطاع بين المسيحية والأفلاطونية، كما واصل نسج منهجه من بعده تلميذه (أرجن) المسيحى .

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٧١ يوسف كرم .

أفلوطين مبدع الثالوث الأقنومى :

إن الإله عند أفلوطين مثلث الأقانيم، وليس على نظام تثليث الوثنية فى الديانات الشعبية، ولكنه ثالوث فلسفى نسج من وراء فلسفة معلمه الأول أفلاطون مع المزج الصوفى وقد وضع (أفلوطين) رسالته الأولى من التساعية الخامسة (فى الأقانيم الثلاثة التى هى مبادىء) بادئا من النفس الجزئية على نظام منهجه الصاعد، وهذه الثلاثة أقانيم التى دعاها مبادىء هى (الواحد، العقل الكلى، النفس الكلية). وذهب أفلوطين إلى القول بأن كل موجود يصل إلى كماله يلد، وإذن فالموجود الكامل دائماً يلد، فهو يلد موضوعان سرمديا، يلد موجودا أدنى منه ولكنه الأعظم بعده. هذا الأعظم بعده هو العقل الكلى الذى هو كلمة الواحد وفعله وصورته، وكل هذا التصور مقول على المسيح الإبن كلمة أبدية سرمدية، وهو مولود غير مخلوق كما يرددونه فى قانون إيمانهم، وقد وضح أفلوطين بعض التحديد للواحد فقال : (الله روحى إلى أقصى حد فهو عقل)[١] وهذا تردد صداه على لسان يوحنا (الله روح)[٢] ومن مثل ذلك بدأ البناء الأفلاطونى لثالوث المسيحية الذى بدأ عام ٣٢٥ م. وقد صاغ أفلوطين مبادئه صياغة جديدة تلاءمت مع اللاهوت الشعبى، وارتفع بأساطير الديانات الشعبية، وقارب بينها وبين الكائنات الإلهية العليا فى الفلسفة اليونانية، فغدت مبادئه خير مايتوافق مع جعل المسيح الكلمة أقنوما خالصا خالدا سرمدياً، إنما يجعلنا نلمس من هذه الفلسفة ما أحسسنا به فى المسيحية المعاصرة من جو روحانى عميق ظل ذات قوة وأثر بعيد الغور فى الفلسفة والدين.

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٢) يوحنا ٤ : ٢٤

وكان لآراء أفلوطين وعقائده التى كساها ثوب الحقيقة والعقل، أو الإله الوسيط الذى وظيفته القيام بعملية الخلق، والروح بوصفه الجزء القدسى العظيم، كان لآرائه هذه وعقائده الدينية الصوفية الفلسفية أثرها البالغ فى حياة الذين ساهموا فى تشكيل الكنيسة الجديد. مما جعل كثيرا من البنائين فى تشكيل المسيحية الجديدة يتصورون عقيدة الثالوث الأقدس على مثال تصور أفلوطين وأقانيمه الثلاثة كما قال يوسف كرم[1] .

وعلى هذا يكون أفلوطين هو آخر الفلاسفة الوثنيين وأعظمهم فى تنسيق اللاهوت المسيحى ، فأودعه بعد عقيدة التثليث لاهوتية العقائد الوثنية ، وما أكثر الذين افتتنوا به من المسيحيين حتى إن (أوغسطين) يردد كل ما أنتجه صوفى الأسكندرية العظيم ، وفى الوسع أن نقول كما قال (ول ديورانت) بأنه عن طريق فيـــلون . ويوحنا ، وبولس ، وأوغسطين ، غلب أفلوطين أرسطو وتعمق فى أغوار اللاهوت الكنسى، وأخذت الثغرة القائمة بين الفلسفة والدين تضيق شيئا فشيئا ورضى العقل مدى ألف عام أن يسير فى ركاب الدين ..)[2] .

ولا يفوتنا أن نعرض بمدى عمق الأثر الذى حققه (أرجن)[3] صديق (أفلوطين) وزميله فى هذه المدرسة ، فقد كان من مبادئه تثبيت

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية صـ ٢٩٧

(٢) قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ صـ ٣٠٤ .

(٣) يعتبر (أرجن) من حماة الدين فى عصر الأفلاطونية المحدثة وتخرج من مدرسة الأسكندرية المسيحية الفلسفية وكان هو و (كلمنت) أعظم أبوين من آباء الكنيسة خرجتهما هذه المدرسة ، ولكنهما كانا واسعى الاطلاع على الآداب الوثنيـــة محبين لها حسب تذوق كل منهما لها .

عقائد الدين المسيحى كما جاءت بها كتب الفلاسفة الوثنيين ، وكان يضيف إلى تفسير الكتاب المقدس ما استقاه من نتاج مدرسة الأسكندرية ، فهز بذلك المسيحية هزا عنيفا فى تحويلها إلى الأفلاطونية الحديثة ، ولا عجب فهو تلميذ (أمونيوس سكاس) ، وراشف رحيق فلسفته ، ولذلك كان يرى أن المسيح ليس هو الإنسان البشرى الذى يتحدث عنه الإنجيل وإنما هو العقل الذى ينظم العالم ويدبره ، وبهذا الاعتبار خلقه الآب لنفسه وجعله خاضعا له .

وبالجملة فإن الأفلاطونية الجديدة هى آخر تشكيل دينى فلسفى صاغته عقلية الأسكندرية الوثنية الصوفية وجعلته المسيحية الجديدة إهابها الذى ظهرت به أمام الجماهير بعدما حولت ثالوث الأفلاطونية الحديثة المكون من (الواحد والعقل والنفس) إلى (الآب والإبن والروح القدس) .



ثبت بأهم مراجع الكتاب

١ — القرآن الكريم .

٢ — العهد القديم .

٣ — العهد الجديد .

٤ — إظهار الحق / الشيخ رحمة الله الهندى / المحمودية بالقاهرة ١٣١٧ هـ .

٥ — الآراء الدينية والفلسفية لفيلون الإسكندرى / إميل بريهييه ترجمة الدكتورين محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار، مصطفى الحلبي ١٩٥٤ م .

٦ — الأسفار المقدسة للأديان السابقة على الإسلام / على وافى نهضة مصر ١٩٦٤ .

٧ — الأفلاطونية الحديثة / عبد الرحمن بدوى .

٨ — الإنسان الخالد — حياة يسوع المسيح/فالتون أورسلر ترجمة رمسيس جدأوى / دار الكرنك ١٩٦٦ .

٩ — التاريخ المجموع على التحقيق والتدقيق (نظم الجوهر) سعيد بن بطريق / بيروت .

١٠ — التمهيد / أبو بكر الباقلانى / القاهرة .

١١ — الدلائل / البيهقى .

١٢ — السنن الكبرى / البيهقى .

١٣ — الغنى / ج . ف . رذرفورد / الولايات المتحدة الأمريكية ١٩٣٦ م .

١٤ — الفارق بين المخلوق والخالق / عبد الرحمن باجه جى زاده التقدم بمصر ١٣٢٢ هـ .

١٥ — الفصل فى الملل والأهواء والنحل / محمد بن حزم / صبيح بالقاهرة .

١٦ — الفلسفة الشرقية / محمد غلاب / لجنة البيان العربى ثانية ١٣٦٩ هـ .

١٧ — الكنز الجليل فى تفسير الإنجيل/وليم أدى الأمركانى /بيروت

١٨ — الله بين الفلسفة والمسيحية / عوض سمعان .

١٩ — المسيحية فى الإسلام / ابراهيم لوقا / الشرق بالقاهرة .

٢٠ — الملل والنحل / الشهرستانى / القاهرة ١٩٤٧ م .

٢١ — أنوار الجليل فى أخبار مصر وتوفيق بنى إسماعيل / رفاعة الطهطاوى / القاهرة ١٢٨٥ هـ .

٢٢ — تاريخ ابن أبى شاكر المعروف بابن الراهب / بطرس بن أبى الكرم / بيروت .

٢٣ — تاريخ الفلسفة اليونانية / يوسف كرم / لجنة التأليف والنشر ١٩٥٨ م رابعة .

٢٤ — تاريخ الكنيسة القبطية / موريس كامل ديمترى سلسلة الدراسات المسيحية القاهرة ١٩٥٩ م .

٢٥ — تاريخ الأقباط / زكى شنودة / جمعية التوفيق القبطى ١٩٦٢ م

٢٦ — تاريخ النساطرة / ترجمة عادائى بشير / بيروت .

٢٧ — تفسير الطبرى / تحقيق أحمد شاكر / دار المعارف / القاهرة

٢٨ — تفسير الآلوسى (روح المعانى) محمود الآلوسى / ط منير القاهرة .

٢٩ — تفسير القرآن العظيم / ابن كثير / الحلبي — القاهرة .

٣٠ — تنزيه الاعتقاد عن الحلول والاتحاد / جلال الدين السيوطى مخطوط مكتبة الأزهر — القاهرة .

٣١ — خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر/لجنة التاريخ القبطى القاهرة

٣٢ — رسالة الأصول والفروع / القس يوطر .

٣٣ — سر الأزل / توفيق جيد .

٣٤ — شرح المواقف / عضد الدين الإيجى .

٣٥ — شرح المقاصد / سعد الدين التفتازانى .

٣٦ — صحيح مسلم بشرح النووى .

٣٧ — عقيدة الطبيعة الواحدة / عن الكنيسة القبطية .

٣٨ — علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب / لاس أوليرى ترجمة وهيب كامل لجنة التأليف والنشر ١٩٦٢ م .

٣٩ — فتح البارى بشرح صحيح البخارى / ابن حجر العسقلانى .

٤٠ — قصة الحضارة / ول ديورانت / مطبعة مصر ١٣٧٢ هـ ثالثة .

٤١ — مفاتيح الغيب (تفسير الرازى) فخر الدين الرازى .

٤٢ — ما معنى أن المسيح ابن الله / صادق إلياس / النيل بالمنصورة .

٤٣ — محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الفلاسفة والمتكلمين فخر الدين الرازى / الحسينية — القاهرة ١٣٢٣ هـ .

٤٤ — يسوع المسيح / بولس إلياس / الآباء اليسوعيين — بيروت

٤٥ — يسوع المسيح فى ناسوته ولاهوته / هانى رزق، النصر بمصر ١٩٧٠ م .

٤٦ — ينابيع المسيحية / خواجه أفندى كمال الدين / الاسكندرية ١٩٢٣ م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب

٢٢٥٠ / ١٩٩١ م

I . S . B . N : 977 - 00 - 1174 - 6

